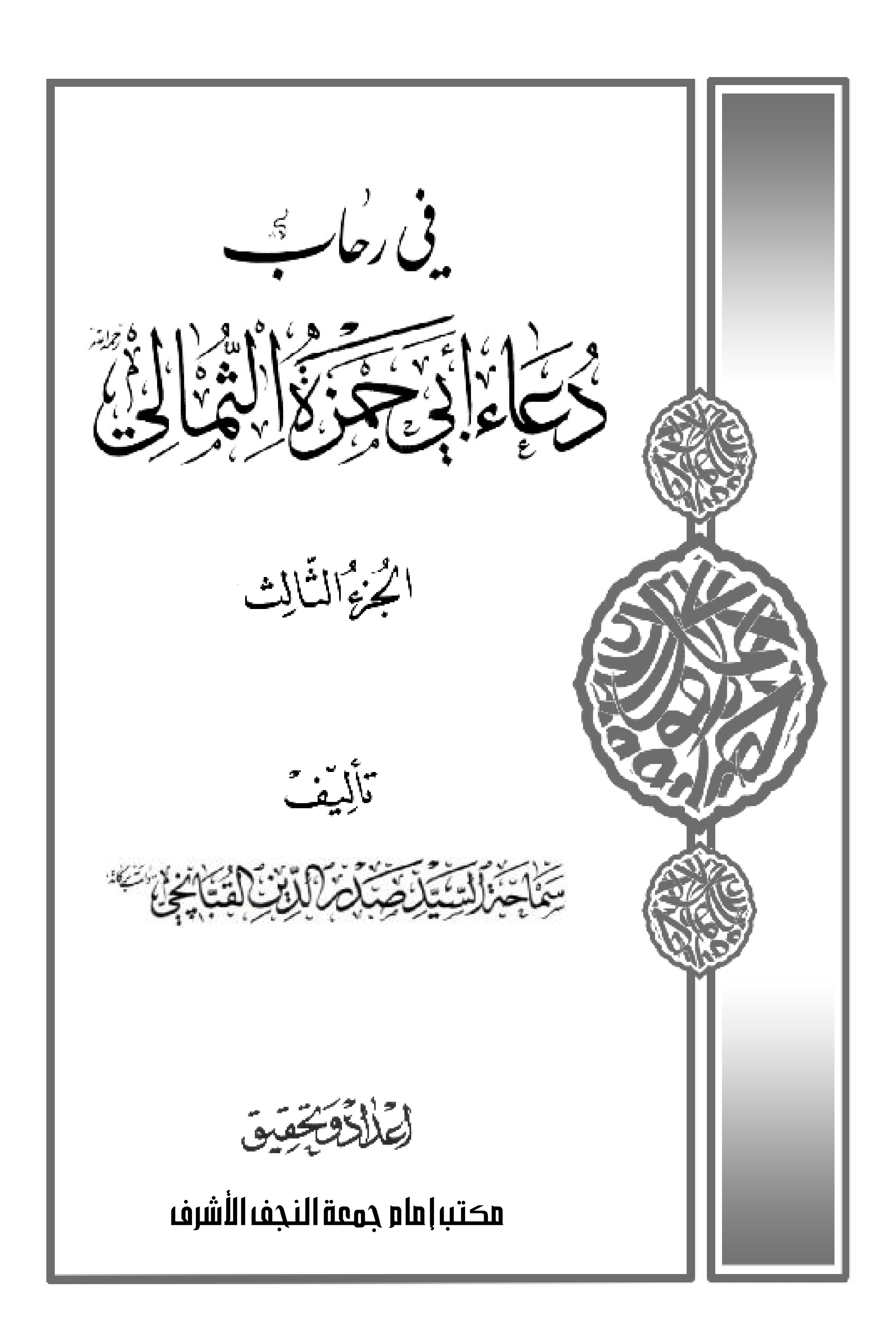


في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي

الجزء الثالث

تأليف

سماحة السيد صدر الدين القبانجي

إعداد وتحقيق

مكتب إمام جمعة النجف الأشرف

في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي/ ج (٣)
السيد صدر الدين القبانچي
مكتب إمام جمعة النجف الأشرف
الطبعة: الأولى
سنة النشر: ١٤٢٩هـ
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وإيضاح:

وبعد..

هذه مجموعة محاضرات قدّمناها للمستمعين في النجف الأشرف خلال ليالي شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٧ و١٤٢٨ للهجرة النبوية الشريفة.

* * *

لم تكن هذه المحاضرات دروساً علميّة محضة، أو مباحث فكريّة مجرّدة في شرح دعاء (أبي حمزة الثمالي) للإمام زين العابدين C ، بل هي معايشة تربوية وعلمية في رحاب هذا الدعاء العظيم، كنا نسعى أن نضعها بمستوى عموم السامعين، ونضمّنها جمعاً من الشواهد القرآنية، والقصص التربوية، وبلغة خطابيّة، قد نخرج خلالها من أصل الموضوع إلى موضوعات جانبيّة مهمة في الواقع الحياتي الذي يعيشه المستمعون.

* * *

وها نحن نقدّم للقراء خمس وعشرين محاضرة في رحاب هذا الدعاء العظيم في هذا المجلد الثالث وقد سبق أن تضمن المجلد الأوّل والثاني ستين محاضرة كنا قد قدّمناها في ليالي شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٤ ــ ١٤٢٦ للهجرة النبوية الشريفة.

* * *

وقــد يلاحــظ القــارئ أننــا ختمنــا بعــض هــذه المحاضــرات بــذكر مصيبة أهل البيت G ، وهو أمر يترك آثاره التربوية على قلب السامع.

* * *

وبـودّي فـي هـذا التقـديم أن أُشـيد بجهـود الإخـوة الكـرام فـي (مكتـب إمـام جمعـة النجـف الأشـرف) علـى إعـداد هـذه المحاضـرات وإخـراج مصـادرها وتنظيمهـا بـالنحو الجميـل ووضـعها ميسـورة بيـد القـرّاء الكـرام، أسـأل الله تعـالى لهـم ولجميـع العـاملين والسـامعين والقـارئين العفـو والقبـول، إنه وليّ التوفيق.

٩/ جمادى الآخرة/ ١٤٢٩هـ

النجف الأشرف

السيد صدر الدين القبانچي

المحاضرة الحادية والستون:

الجنّة والحور العين

وقوانين عالم الآخرة

«وَأَجِرْنِي مِنَ النَّارِ بِعَفْوِكَ، وَأَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَزَوِّجْنِي مِنَ الْحُورِ الْعِين بِفَضْلِكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن الجنّة ونعيمها وخلودها، وعن أجمل وأبرز مفردة في الجنّة، وهي مفردة الحور العين.

الجنّة والنار والمعاد يوم القيامة بشكل عام هو معتقد إسلامي من معتقدات الأديان الإلهية كلها، أي الحياة بعد الموت، وما تكتنفه تلك الحياة من انقسام الناس إلى فريقين: **[فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ]**[1].

القرآن الكريم مليء بتشويق الناس نحو الكمال والعمل الصالح، ليس فقط بمنهج الأمر والنهي، وإنما بمنهج التشويق والاغراء بالجنّة ونعيمها وقصورها وحورها وأنهارها.

حديثنا هذه الليلة عن الجنّة والحور العين، وسيكون لنا حديث واسع في هذا الشأن، وكل هذا الحديث نضعه تحت قوله:

«وَأجِرْني مِنَ النَّارِ بعَفْوكَ، وَأدْخِلْني الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَزَوِّجْني مِنَ الْحُورِ الْعِين بفَضْلِكَ».

«اللَّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ فِي الصَّالِحِينَ فَأدْخِلْنَا، وَفِي عِلِّيِّينَ فَارْفَعْنَا، وَبكَأس مِنْ مَعِينٍ مِنْ عَيْنٍ سَلْسَبِيل فَاسْقِنَا، وَمِنَ الْحُورِ الْعِين برَحْمَتِكَ فَزَوِّجْنَا»[2].

ولا تكاد تجد دعاءً، وكما هو في معظم الآيات القرآنية التي

---

(١) الشورى: ٧.

(٢) من دعاء الافتتاح في كل ليلة من شهر رمضان. (إقبال الأعمال ١: ٢٢٤).

تتحدّث عن الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار إلاّ ويرد فيه الحديث عن: [حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ](١)، و [وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ](٢).

لدينا في بداية الحديث مجموعة عناوين:

المفهوم الفلسفي للجنّة.

الأصالة والاعتبار.

نوع العالم الأُخروي.

ولدينا أيضاً حديث عن الزواج وأهمية العلاقات الزوجية في الإسلام، فكما أن الإسلام أكّد هذا المفهوم في عالم الآخرة: «ومن الحور العين فزوجنا»، فقد أكَّده أيضاً في عالم الدنيا.

المفهوم الفلسفي للجنّة:

الجنّة والنار هما عبارة عن تفعيل لوعد ووعيد إلهي، أي تجسيد لقرار إلهي يُسمى لأهل الجنّة بالوعد؛ لأن الوعد فيما هو خير، ويُسمّى لأهل النار بالوعيد؛ لأن الوعيد عبارة عن التهديد بالشر، لكن هذا الوعد والوعيد له فلسفة، فلماذا وعد الله الملايين من الإنس والجن بدخول الجنّة، وأوعد غيرهم بدخول النار؟

الوعد والوعيد الإلهي ليس عملاً اعتباطياً وعبثياً وبدون خلفية فلسفية.

الوعد والوعيد الإلهي هما تعبير عن سيرورة(٣) تكوينية، فنحن

(١) الرحمن: ٧٢.

(٢) الواقعة: ٢٢ و٢٣.

(٣) السيرورة: من المسير، نحو سار سيرورة، وقال قيلولة..

الآن كيف نفسّر ظاهرة الإنسان في رحم أُمّه، ثمّ الإنسان في الدنيا طفلاً، ثمّ شاباً، ثمّ شيخاً هَرماً، ثمّ يموت، كيف نفهم هذا؟ نفهمه باعتباره سيرورة تكوينية، أي كحركة الليل والنهار، أي حركة تكوينية.

هنا يأتي الإسلام والقرآن والفلسفة الدينية فتقول: إن لديكم سيرورة تكوينية مرحلتها الأولى هي الدنيا، وهي بمثابة رحم الأُمّ وأنتم فيها بمثابة الجنين، وهناك مرحلة ثانية اسمها عالم البرزخ، وقد تكلّمنا عنه فيما مضى، ثمّ مرحلة ثالثة هي عالم القيامة.

الله يتحدّث عن سيرورة تكوينية بُنيَ على أساسها الوجود، الله تعالى حينما وعدنا بالجنّة وأوعد بالنار ليست المسألة أنه اشتهى ذلك، وإنما هناك سيرورة تكوينية تكامليّة للإنسان.

لماذا هذه السيرورة التكوينية؟

الجواب: أن السيرورة التكوينية هي النظام الأكمل في الوجود.

مثلاً نقول: الليل والنهار سيرورة تكوينية، فهذا السير التكويني هو النظام الأكمل، يعني لولا الليل والنهار، ولولا الشمس ودوران الكرة الأرضية حول الشمس لانعدمت الحياة، هكذا أيضاً النظام الأكمل لعالم الخلق الإلهي، هو أن يكون هناك دنيا، وأن يكون هناك آخرة، لماذا؟

لأن الآخرة التي قلنا عنها أنها وعد ووعيد هي تفعيل لقرار إلهي، وتعبير عن سيرورة تكوينية هي تجسيدٌ لقانونين وضعهما الله تعالى على نفسه.

القانون الأوّل: هو قانون العدالة: [وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً][1].

---

(١) الكهف: ٤٩.

والقانون الثاني: هو قانون الرحمة: [إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً][(١)].

هناك قانونان هما من صفات الجمال، فالله جميل، وكل ما عنده من قرارات ووعود هي جميلة، الله بمقتضى جماله يحب أن تُبسط عدالته على الإنسان، ثمّ فوقها الرحمة، قانون العدالة هو: [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ][(٢)]، [وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى][(٣)]، [وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً][(٤)]، [كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ][(٥)]، هذه الدنيا تنتج، وبمقتضى قانون العدالة نتائج في عالم الآخرة، فالجيد نتيجته جيدة، والسيء نتيجته سيئة، لكن الله تعالى لا يكتفي بقانون العدالة، فهو تشعشع الجمال، ولديه رحمة ولطف، ومقتضى ذلك اللطف الإلهي أعطانا شيئاً آخر هو الجنّة والسعادة الأبدية، وهي أعظم من استحقاقنا، بل هي لطف من الله تعالى.

وهذا في الحقيقة ليس وفق قانون العدالة، وإنما وفق قانون آخر اسمه قانون الرحمة: [إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً][(٦)].

إذن المفهوم الفلسفي للجنّة والنار إنهما عبارة عن تفعيل لقرار إلهي اسمه الوعد والوعيد، والذي يُعبّر عن سيرورة تكوينية هي تجسيد لقانونَي العدالة والرحمة.

---

(١) الإسراء: ٦٦.
(٢) المدثر: ٣٨.
(٣) الإسراء: ٧٢.
(٤) الكهف: ٤٩.
(٥) الطور: ٢١.
(٦) الإسراء: ٦٦.

ولذا فإن بعض الفلاسفة يستدلون على عالم الآخرة بدليل نسمّيه الدليل الأخلاقي، فيقولون: الله تعالى هو مظهر العدالة والإحسان والكرم، وفي الدنيا ليس هناك عدالة، الدنيا مبنيّة على التغالب والتكالب وما شاكل ذلك، إذن الفلاسفة يقولون: إذا كان الله تعالى عادلاً ورحيماً فلابدَّ أن تتجسد عدالته ورحمته، إذن لا بدَّ من عالم الآخرة.

حتميّة الجنّة والنار:

الفهم الديني يقول: إن الجنّة والنار وعدان حتميّان لا يمكن التراجع عنهما، ولهذا فإن هناك سؤال يخصّ الشيعة الذين يعتقدون بمبدأ البداء، وهو أن الله تعالى يمكن أن يغيّر قراره في أيّ شأن من الشؤون، وفي ضوء هذا المبدأ يَرد السؤال التالي: هل يمكن أن يغيّر الله قراره في مصير العباد إلى الجنّة أو النار، فلا يفي بوعده للمتقين، ولا بوعيده للعاصين؟! وهو **[لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ]**[1]، إذن الجنّة والنار غير حتمية، ويمكن أن يغيّر الله قراره!!.

هنا يأتي الفكر الديني ويقول: لا، الجنّة والنار حتميتان، ولا يمكن تغيير القرار الإلهي فيهما؛ لأن الله تعالى اتخذ قراراً لا يقبل التغيير، فهو سبحانه مرّة يتّخذ قراراً قابلاً للتغيير كقوله: **[ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ]**[2]، ومرّة يتّخذ قراراً لا يقبل التغيير كقرار: **[كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ]**[3]، أي إن الله قرّر في السيرورة الكونية أن هذه الدنيا دار الفناء، وأن يموت كل من

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) الرحمن: ٢٦.

عليها وإن طال عمره، وأيضاً في السيرورة التكوينية التي هي تعبير عن قرار إلهي توجد قيامة ومعاد، وجنّة ونار، وهما حتميان، لا يمكن أن يأتي فيهما البداء، أي تغيير الرؤية والقرار الإلهي، وهذا ما نقرؤه في دعاء كميل: «لَكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ أَقْسَمْتَ أَنْ تَمْلأَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أجْمَعِينَ»، هذا القَسَم هو تعبير عن قرار حتمي لا يتغير؛ لأن الدعاء يقول: «لَولا مَا حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذِيبِ جَاحِدِيكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ إخْلادِ مُعَانِدِيكَ، لَجَعَلْتَ النَّارَ كُلَّهَا بَرْداً وَسَلاماً، وَمَا كَانَ لأحَدٍ فِيهَا مَقَرّاً وَلا مُقَاماً، لَكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ أَقْسَمْتَ أَنْ تَمْلأَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أجْمَعِينَ»، ولولا هذا القَسَم، وهو تعبير عن القرار الحتمي الذي يشرح سيرورة تكوينية حتمية، لكانت النار تتحول إلى (برداً وسلاماً) على أهل النار.

الأصالة والاعتبار:

لدينا عالم الدنيا، وعالم الآخرة، أيّهما أصيل، وأيّهما ثانوي؟ هذا هو ما يُطرح اليوم بعنوان الأصالة.

اليوم الماديّة الحديثة تقول: أصالة الدنيا بمعنى أن الدنيا هي الأصل الذي يجب أن يهتم به الإنسان، والآخرة هي قضية ثانوية.

الفهم الديني ماذا يقول؟

قد تُسرع وتقول: إن الفهم الديني يقول بـ (أصالة الآخرة)، لكننا قد نعطي تعبيراً أدق، وهو (أصالة الحياة الحقيقية)، وهذه الدنيا هي حقيقة أيضاً، لكنها تُمَثّل مرحلة جنينيّة على هامش أو حافة الحياة الحقيقية، الحياة الحقيقية الأبدية المطلقة هي تلك الحياة التي ليس فيها فناء أو موت.

نستطيع أن نقول: إن الإسلام يؤمن بأصالة الحياة، لكن هذه الدنيا هي مقدمة لتلك الحياة، يوم القيامة هي الحياة الحقيقية.

[وَمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ](١).

قال رسول الله] : «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»(٢).

وقال] : «الدنيا مزرعة الآخرة»(٣).

وهذا لا يعني أن الدنيا لا حقيقة لها، فالدنيا لا يتنكّر لها الإسلام، «الدنيا مزرعة الآخرة»، أي هي مثل محطة الوقود نَمُرّ بها ونتزود منها، لكن ليست هي هدفنا.

القرآن الكريم يقول: [وَإِنَّ الدَّارَ الآْخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ](٤)، أي هي الحياة.

نوع العالم الأخروي (التجانس واللاّتجانس):

نجد تجانساً بين عالم الآخرة وبين عالم الدنيا، كيف ذلك؟ جنّات، أنهار، أنهار من لبن، حورٌ مقصورات في الخيام، غُرف من فوقها غرف، فاكهة ورمان، وهذه كلها متجانسة مع ما عندنا في الدنيا، كذلك الجلود، فهناك يَد ورجل، [وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ](٥)، إذن هناك تجانس بين ما عندنا من جلد ومكونات مادية، وبين ما يوجد في عالم الآخرة، هكذا [فِيهِمَا عَيْنَانِ

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) بحار الأنوار ٥٠: ١٣٤.
(٣) عوالي اللئالي ١: ٢٦٧/ ٦٦.
(٤) العنكبوت: ٦٤.
(٥) فصلت: ٢١.

تَجْرِيَانِ][1]، [فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ][2]، [فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ][3]، [فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ][4]، إذن هذه مفردات التجانس، وهذه القضايا متجانسة مع ما نحن عليه في عالم الدنيا، معنى هذا أن القرآن يريد أن يقول لنا إن جميع مشتهياتكم موجودة هناك.

رغبات الإنسان ثلاث:

الإنسان في الدنيا له ثلاث رغبات، فهناك رغبات معيشية، ورغبات اعتبارية، ورغبات جنسية.

الرغبات المعيشية: هي الرغبة في الهواء والطعام والماء واليقظة والحركة، وما شاكل ذلك من الأمور التي لا بدَّ منها لحياة الإنسان ومعيشته.

الرغبة الاعتبارية: هي أن الإنسان لما كان جزءاً من المجتمع، فهو يريد شرفاً وعزّةً وكرامةً وخدمةً وتكريماً، حتّى لو كان ذلك بعناء وبتعب.

وهناك رغبة ثالثة هي الرغبة الجنسية، وهي رغبة إقامة العلاقات الثنائية، ورغبة التكاثر، سواءً كان على مستوى الرغبة الجنسية أو على مستوى التكاثر بالأولاد، والأُنس بالأحبة، وما شاكل ذلك.

القرآن يقول إن جميع هذه الرغبات سأعطيها لكم في عالم الآخرة.

---

(١) الرحمن: ٥٠.
(٢) الرحمن: ٦٦.
(٣) الرحمن: ٥٢.
(٤) الرحمن: ٦٨.

ومن الرغبات الاعتبارية: [يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ][١]، [عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ][٢].

ومن الرغبات المعيشية: [وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ][٣].

والرغبات الجنسية أيضاً: [حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ][٤]، [خَيْراتٌ حِسانٌ][٥]، وهكذا، كل هذا نسميه عنصر التجانس بين الآخرة وعالم الدنيا.

لكن هناك عنصر اللاتجانس أيضاً، لاحظوا في القرآن الكريم إشارة رائعة جدّاً، حيث يقول: [قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً][٦]، وهذا هو إشارة إلى عنصر التجانس واللاتجانس معاً. فهي من ناحية تشبه ما في عالم الدنيا، وهذا هو التجانس، ولذا يقول أهل الجنّة: [هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ]، وهو من ناحية ثانية حقيقة أخرى غير حقيقة ما كان في الدنيا، ولذا فهو يشبه ما في الدنيا، وليس هو نفسه، [وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً].

امتيازات عالم الآخرة:

هناك ثلاثة امتيازات لعالم الآخرة:

أوّلاً: الأبدية:

وهذا لا يشبه عالم الدنيا المعروف بأنه مؤقت وليس فيه لذة أبدية، وهذه

---

(١) الواقعة: ١٧.

(٢) يس: ٥٦.

(٣) فُصّلت: ٣١.

(٤) الرحمن: ٧٢.

(٥) الرحمن: ٧٠.

(٦) البقرة: ٢٥.

هي سُنّة الوجود المادي، فالوجود المادي يجب أن يكون مؤقتاً، لكن عالم الآخرة هو عالم الأبدية، وهو مفهوم لا ينسجم مع واقعياتنا في الدنيا.

ثانياً: الاطلاق:

هنا في الأرض لا يوجد مطلق، بل كل ما فيها هو محدود بحدود، مقدار من الطعام، ومقدار من الشراب، أو السكن، أو المشي، أو السرور، أو أيّ شيء آخر، لا يوجد شيء مطلق، بينما الآخرة عبارة عن المطلق، فهناك الارتواء المطلق بلا نهاية، وهكذا الشبع، والجنس، والنوم، والهدوء، والسكينة، والحركية، وكل شيء مُطلق، وكلها مجتمعة في وقت واحد، وهذا الأمر غير ممكن في عالم الدنيا، هذا هو معنى **[وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ]**(١).

ثالثاً: عالم السعة:

فالآخرة عَرضُها السماوات والأرض، بينما عالم الدنيا محدود في مكان خاص وضيّق.

هل الآخرة ماديّة أم غير ماديّة؟

هناك سؤال، وهو: هل الجنّة مادية، أم غير مادية؟

الجواب: إن الجنّة هي من عالم السماء، وهو عالم تجتمع فيه المادة واللاّمادة معاً، فهو عالم الوجود المطلق، والمادة هي صورة من صور الوجود المطلق. فيها زوجات، وأنهار، وشراب، وكل شيء فيها مادي، ولكنها غير محصورة بهذه المادة، بل هي أوسع من الوجود المادي، وهذا حديث واسع نؤجله.

---

(١) فُصّلت: ٣١.

أقرأ لكم حديثاً عن رسول الله 9 ، حيث قال:

«من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة.

ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة.

ومن قال: لا إله إلاّ الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة.

ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنّة».

فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إن شجرنا في الجنّة لكثير!.

قال: «نعم، وإيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أن الله U يقول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ][١]»[٢].

الرواية الثانية:

قال رسول الله 9 : «لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنّة نشر اليوم في الدنيا لَصَعق من ينظر إليه، وما حملته أبصارهم»[٣].

وورد أيضاً في خطبة لأمير المؤمنين C : «كل شيء في الدنيا سُماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه»[٤]، أي كلّما وصفت الجنّة فالوصف قليل، وحينما تراها تجدها أكبر وأعظم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) محمّد: ٣٣.

(٢) ثواب الأعمال: ١١.

(٣) أمالي الطوسي: ٥٣٣. من حديث طويل أُخذ منه موضع الحاجة.

(٤) نهج البلاغة ١: ٢٢٥/ ١١٤.

المحاضرة الثانية والستون:

أسئلة عن الجنّة والنار

والعلاقات الزوجيّة

«وَاخْـتِمْ عَمَلِـي بِأحْسَـنِهِ، وَاجْعَـلْ ثَـوَابِي مِنْـهُ الْجَنَّـةَ بِرَحْمَتِـكَ، وَأعِنّـي عَلَى صَـالِح مَـا أعْطَيْتَنـي، وَثَبِّتْنـي يَـا رَبّ، وَلا تَرُدَّنّـي فِـي سُـوءٍ اسْـتَنْقَذْتَني مِنْـهُ، يَـا رَبَّ الْعَالَمِين».

بسم الله الرحمن الرحيم

مجموعة أسئلة:

١ _ أين الجنّة؟

السؤال الأوّل: أين الجنّة؟ أهي في عالم الأرض في قارّات غير مُكتَشَفة، أم في الكواكب السماويّة، أم في عالَم آخر؟

هل هي في هذه المجرّة، أم في مجرّات كونيّة أخرى؟

ماذا يقول الدين في هذه المسألة؟

الدين يقول: إن الجنّة في عالم السماء، وهو غير عالم الفضاء، وهذه مفاهيم تحتاج إلى شيء من الفرز والإيضاح.

عالم الفضاء هو العالم الواقع بين الكرة الأرضية وبين الشمس وبين الكواكب والنجوم والمجرّات، لكن هو جزء من العالم المادّي، أي أنه قابل للحساب بالقياسات المادية، ولهذا الآن يمكن حساب المسافات الفضائية علمياً، مثلاً بين الأرض والشمس، أو بين الأرض والنجوم الأخرى، أو بين مجرتنا وبين المجرّات الكونيّة الأخرى، لكن النص الديني يعطينا مفهوماً يقول: إنّ الجنّة ليست في هذا الفضاء.

الجنّة هي عالم آخر اسمه عالم السماء، وفي الفهم القرآني عالم السماء يختلف عن عالم الأرض، لا تتصوروا أن عالم الأرض هو الكرة الأرضية، بل الأرض هي مقابل السماء، فالقمر له أرض، وبيتك له أرض وله سماء، الأرض هي عبارة عن كل ما هو تحت اليد، ومما يمكن أن

تصـل لـه يـدك، أمـا السـماء فهـي كـل شـيء لا تصـله ولا تطالـه، ولهـذا الأرض قـد تُعطـي معنـىً هـو عـالم المشـهود، والسـماء هـي عـالم اللاّمشـهود، أي أن قوانينـه هـي غيـر قـوانين المـادة وقـوانين عـالم الشـهادة، بـل قـوانين أخـرى تحكـم عـالم السـماء، حينئـذٍ لا يخضـع للزمـان والمكـان، أي لا نستطيع أن نقول: أين؟

ولهـذا فـإن رسـول الله 9 لمـا عُـرج بـه إلـى السـماء لـم يكـن المقصود أنه عُرج به إلى المريخ أو إلى مجرّة كونية أخرى لتأتي حينئذٍ مجموعـة أسـئلة مـثلاً: بـأيّ سـرعة كانـت حركتـه؟ وكيـف لـم يحـدث احتكـاك بـين المـادة والفضـاء ويـؤدي إلـى الاحتـراق، هـذه الأسـئلة إنمـا تـأتي ضـمن فهمنـا السـطحي حينمـا نتعامـل مـع المسـألة علـى أسـاس قـوانين عـالم الشـهادة وعـالم المـادة، فـي حـين أن رسـول الله 9 لمّـا عُـرج بـه إلـى السـماء كـان ذلـك عالمـاً آخـراً غيـر عـالم المـادة، ولا نسـتطيع أن نقـدّره بـالكيلومتر أو الحسـاب الحـراري أو الزمـان والمكـان، هـو عـالم اللاّمشـهود أو الغيـب، الجنّـة موجـودة فـي عـالم الغيـب، عـالم اللاّمـادة، ولهـذا لا تسـتطيع أن تقول: أين هي؟ ويمكن أن تكون موجودة حولك، لكنك لا تراها.

فـي روايـة عـن الإمـام الصـادق C قـال: قـال رسـول الله] : «مـا بـين بيتـي ومنبـري روضـة مـن ريـاض الجنّـة، ومنبـري علـى ترعـة مـن تـرع الجنّـة، وقـوائم منبـري ربـت[1] فـي الجنّـة». فقيـل للإمـام الصـادق C : هـي روضة اليوم؟ قال: «نعم إنه لو كُشِف الغطاء لرأيتم»[2].

---

(١) ربت بمعنى: نَمَت وارتفعت.

(٢) الكافي ٤: ٥٥٤ / باب المنبر والروضة ومقام النبي] / ح ٣.

معنى هذا أن الجنّة موجودة حولك في الكرة الأرضية، وأيضاً لا تستطيع أن تقول إنها موجودة في الكرة الأرضية أو في نجم آخر، القضية غير قابلة للحساب بالحسابات الجغرافية، بل لها نمط آخر من الحساب، لنقل عالم العقل، أو الروح، أي: هي موجودة، لكن لا تُلمس باليد، ولا تُرى بالعين.

الجنّة ليست موجودة في عالم الفضاء بل في عالم آخر هو عالم ما وراء العالم المشهود، حيث قوانين أخرى، وفيزياء أخرى، حينئذٍ سوف لا نواجه مشكلة أنه إذا كانت الجنّة سعتها وعرضها السماوات والأرض كما تقول الآية الكريمة: [وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأُرْضُ][1]، إذن أين مكان النار؟

رسول الله 9 في رواية تُروى عنه أنه سمع مثل هذه الجدليّة، فأجاب 9 : «سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار»[2].

هذه القضية في الحقيقة إشارة إلى أنهما وجهان لعملة واحدة، أي أن الجنّة والنار كذلك.

القرآن الكريم يقول أيضاً إن هناك حجاب بين الجنّة والنار: [فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ]، وهذا السور يفصل بين الجنّة والنار [لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ][3]، في الحقيقة ليس هناك تضاد بين الجنّة والنار من حيث السعة المكانية، هذا المفهوم ليس من السهل إدراكه على عقولنا التي لا تدرك إلاّ القضايا المادية.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.
(٢) بحار الأنوار ٨ : ٨٤ .
(٣) الحديد: ١٣.

٢ ـ متى تكون الجنّة والنار؟

السؤال الثاني: متى تكون الجنّة والنار؟ هل هما مخلوقتان بالفعل وموجودتان، أم لا؟

علماؤنا يقولون: يظهر من النصوص الدينية أن الجنّة موجودة بالفعل، وليس أنها ستخلق، طبعاً مما يقربنا لهذا المفهوم هو فعل الإنسان، فكلما زاد فِعْلُه اتّسعت جنّته، وكما قرأت لكم في المحاضرة السابقة حديثاً عن رسول الله] قال: «من قال: لا إله إلاّ الله، غُرسَت له شجرة في الجنّة»[١]. مما يعني أن الجنّة والنار مخلوقتان بالفعل. وعلماؤنا يستدلون على ذلك بدليلين:

الأوّل: معراج الرسول 9 . ولدينا هنا نص متواتر أن النبي 9 عُرج به إلى السماء، وهناك رأى الجنّة والنار.

الثاني: النصوص القرآنية، هناك نصوص قرآنية ظاهرة في وجود الجنّة والنار بالفعل لا بالمستقبل. مثلاً [أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ][٢]، الفعل (أُعِدَّ) فعل ماض مبني للمجهول، ولم يَقل: (ستُعد) للمستقبل، وهكذا آيات أخرى مثل: [وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ][٣]، أي: قربت منهم، وقد يمكن أن تُفهم هذه الآيات على أنها لبيان المستقبل، لكن هي على لسان الحاضر، القرآن الكريم يقول: [وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ][٤]، والمقصود هنا ليس أنهم الآن في الجنّات، بل هم

---

(١) الكافي ٢: ٥١٧/ باب من قال: لا إله إلاّ الله/ ح ٢.

(٢) آل عمران: ١٣٣.

(٣) ق: ٣١.

(٤) الواقعة: ١٠ - ١٢.

الآن في عالم البرزخ، لكن سيكونون في جنّات النعيم، وهكذا: [إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ][(١)]، ويعني أنهم ليسوا الآن يتسائلون، بل أنهم سيتسائلون، وهنا أحياناً الحاضر يراد به المستقبل، وهذا على كل حال تأويل ومجاز، إلاّ أن ظاهر القرآن الكريم يقول إن هناك جنّة ونار مخلوقتان بالفعل.

٣ ـ كيف نفسّر الخلود؟

السؤال الثالث: كيف نفسّر الخلود في النار للكافرين؟ وكيف ينسجم ذلك مع عدالة الله ورحمته؟

الخلود في الجنّة قابل للفهم؛ لأنه رحمة من الله تبارك وتعالى، لكن الخلود في النار لماذا؟

أين الخلود في النار من مبدأ العدالة الإلهية؟

هذا الأمر يجيب عنه الأئمّة G بجواب: أن أهل المعاصي كانت نيّاتهم أنهم لو بقوا لفعلوا نفس المعاصي[(٢)]. مما يعني أن هذه الروايات ربما تريد أن تقول: إن هؤلاء تحولت هويتهم إلى هوية جهنمية، وهناك الناس يكونون على قسمين: هناك هوية جهنمية، وهناك هوية رضوانية. أليس لدينا في الروايات أن الناس مخلوقون من طينتين: أحدهما طيبة،

---

(١) المدثر: ٣٩ - ٤١.

(٢) في الرواية عن الإمام الصادق C قال: «إنما خُلّد أهل النار في النار؛ لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة؛ لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خُلّد هؤلاء وهؤلاء، ثمّ تلا قوله تعالى: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ] (الإسراء: ٨٤)، قال: على نيته». (الكافي ٢: ٨٥/ باب النية/ ح ٥).

وأخرى سبخة مالحة(١). مما يعني أن مَن كانت هويته جهنميّة نارية لا يستطيع أن يعيش إلاّ في جهنم، [كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها](٢)، ولهذا فإن هؤلاء يستحقون الخلود بمقتضى طبيعتهم الجهنّمية. أما المؤمنون فإن هويّتهم هي هوية أهل الجنّة، وإذا كان لديهم بعض الذنوب فإنهم سينالون شيئاً من العذاب، ثمّ يخرجون من النار إلى الجنّة، كما في الروايات(٣).

٤ _ كيف يأنس أهل الجنّة بالجنّة؟

السؤال الرابع: كيف يأنس أهل الجنّة بالجنّة؟ وحيث لا ملل، ولا عطش، ولا تعب، بينما الإنسان في الدنيا إنما يأنس بالنوم إذا تعب من اليقظة، أو يأنس باليقظة إذا تعب من النوم، ويأنس بالطعام إذا شعر بالجوع، وإذا لم يكن هناك تضاد في الجنّة، فكيف يأنس الإنسان فيها؟

---

(١) في الرواية: أن رجلاً سأل أبا جعفر الباقر C عن قول الله ﷻ: [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ...] الآية، (الأعراف: ١٧٢)؟ فقال C: «حدّثني أبي أن الله ﷻ قبض قبضة من تراب التربة التي خلق منها آدم C ، فصب عليها الماء العذب الفرات، ثمّ تركها أربعين صباحاً، ثمّ صبّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً، فلما اختمرت الطينة أخذها فعركها عركاً شديداً، فخرجوا كالذر من يمينه وشماله، وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النار، فدخل أصحاب اليمين، فصارت عليهم برداً وسلاماً، وأبى أصحاب الشمال أن يدخلوها». (الكافي ٢: ٧/ باب طينة المؤمن والكافر/ ح ٢).

(٢) الحج: ٢٢.

(٣) في الحديث عن رسول الله] قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم إماتة، حتّى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنّة، ثمّ قيل: يا أهل الجنّة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». (أنظر: كنز العمال ١٤: ٥٣٢/ ٣٩٥٢٩)

هنا جوابان:

الجواب الأوّل: _ كما تقول بعض الروايات _ أن الله تبارك وتعالى خلق لكل إنسان موضعين: أحدهما في الجنّة، والآخر في النار، فإذا كان من أهل الجنّة يقال له: أُنظر كان لك موقع آخر في جهنم، ولو كنت تعصي لذهبت إلى ذلك الموقع، فلما ينظر لذلك الموقع يقول: الحمد لله الذي نجاني منك. والذين في جهنم خلق الله لهم موقعاً في الجنّة يشرفون عليه أحياناً، فيقال لهم: لو كنتم من العاملين المحسنين لكان هذا موقعكم، فيتقطعون حسرة، ويقولون: يا ليتنا كنّا من المحسنين.

إذن بقيت حالة الشعور بالتضاد، فبعض يفرح حينما يرى النار، وبعض يتأذى حينما يرى الجنّة(١).

الجواب الثاني: إن طبيعة البشر تتغير هناك، وليست كما هي هنا، فهنا الإنسان إذا لم يحسّ بالتعب فلا يحس بالراحة، بينما هناك راحة

---

(١) روي عن النبي [ ] قال: «إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والصلة والمعروف والاحسان إلى الناس عند رجليه...»، إلى أن قال [ ]: «ثمّ يفتح له باب من قِبَل النار، فيقال له: أنظر إلى منزلك وإلى ما أعدّ الله لك لو عصيت، فيزداد غبطة وسروراً، ثمّ يُفتح له باب من قِبَل الجنّة، فيقال له: أنظر إلى منزلك وإلى ما أعدَّ الله لك، فيزداد غبطةً وسروراً، وذلك قول الله تبارك وتعالى: [يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ] (إبراهيم: ٢٧) ... وإن كان كافراً أُتيَ من قِبَل رأسه فلا يوجد شيء، ويؤتى عن يمينه فلا يوجد شيء، ثمّ يؤتى عن يساره فلا يوجد شيء، ثمّ يؤتى من قِبَل رجليه فلا يوجد شيء، فيقال له: اقعد، فيقعد خائفاً مرعوباً... ثمّ يُفتح له باب من قِبَل الجنّة، فيقال له: أنظر إلى منزلك وإلى ما أعدّ الله لك لو كنت أطعته، فيزداد حسرة وثبوراً...» الحديث. (أنظر: مستدرك الحاكم ١: ٣٨٠).

مطلقة بلا تعب، ودائماً حالة ارتواء مطلق، الطبيعة البشرية تتغير هناك، مثلاً القرآن الكريم يقول: [كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها][1]، في عالم الدنيا يمكن أن يتحمل البدن حريق النار لدقيقة مثلاً، أما هناك في عالم الآخرة فالقرآن يقول: [لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى][2]، ولذلك تتبدل جلودهم بجلود أخرى، الطبيعة والمقاسات والموازين هناك تختلف.

الحور العين والعلاقات الزوجية في الدنيا والآخرة:

الحور العين في الدار الآخرة هي حقيقة أكيدة، وهي من المفردات المهمّة في الجنّة، مما يعني أن العلاقات الجنسية ليست فقط من اختصاصات الدنيا، وإنما هي أيضاً موجودة في عالم الآخرة.

الحور العين معناها اللغوي هو (حور)، أي: شديدة سواد العين وبياضها، و(عِين) هي جمع (عيناء)، أي: كبيرة العين، والحور العين هي رمز إلى العين الجميلة، وهذه في الحقيقة إشارة رمزية إلى الجمال.

هناك سؤال: إن هذا الإغراء بالحور العين يوم القيامة [فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ][3]، [حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ][4]، هل هذا على سبيل المماشاة في الدنيا مع رغباتنا، أم هو حقيقة في الجنّة؟

الجواب هو أن الحور العين موجودة، والله تعالى لا يريد اغرائنا

---

(١) النساء: ٥٦.

(٢) الدخان: ٥٦.

(٣) الرحمن: ٧٠.

(٤) الرحمن: ٧٢.

بشيء غير واقعي، فالله تعالى يقول: [جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ](١)، [فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ](٢)، فهل هذه اغراءات ومماشاة مع رغباتنا وعواطفنا، بينما الحقيقة أنه ليس هناك نخل وفاكهة ورمان؟ القرآن الكريم حينما ثبّت هذه المفاهيم إذن هي موجودة، ويمكن أن يكون بكيفية ما، لكن أصل الموضوع موجود، [وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ](٣).

نظام الزوجيّة:

هذا الأمر يفتحنا للحديث موجزاً عن العلاقات الزوجية في الإسلام على مستوى الدنيا، الإسلام أكّد كثيراً على العلاقات الزوجية، لماذا؟

هل ذلك لاشباع الشهوة الجنسية؟، لا.

هل للتكاثر والتناسل؟، لا.

الجواب: إن الإسلام أكّد العلاقات الزوجية في الدنيا اعتقاداً بأن تكامل شخصية الإنسان _ تكامل الفرد والمجتمع _ من خلال العلاقات الزوجية، الإسلام لديه مفهوم أن الإنسان يتكامل عبر التواصل الاجتماعي، وليس عبر الفردانية، ولهذا فالإسلام لا يدعو فقط إلى العلاقات الزوجية، وإنما يدعو إلى تواصل اجتماعي (تزاوروا، تحادثوا)، وقمة العلاقات الاجتماعية هي العلاقات الأُسرية، والعلاقات الزوجية، ولهذا القرآن يقول: [هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ](٤)، يعني الشخصية

(١) البقرة: ٢٥.
(٢) الرحمن: ٦٨.
(٣) الدخان: ٥٤.
(٤) البقرة: ١٨٧.

الفردانيــة كالشخصــية العاريــة عــن الكمــال، هــذا فهــم يــرتبط بعلــم الــنفس وبعلـم الاجتمـاع، ولهـذا تجـدون الروايـات تقـول: «مـن تـزوج أحـرز نصـف دينـه»[1]، أي حقـق خمسـين بالمائـة مـن الكمـال لهـذه الشخصـية، حتّـى ولـو كنـت تتـزوج قربـة إلـى الله، فـالله تعـالى يُثيبـك، لأنَّ كمـال قـوام المجتمـع وكمال الشخصية الفردية هو من خلال الزواج.

وهنا مجموعة من الروايات والنصوص منها:

قال رسول الله] : «من أحبّ أن يتّبع سُنّتي، فإن من سُنّتي التزويج»[2].

وقـال الأمـام الصـادق C : «ركعتـان يصـليهما المتـزوج أفضـل مـن سبعين ركعة يصليهما أعزب»[3].

اليـوم طبعاً كمـا تعلمـون تنتشـر ظـاهرة العنوسـة فـي العـراق، وقـرأت لكــم تقريــراً ســابقاً يقــول: إن ظــاهرة العنوســة فــي العــراق بلغــت خمســة وثمــانين بالمائــة فــي نســاء العــراق، وفــي الخلــيج بلغــت خمســة وثلاثــين بالمائــة، والــرقم فــي العــراق علــى أرض الواقــع صــحيح؛ بســبب الحــروب، وهــذه ظــاهرة خطيــرة تحتــاج إلــى معالجــة، والإســلام مقــدام فــي معالجــة ظاهرة العنوسة التي تعتبر أزمة مرضيّة في المجتمع.

موانع الزواج:

اليوم نحن نواجه مجموعة موانع عن الزواج منها:

١ _ الفقر المالي، ويسمّونه قلة ذات اليد.

---

(١) الكافي ٥: ٣٢٩/ باب كراهة العزبة/ ح ٢.

(٢) الكافي ٥: ٣٢٩/ باب كراهة العزبة/ ح ٥.

(٣) الكافي ٥: ٣٢٨/ باب كراهة العزبة/ ح ١.

وهنا يأتي الإسلام إلى هذا المانع ويقول: أيها الشاب، حتّى ولو لم يكن لديك مال فحاول واجهد في أن تتزوج، والله يقول أنا أعطيك: [إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ][(١)].

٢ ـ عدم الاستقرار النفسي. لكن الزواج يحقق الاستقرار، يعني يستقر الإنسان عندما يرتبط برابطة الزواج، سواء كان ذكراً أو أُنثى. [هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيها][(٢)].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالإنسان المؤمن ولي الله، تأتيه الملائكة يستأذنون كما تقول الرواية عن رسول الله]: «إذا أُدخل المؤمن إلى منازله في الجنّة، ووُضِع على رأسه تاج الملك والكرامة أُلبس حلل الذهب والفضة والياقوت والدر المنظوم في الإكليل تحت التاج، وأُلبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة وضروب مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر، ... فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً، فإذا استقر لولي الله ﷻ منازله في الجنان استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله ﷻ إيّاه، فيقول له خدام المؤمن من الوصفاء والوصائف: مكانك، فإن ولي الله قد اتكأ على أريكته وزوجته الحوراء تهيأ له، فاصبر لولي الله، قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة وحولها وصائفها وعليها سبعون حلّة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وهي من مسك وعنبر، وعلى رأسها تاج الكرامة، وعليها نعلان من ذهب مكللتان بالياقوت واللؤلؤ،

---

(١) النور: ٣٢.

(٢) الأعراف: ١٨٩.

شـراكها يـاقوت أحمـر، فـإذا دنـت مـن ولـي الله فَهَـمّ أن يقـوم إليهـا شـوقاً، فتقـول لـه: يـا ولـي الله، لـيس هـذا يـوم تعـب ولا نصـب، فـلا تقـم، أنـا لـك وأنـت لـي، قـال: فيعتنقـان مقـدار خمسـمائة عـام مـن أعـوام الـدنيا، لا يملهـا ولا تمله، قـال: فـإذا فتـر بعـض الفتـور مـن غيـر ملالـة نظـر إلـى عنقهـا، فـإذا عليهـا قلائـد مـن قصـب مـن يـاقوت أحمـر وسـطها لـوح صـفحته درّة مكتـوب فيهـا: أنـت يـا ولـي الله حبيبـي، وأنـا الحـوراء حبيبتـك، إليـك تناهـت نفسـي، وإلـيَّ تناهـت نفسـك، ثـمّ يبعـث الله إليـه ألـف ملـك يهنئونـه بالجنّـة ويزوجونـه بالحوراء...»[1] الحديث.

وهذا طبعاً وكما قلت لكم مشترك للرجال والنساء.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أنظر: الكافي ٨ : ٩٨/ ح ٦٩.

المحاضرة الثالثة والستون:

فلسفة العذاب

ووجود جهنّم

«إِلَهِي إِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ أَوْلَى مِنْكَ بِالْعَفْو، وَإِنْ عَذَّبْتَ فَمَنْ أَعْدَلُ مِنْكَ فِي الْحُكْم».

بسم الله الرحمن الرحيم

في ليالٍ سابقة تحدّثنا عن الجنّة، وعن الحور العين. هذه الليلة الحديث عن النار، أعاذنا الله وإيّاكم من النار؛ لأن الدعاء دائماً مترابط: «أجرني من النار بعفوك، وأدخلني الجنّة برحمتك».

لاحظوا الأدعية دائماً تأتي بطلب النجاة من النار والفوز بالجنّة، حينئذٍ لدينا اليوم مجموعة بحوث:

البحث الأوّل: فلسفة وجود النار:

تحدّثنا سابقاً عن المفهوم الفلسفي للجنّة.

النص القرآني فيه حقيقة واضحة، وهي التقابل بين الجنّة والنار، النار من جهة، والجنّة من جهة أخرى، القرآن الكريم وبشكلٍ واضح وصريح يقول: [إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً][1].

وفي موضع آخر يقول: [ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ][2].

وفي موضع آخر يقول: [نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ][3].

---

(١) النبأ: ٢١ - ٢٣.

(٢) الحاقة: ٣١ - ٣٣.

(٣) الهُمَزة: ٦ - ٨.

وفي موضع آخر يقول: [وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ][١].

إذن النص القرآني واضح في الإشارة إلى حقيقة كونية أخرى تنكشف على الإنسان بعد الموت، أمّا في الدنيا فإن هذه الحقيقة غير منكشفة، إذن نحن لا نناقش في أصل هذه الحقيقة الكونية، فهي من بديهيات الدين، وهي جزء من معتقداتنا، ومن لم يعتقد بالجنّة والنار فهو ليس بمسلم، بل ليس مؤمناً بالله؛ لأن كل الأديان الإلهية تتفق على مسألة المعاد، إذن هذه مسألة خارج نطاق البحث.

السؤال هو: لماذا خلق الله النار؟

لو كانت هذه الكتل النارية الهائلة تسير في السماء كما الشمس تسير، ولعلّ الشمس حرارتها مليون درجة قياساً إلى الحرارة التي عندنا في الأرض، والتي هي مائة درجة حرارية، فالشمس تزيد على مليون درجة حرارية، وهي لا تمثّل إلاّ وهجة من وهجات جهنم وشعلة من شعلاتها.

إذن تلك الكتلة النارية الضخمة أعدّها الله للكافرين، لماذا؟

خلق الله النار لكي يعذب بها الإنس والجن، وليس كوكباً من كُتل نارية غازية تسير في السماء، ما هي فلسفة ذلك؟

خمس تفاسير لخلق النار:

التفسير الأوّل: هو أن الله تعالى خَلَقَ النار لينتقم بها من العصاة.

الجواب: لا؛ لأن الانتقام عبارة عن شفاء للصدر، والله تبارك وتعالى أجلّ من أن تصير عنده حالة من ارتفاع الحرارة النفسية والتألم

---

(١) القارعة: ١٠ و١١.

لكي يطفيها بالانتقام من العبد، الانتقام بالنسبة إلى الله مستحيل، إذن التفسير الأوّل بأن النار خُلقت انتقاماً هو تفسير خاطئ.

التفسير الثاني: أن الله تعالى خلق النار تأديباً وتربيةً للإنسان.

هذا التفسير هو خطأ أيضاً، فلو كانت هناك حياة أخرى بعد النار لصح التأديب، ففي الدنيا يمكن التأديب، كما نقرأ في الدعاء: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك»[1]، لكن ما هو الهدف من التأديب بالنار؟ وبخاصة لأولئك الخالدين فيها؟

التفسير الثالث: أن عقوبة النار هي عبارة عن أداء وعيد الله تبارك وتعالى الذي أوعد به الكافرين؟ وقد طرحنا سؤالاً: لماذا أوعد الله الكافرين؟ وقد ذكرنا أن ذلك ليس مجرد قول قاله الله في ساعة غضب، بل قلنا إن الوعد والوعيد لهما تحليل وخلفية فلسفية تكوينية.

التفسير الرابع: أن الله خلق النار باعتبار أنها مقتضى العدالة، وفي الدنيا المؤمن مظلوم، بينما الكافر يتمتع بلذات ولهو ولعب وطرب، إذن مقتضى العدالة أن الله تعالى يوم القيامة يعذّب الكافرين ويعطف على المؤمنين.

ولكن هذا التفسير قابل للمناقشة، إذ قد يقول قائل: فلتكن العقوبة بالمساواة، فالكافر تمتع في الدنيا خمسين سنة، فليتعذب بقدرها ويخرج من النار! وهكذا المؤمن فليتمتع بقدر ما تعذب في الدنيا، إذن ما هي الفلسفة بأن تكون هناك ناراً أبدية بهذا الشكل المخيف الذي يُبكي ويتباكى منه الأنبياء والصالحون بكاءً عجيباً، نار أبدية مخلوقة للإنسان كي يُعذّب بها!!

---

(١) مصباح المتهجد: ٥٨٢.

التفسير الخامس: وهو التفسير الصحيح الذي يشير له القرآن الكريم والعلماء والفلاسفة، وكما أشرنا له نحن في بحث سابق، وهو أن النار كما هي الجنّة عبارة عن سيرورة تكوينية في خلق الإنسان، وهي تجسيد لأفعال الإنسان التي نشهد صورتها في الدنيا، وفي الآخرة نشهد حقيقتها، النار عبارة عن حقيقة الذنوب والآثام، فمثلاً الكذب والسرقة تتجسد في الآخرة بشكل نار لظى، ولهذا دائماً القرآن يقول: [جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ][1]، أي أن هذا الكسب في الدنيا للذنوب تتجسد نتيجته يوم القيامة على شكل نار، إذن النار هي عبارة عن سيرورة تكوينية حتمية لا تتخلف، ولهذا نقرأ في دعاء كميل: «وبالقضية التي حتمتها وحكمتها»، أي أنها قضية محتومة وليست مجرد قول، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن النار هي منعطف تكويني حتمي في مسار الإنسان.

البحث الثاني: مشكلة الورود على جهنم:

وبهذا سوف نتخلص من مشكلة كبيرة وقع بها العلماء والمفسّرون، هي أن القرآن يقول: [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها][2]، حينئذٍ وقف المُفسّرون في الخلاص من هذه الأَزمة التفسيرية، وأنه كيف يكون جميع الناس يَرد جهنم؟ فهل أن الأنبياء والصالحين والأطفال الذين لا ذنب لهم أيضاً يردوها؟ ولماذا؟

القرآن الكريم قال: [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً

---

(١) التوبة: ٨٢.

(٢) مريم: ٧١.

مَقْضِيًّا][1]، هنا جاء المفسّرون في محاولة للتخلص من هذا الأمر، فبعضهم قال: (واردها) بمعنى واقف على مشارفها، فحتّى أهل الجنّة يقفون على مشارف النار ويشاهدونها، هذا هو التفسير الأوّل.

والتفسير الثاني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ][2]، وهذا الكلام طبعاً لا يقبله المفسّرون؛ على اعتبار أنه لا مجال للنسخ التكويني، فالنسخ فقط في التشريع، وهذا بحث آخر.

والتفسير الثالث، وهو الذي يتفق عليه تقريباً اتجاه النص الديني بأن الجميع يرد جهنم، كما هو ظاهر الآية: [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها]، باعتبارها منعطف كما قلنا، منعطف تكويني حتمي في سيرورة حياة الإنسان، ولكن بعضهم يَردَها وروداً سريعاً بلا توقف، وبعضهم يَردَها ويتوقف عندها طويلاً، وبعض طويلاً طويلاً، وهكذا[3].

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) الأنبياء: ١٠١.

(٣) قال الطبرسي: واختلف العلماء في معنى الورود على قولين: أحدهما: إن ورودها هو الوصول إليها، والإشراف عليها، لا الدخول فيها، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: [وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ]، وقوله تعالى: [فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ]، وبأنك تقول: وردت بلد كذا، وماء كذا، أي: أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله... قال الزجاج: والحجة القاطعة في ذلك قوله سبحانه: [إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها]، فهذا يدل على أن أهل الحسنى لا يدخلونها. قالوا: فمعناه أنهم واردون حول جهنم للمحاسبة، ويدل عليه قوله: [ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا]. ثمّ يدخل النار من هو أهلها.

وقال بعضهم: معناه إنهم واردون عرصة القيامة التي تجمع كل بر وفاجر.

والآخر: إن ورودها بمعنى دخولها بدلالة قوله تعالى: [فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ]، وقوله: [أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ]، وهو قول أكثر المفسرين، ويدل عليه قوله: [ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا]، ولم يقل: وندخل الظالمين، وإنما يقال: نذر ونترك للشيء الذي قد حصل في مكانه. \

ولهذا تقول الرواية: إن المؤمنين يوم القيامة حينما يدخلون الجنّة يتساءلون: ألسنا قد وعدنا ربنا بأن نَرد النار؟

فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة[(١)].

الروايات في هذا الشأن تتحدّث أيضاً أن بعض الناس يمرّ عليها كالبرق، وبعضهم ماشياً، وبعضهم عدواً سريعاً، وتلك هي مراتب الناس في عبور جهنم، وبهذا الفهم نكون قد تغلّبنا على المشكلة، إذا فهمنا أن جهنم هي منعطف يُمثّل سيرورة تكوينية حتميّة، وسينتهي سؤال: لماذا خلق الله النار؟ وهل هذا ضرورة أو ينسجم مع العدالة؟

قال رسول الله 9 : «يرد الناس النار، ثمّ يصدرون بأعمالهم، فأوّلهم كلمع البرق، ثمّ كَمرّ الريح، ثمّ كحضر الفرس، ثمّ كالراكب، ثمّ كشدّ الرَجُل، ثمّ كمشيه»[(٢)].

وكذلك يقول رسول الله 9 : «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جُز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[(٣)].

[ثمّ اختلف هؤلاء، فقال بعضهم: إنه للمشركين خاصة، ويكون قوله: [وَإِنْ مِنْكُمْ] المراد به منهم، كما قال سبحانه: [وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً]، أي: لهم. وقال الأكثرون: إنه خطاب لجميع المكلفين، فلا يبقَى برّ ولا فاجر إلاّ ويدخلها، فيكون برداً وسلاماً على المؤمنين، وعذاباً لازماً للكافرين...

وقيل: إن الفائدة في ذلك ما روي في بعض الأخبار أن الله تعالى لا يدخل أحداً الجنّة حتّى يطلعه على النار، وما فيها من العذاب؛ ليعلم تمام فضل الله عليه، وكمال لطفه وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنّة ونعيمها، ولا يدخل أحد النار حتّى يطلعه على الجنّة، وما فيها من أنواع النعيم والثواب؛ ليكون ذلك زيادة عقوبة له، حسرة على ما فاته من الجنّة ونعيمها. (انتهى مختصراً) أنظر: تفسير مجمع البيان ٦: ٤٤٣.

(١) بحار الأنوار ٨ : ٢٥٠.

(٢) بحار الأنوار ٨ : ٢٤٩.

(٣) المصدر السابق.

البحث الثالث: مستويات جهنم:

يقول العرفاء: إن هناك ثلاثة مستويات لجهنم ـ هذا هو ما يذكره الإمام الخميني 1 في كتابه (الأربعون حديثاً) ـ، فهناك (جهنم العقائد)، وهناك (جهنم الأخلاق)، و(جهنم الأعمال).

هناك جهنم للناس المنحرفين عقائدياً، كالكافر الذي لا يؤمن بالله.

وهناك جهنم الأخلاق والمَلَكات لأولئك الساقطين أخلاقياً من سوء وخبث سريرته، أو حسده الذي يؤدي به إلى جهنم الأخلاق.

وهناك جهنم ثالثة هي جهنم الأعمال السيئة، [وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ][١]، وهذا العذاب الأليم هو جهنم الأعمال السيئة.

وبالمقابل سيكون لدينا (جنّة العقائد)، و(جنّة الأخلاق)، و(جنّة الأعمال).

البحث الرابع: صورة عن جهنم:

نحاول فيما يلي أن نتعرف على صورة جهنم كما جاء في القرآن والروايات، [إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً][٢]، لننظر إلى بعض الروايات التي تقدّم لنا صورة فوتوغرافية عن جهنم وأحوالها؛ لكي نرى هذه الصورة من أيّ عالَم هي؟

الرواية عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله C : يا ابن رسول الله، خوّفني، فإن قلبي قد قسا! فقال: «يا أبا محمّد، استعد للحياة الطويلة،

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) النبأ: ٢١ - ٢٣.

فـإن جبرائيـل جـاء إلـى رسـول الله] وهـو قاطـب، وقـد كـان قبـل ذلـك يجـيء وهـو مبتسـم، فقـال رسـول الله] : يـا جبرئيـل، جئتنـي اليـوم قاطبـاً؟ فقـال: يـا محمّـد، قـد وُضِعَت منـافخ النـار، فقـال: ومـا منـافخ النـار يـا جبرئيـل؟ فقـال: يـا محمّـد، إن الله ﷻ أمـر بالنـار فـنُفخ عليهـا ألـف عـام حتّـى ابيضـت، ونُفِـخ عليهـا ألـف عـام حتّـى احمـرّت، ثـمّ نفـخ عليهـا ألـف عـام حتّـى اسـوّدت، فهـي سـوداء مظلمـة، لـو أن قطـرة مـن الضـريع قطـرت فـي شـراب أهـل الـدنيا لمـات أهلهـا مـن نتنهـا، ولـو أن حلقـة مـن السلسـلة التـي طولهـا سـبعون ذراعـاً وُضـعت علـى الـدنيا لـذابت الـدنيا مـن حرهـا، ولـو أن سـربالاً مـن سـرابيل أهـل النـار عُلّـق بـين السـماء والأرض لمـات أهـل الأرض مـن ريحـه ووهجـه. فبكـى رسـول الله] ، وبكـى جبرئيـل، فبعـث الله إليهمـا مَلَكـاً فقـال لهمـا: إن ربكمـا يقرؤكمـا السـلام ويقـول: قـد أمنتكمـا أن تـذنبا ذنباً أعذبكما عليه».

ثـمّ قـال أبـو عبـد الله C : «فمـا رأى رسـول الله] جبرئيل مبتسـماً بعد ذلـك». ثـمّ قـال: «إن أهـل النـار يعظمـون النـار، وإن أهـل الجنّـة يعظمـون الجنّـة والنعيم، وإن أهـل جهنم إذا دخلوهـا هـووا فيهـا مسيرة سبعين عامـاً، فـإذا بلغـوا أعلاها قُمِعوا بمقامع الحديد، وأعيدوا في دركها، هذه حالهم، وهو قول الله ﷻ: [كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ][١]، ثـمّ تُبَدّل جلودهم جلوداً غير الجلود التي كانت عليهم»، فقال أبو عبد الله C : «حَسْبُك يا أبا محمّد؟»، قلت: حسبي حسبي[٢].

(١) الحج: ٢٢.

(٢) تفسير القمي ٢: ٨١.

هذه صورة إجمالية عن نار جهنم.

لكن هذه الصورة إذا تأملنا فيها نجد أنها لا تشبه عالم الدنيا، فهذه الحرارة لا تُقاس بملايين الدرجات الحرارية في الدنيا؛ لأن قطرة واحدة من جهنم تحرق الدنيا وما فيها.

أدوات الإطفاء:

بالمقابل أُنظروا إلى أدوات الإطفاء، هي بشكل آخر، نار بهذا المقدار من الحرارة هل يكفيها ماء العالم كله لإطفاءها؟ لا.

الروايات تقول: إن دمعة المؤمن من خشية الله تطفئها[1]. هذا يعني أننا نشهد حقيقة أخرى غير التي نشهدها في الدنيا، مكوّنات هذا العالم هي شيء آخر، والأمور التي نتغلّب بها هي شيء آخر أيضاً، العلماء يقولون: هذه النار وهذه الجنّة هي من عالم الملكوت وليس من عالم المُلك، عالم الملك هو العالم المشهود لدينا الذي يمكن أن نحسبه ونقيسه بأدواتنا المختبرية وساعات الزمان ومسافات المكان وحدود السرعة وما شاكل ذلك، إن كل شيء في الدنيا قابل للكشف بالأدوات المادية نسميه عالم الملك، لكن هناك عالم آخر نحن نعرف اسمه وصفاته فقط اسمه عالم الملكوت، ومنه الملائكة، والجنّة والنار، والسماء الأولى والثانية، والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، والحور العين التي يقول عنها العرفاء: (إن الإنسان في الدنيا ليس لديه القدرة

(١) في الرواية عن أمير المؤمنين C قال: «احذر دمعة المؤمن، فإنها تقصف - أي: تكسر - من أدمعها، وتُطفئ بحور النيران عن صاحبها» أنظر: مستدرك الوسائل ١٧: ٣٤٧/ ٢١٥٤٢/ ١.

على أن يرى شعرة من شعر الحور العين)؛ لأننا الآن من جنس ومن عالم لا نستطيع أن نرى حتّى ومضة من ومضات ذلك العالم، ذاك العالم يسمى عالم الملكوت، أي عالم ما وراء الحس والشهادة، أو كما سَميناه بالأمس عالم السماء وهو غير عالم الفضاء.

هذه الموجودات: جهنم، والجنّة، والحور العين، وما شاكل، كلها في عالم الملكوت، وهذا العالم قوانينه من نوع آخر، ولهذا ذكرت لكم بالأمس بأن الجنّة العظيمة التي هي عبارة عن بساتين تحتاج إلى قول (سبحان الله) لتغرس شجرة في الجنّة، وليس كما في الدنيا، فإن الفلاّح يحتاج في بستانه إلى أدوات للحراثة والشتل وما شاكل ذلك، أي أن أدوات الزراعة هناك شيء آخر؛ لأن ذلك العالم هو من جنس آخر، كذلك أدوات الإتلاف، فهي أيضاً شيء آخر، حيث يقول الحديث النبوي الشريف: «من قال: (سبحان الله)، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: (الحمد لله)، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: (لا إله إلاّ الله) غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: (الله أكبر) غرس الله له بها شجرة في الجنّة». فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إن شجرنا في الجنّة لكثير، قال: «نعم، ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أن الله ﷻ يقول: **[**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ**]**[1]»[2].

هي نار الغيبة والكذب والمعاصي، إذن عالم الملكوت له قوانين أخرى وهيكلية تكوينية أخرى غير ما هي في عالم الدنيا.

القرآن الكريم يحدّثنا عن الذين يكنزون الذهب والفضة، وهنا تقول الرواية عن النبي **9** : «كل مالٍ لم تُؤدِ زكاته فهو كَنز»، أي أن المقياس ليس

---

(١) محمّد: ٣٣.

(٢) ثواب الأعمال: ١١.

هو الكمية، أن يكون المال كثيراً أو قليلاً، بل المقياس هو إخراج الزكاة منه للفقراء والمستضعفين، فإن لم تؤدّ زكاته فإنه يتحول يوم القيامة إلى جحيم، [وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ][1]، «كل مالٍ لم تؤد زكاته فهو كنز، وإن كان ظاهراً، وكل مالٍ أدّيتَ زكاته فليس بكَنز، وإن كان مدفوناً في الأرض»[2].

جهنّم هي إنتاج محلّي:

أقرأ لكم رواية للانسجام مع المفاهيم التي ذكرناها بأن نار جهنم هي عبارة عن إنتاج محلي، أي أن الإنسان بذنوبه يصنع جهنم، وبحسناته يصنع الجنّة: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ][3]، فمن يزرع الشوك لا يحصد العنب.

الرواية تقول عن الإمام الكاظم C : «كان في بني إسرائيل رجل مؤمن، وكان له جار كافر، وكان يرفق بالمؤمن ويوليه المعروف في الدنيا، فلما أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النار من طين يقيه حرَّها، ويأتيه الرزق من غيرها، وقيل له: هذا بما كنت تُدخل على جارك المؤمن فلان بن فلان من الرفق، وتوليه المعروف في الدنيا»[4].

أي أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع عمل العامل ولو كان كافراً: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ].

---

(١) التوبة: ٣٤.
(٢) بحار الأنوار ٨: ٢٤٢.
(٣) الزلزلة: ٧و٨.
(٤) ثواب الأعمال: ١٦٩.

ما هو ذنب الجلد الجديد؟

سؤال آخر:

إذا كان الجلد يتبدل بجلد جديد فإن هذا الجلد الجديد لم يعص الله تعالى، فما هو ذنب هذا الجلد الجديد حتّى يَحترق؟

وكيف نفسّر استمرارية العذاب مع تبدل أعضاء الإنسان؟

طبعاً هاهنا عدة أجوبة:

الجواب الأوّل: ـ وهو الجواب الطبيعي والمفهوم عندكم ـ هو أن العذاب في الحقيقة ليس هو عذاب اليد والرجل، وإنما شخصية الإنسان هي التي تتعذب، وما اليد والرجل إلاّ شبكة عصبية توصل الألم إلى روح الإنسان، ولهذا إذا كان العصب مقطوعاً فالإنسان لا يشعر بالألم، وعلى أساس ذلك فإن الجلد الجديد لا يُعذّب، وإنما روح الإنسان هي التي تُعذّب من خلال احتراق الجلد.

الجواب الثاني: أن الجلود لا تتغير، وإنما نفس الجلد تعاد صياغته، ولكن التعبير القرآني يقول: [بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها][1]، وهو يعني نفس الجلود جددّناها لهم، بحيث أنك لو رأيتها لرأيت جلوداً جديدة، ولا ظلم في ذلك.

الجواب الثالث: أن المقصود بالجلود هو السرابيل، [سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ][2]، أي الملابس، وهي التي تتغير وليس البدن.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) النساء: ٥٦.

(٢) إبراهيم: ٥٠.

المحاضرة الرابعة والستون:

حقائق عن نار جهنّم

«إِلَهِي وَسَيِّدِي، وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ، لَئِنْ طَالَبْتَنِي بِذُنُوبِي لأُطَالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ، وَلَئِنْ طَالَبْتَنِي بِلُؤْمِي لأُطَالِبَنَّكَ بِكَرَمِكَ، وَلَئِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ لأُخْبِرَنَّ أَهْلَ النَّارِ بِحُبِّي لَكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زال الحديث هذه الليلة عن النار ونظام عالم الآخرة، فهناك نظام خاص لعالم الآخرة، وهو عالم الملكوت، كما أن هناك نظام خاص لعالم الدنيا وهو عالم الملك.

اليوم ما زال الحديث عن نظام جهنم والنار ـ والعياذ بالله منها ـ وقد تحدّثنا بالأمس عن المفهوم الفلسفي للنار.

نُسجل هنا وفقاً للأداء القرآني ووفقاً للمفهوم الديني عدة أمور:

النار وجودٌ واع:

أوّلاً: أن النار تمثل وجوداً واعياً مدركاً حقيقياً، النار في الدنيا هي عبارة عن حطب وشعلة حرارية لا تعقل ولا تعرف شيئاً، لكن النار في القيامة عبارة عن وجود حقيقي فيه إدراك يلتهم من يستحق، ويخمد أمام من يستحق الخمود، ولهذا فإن القرآن الكريم ربما نفهم منه إشارات إلى حقيقة الوعي في نظام عالم الآخرة: (الصراط، الميزان، الجنّة، النار) فكل تلك الأمور فيها إدراك ووعي، لاحظوا مثلاً قوله تعالى: [يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ][1]، وهذا معناه أن هناك وعي، وأنها مثل الكائن الحي، ظاهر النص القرآني أن هناك خطاب وهناك جواب يعبّر عن إرادة ووعي ومعرفة، هذا الخطاب

(١) ق: ٣٠.

لجهنم هل هو خطاب تكويني أم هو خطاب حقيقي بلسان المشافهة؟ لا ندري، لكننا نعرف أن هناك خطاباً وجواباً.

وهكذا نستطيع أن نستشهد بنصوص أخرى على أن النار تمثل عقوبة واعية وليست عقوبة عمياء.

أذكر لكم رواية جميلة عن الإمام الصادق C تقول: «ثلاث أُعطين سمع الخلائق: الجنّة، والنار، والحور العين، فإذا صلّى العبد وقال: اللهم اعتقني من النار، وأدخلني الجنّة، وزوّجني من الحور العين، قالت النار: يا رب، إن عبدك قد سألك أن تعتقه مني فأعتقه.

وقالت الجنّة: يا رب، إن عبدك قد سألك إيّاي فأسكنه فيَّ.

وقالت الحور العين: يا رب، إن عبدك قد خطبنا إليك، فزوّجه منّا.

فإن هو انصرف من صلاته ولم يسأل الله شيئاً من هذه، قلن الحور العين: إن هذا العبد فينا لزاهد، وقالت الجنّة: إن هذا العبد فيَّ لزاهد، وقالت النار: إن هذا العبد فيَّ لجاهل»[1].

هذا الحديث ربما يدلل بشكل واضح على أن النار موجود واع، وهي عقوبة واعية وليست عمياء، ولتوضيح ذلك نقول أن هناك عقوبتان:

عقوبة طبيعية، وعقوبة إرادية:

أنت حينما تريد أن تعاقب مذنباً فهذا نسميه عقوبة إرادية، أي أنها قرار إرادي.

وهذه العقوبة الإرادية مشروطة بشرطين:

---

(١) الكافي ٣: ٣٤٤/ باب التعقيب بعد الصلاة والدعاء/ ح ٢٢.

الشـرط الأوّل: أن يكـون الطـرف المـذنب قـد ارتكـب الـذنب قـادراً حراً مختاراً.

الشـرط الثـاني: أن يكـون عالمـاً بـالتكليف وتقـيم الحجـة عليـه، فـإذا كلّفتـه وبلّغتـه القـول وأقمـت الحجـة عليـه وعصـى، فحينئـذٍ يُمكنـك أن تعاقبه.

ولهـذا فـإن القـرآن الكـريم يقـول: **[وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ]**[1]، فالموعظـة إنمـا هـي لأجـل إقامـة الحجـة علـيهم مـن ناحيـة، وبأمـل هـداهم وتقواهم من ناحية ثانية.

هذا في العقوبة الإرادية.

لكــن هنــاك عقوبــة أخــرى نُســمّيها: العقوبــة الطبيعيــة، كالــذي لا يسـيطر علـى سـيارته فتـرتطم بالجبـل، فـلا السـيارة واعيـة ولا الجبـل واع، هـذه عقوبـة الطبيعـة التـي تقـول للسـائق ـ مثلاً ـ: انتبـه لـئلاّ تـرتطم بالجبـل أو تقـع فـي الـوادي، هـذه العقوبـة الطبيعيـة لا يشـترط فيهـا الإرادة والاختيـار، ولا يشـترط فيهـا التكليـف وإقامـة الحجـة، لنفتـرض أن هـذا السـائق كـان نائمـاً، فالنـائم غيـر مكلـف، والجبـل لا يعـرف أن هـذا الشـخص نـائم، ومـع ذلك فإن عقوبته الطبيعية هي الارتطام أو السقوط في الوادي.

حينئـذٍ يـأتي هـذا السـؤال: إن الطبيعـة البشـرية المفطـور عليهـا الإنسـان لا تتغيـر، فـإذا كانـت الطبيعـة البشـرية لا تتغيـر، إذن فمـا فائـدة الموعظـة والإرشـاد، قـال رسـول الله]: «الشـقي مـن شـقي فـي بطـن أُمّـه، والسـعيد

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

من سعد في بطن أُمّه»[١]. ربما سوف تؤدي الموعظة في هذا الحال إلى تأزيم الموقف، كالذي يجبر الطفل الصغير على الصيام وهو جائع أو عطشان، فإنه سوف يضطر للمعصية ولو بالخفاء، وبذلك تكون النتيجة أسوأ، وإذا كانت الموعظة بدون جدوى؛ لأن الإنسان مجبول على أخلاقية خاصة، إذن فالعقوبة من الله ستكون ظلماً.

نقد الدكتور علي الوردي:

الشبهة المتقدمة يذكرها بعض علماء الاجتماع المتغربين.

هذا الكلام غير صحيح، سواء في علم الاجتماع، أو في الفهم الديني أيضاً، كما هو غير صحيح عالمياً، فإن العالم كلّه يقدم توجيهاً ونصائح للشباب والأطفال في تعلّم السياقة وفي خدمة الدولة والنظافة وحب الأبوين وحفظ الثروات الطبيعية وغير ذلك، وإذا لم تتوفر تربية دينية فهناك مناهج في التربية الوطنية في كل شعوب العالم لاحترام المارة وبيت المال والثروة الطبيعية وما شاكل ذلك، مما يعني أن هناك إجماعاً عالمياً على أن الإنسان يحتاج إلى تربية وإلى موعظة، ليس فقط في المسائل الدينية، وإنما في المسائل المدنية أيضاً، كالتجارة، والصناعة وما شاكل ذلك، فلماذا حينما تصل القضية إلى الموعظة الدينية يقال إن المسألة تخلق ازدواجية في الشخصيّة وأزمة داخلية!؟

هذا هو كلام بعض علماء الاجتماع، مثل الدكتور علي الوردي حينما تحدّث في كتابه (وعاظ السلاطين) عن فشل الموعظة الدينيّة وعدم جدواها. كما قام باحتقار الشعب العراقي واعتباره شعباً كذّاباً

---

(١) بحار الأنوار ٥: ٩.

ومنافقـاً، متغـافلاً عـن نقـاط القـوة الكبيـرة والإبـداع فـي هـذا الشـعب قياسـاً لشعوب أخرى.

الشعوب الأخرى ليس لديها وجهان، وهذا صحيح، بل لديها وجه واحد، وهو دين الملوك، أما الشعب العراقي فإن مشكلته هي الاصرار على التزام خط أهل البيت G ، ولا يريد أن يتخلى عنهم، وتكسّرت عليه الفؤوس من أجل ذلك، لكنه قد يكون مضطراً أحياناً، وقد يخطأ في الموقف، لكنه لا يتخلى عنهم، وهذا هو الأمر الذي أخطأ الدكتور الوردي وغيره في فهمه وتفسيره حينما اعتبروه ازدواجية ونفاقاً في الشخصيّة العراقية. لكن الحقيقة أن هذا ليس ازدواجية، وإنما تراجع نسبي أمام القهر والضغط السلطوي، وهكذا الإنسان حينما يصلّي، لكنه قد يرتكب معصية، فإن ذلك لا يُعتبر نفاقاً ولا ازدواجية، الإمام السجاد C يقول: «إن الله يحب المؤمن المذنب التواب»[1]، وفي الحديث: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم»[2]، هذا لا يسمى ازدواجية، بل هو رحمة وتسامح، [وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ][3].

ما هي فائدة الموعظة؟

ولنعد إلى السؤال: هل أن الطبيعة البشرية لا تتغير؟

وإذا كانت لا تتغير، فما هي فائدة الموعظة؟

الجواب: إن الإسلام والثقافات كلها لا تريد تغيير الطبيعة البشرية، وإنما

---

(١) الطبقات الكبرى ٥: ٢١٩.

(٢) كنز العمال ٤: ٢١٦/ ١٠٢٢٤.

(٣) التوبة: ١٠٢.

تريد تهذيب الطبيعة البشرية، الفلاّح حينما يزرع النخيل فإنها لا تحتاج إلى تغيير طبيعتها، ولكن تحتاج إلى تنسيق وتلقيح وما شاكل ذلك، هذه العملية هي تهذيب وليست تغييراً، وهو عمل معقول، بل ضروري وليس مصطدماً مع الطبيعة، الإنسان هكذا، فالإسلام لا يريد أن يغيّر الطبيعة البشرية؛ لأن الطبيعة البشرية مفطورة على التوحيد والخير، [وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ][1]، [لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][2]، لكن هذه الطبيعة تحتاج إلى تهذيب، كما البدن يحتاج إلى النظافة والزينة والترتيب، هذا التهذيب هو توازن مطلوب، كما في قوله تعالى: [وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا][3]، لو كان الإسلام يطلب من الطبيعة البشرية الامتناع عن الأكل، فإن هذا مستحيل، وهو تغيير للطبيعة البشرية، وهنا يصح المثل القائل: (إذا أردت أن لا تطاع فأمر بما لا يُستطاع)، لكن الإسلام لم يقل: لا تأكلوا، ولم يقل: لا تشربوا، ولكن قال: [وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا]، وهذا هو تهذيب الطبيعة.

الإسلام يقول في وصف المؤمنين: [إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً][4]، فالإسلام لم يقل: لا تشتر ولا تبيع، بل قال: [إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً]، هذا هو تهذيب الطبيعة، وهو دور الواعظ ودور الأنبياء G ؛ لأن الطبيعة البشرية إذا أُطلق عنانها غفلت ووقعت في الوادي، إذا لم يكن هناك واعظ ومرشد، كما إذا لم يكن هناك شرطي مرور، فإن المجتمع سوف يتفكك.

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) التين: ٤.

(٣) الأعراف: ٣١.

(٤) الفرقان: ٦٧.

على هذا الأساس فإن الموعظة ليست بدون جدوى، كما أنها لا تؤدي إلى ازدواجية بمقدار ما تؤدي إلى ترشيد الحركة.

شرط العقوبة الإلهيّة:

وفي ضوء ذلك فإن العقوبة من الله تعالى للإنسان العاصي _ كما قلنا _ تتوقف على شرطين:

الشرط الأوّل: حرية الإنسان واختياره وقدرته على أن يتهذّب.

الشرط الثاني: إقامة الحجة عليه.

هذان الشرطان ذكرتهما الآية القرآنية: [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ][1]. الاعتذار إلى الله هو عبارة عن إقامة الحجة عليهم وإيصال صوت الحق إليهم، وإمكانية تغيير واقعهم، وامتلاكهم القدرة على التهذيب، وهي عبارة عن: [وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ].

نظام عالم الآخرة:

لنعد إلى اكتشاف نظام عالم الآخرة، حيث قلنا إن المادة الأولى في هذا النظام أن النار تُمثّل عقوبة واعية وليست عمياء _ كما شرحت لكم في الفقرة الأولى _، وبهذا الخصوص أقرأ لكم رواية عن رسول الله 9 أنه قال: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يُسقون من الحميم والجحيم، يُنادَون بالويل والثبور ،يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى؟، فرجل معلَّق في تابوت من جَمر، ورجل يَجرُ أمعاءه، ورجلٌ يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه.

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

فقيل لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس، ولم يجد لها في نفسه أداءً ولا وفاءً.

ثمّ يقال للذي يَجر أمعائه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: كان لا يبالي أين أصاب البول من جسده.

ثمّ يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد كان يحاكي، فينظر إلى كل كلمة خبيثة فيسندها ويحاكي بها.

ثمّ يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة»[1].

نظام التحرك الذاتي:

في الدنيا لدينا نظام الدفع الذاتي، ويوم القيامة هناك نظام التحرك الذاتي، أي أن لسانك يتكلم وحده، إن شئت الكلام أو لم تشأ، وهكذا اليد والرجل تتكلم.

[الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**]**[2].

[وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**]**[3].

في الدنيا نظام الحركة لدى الإنسان هو نظام التحرك الإرادي، أما في الآخرة فهو نظام التحرك اللاّإرادي، هذا هو ما نسميه نظام التحرك الذاتي:

(١) أمالي الصدوق: ٦٧٧/ ٩١٩/ ٢١.
(٢) يس: ٦٥.
(٣) فصلت: ٢١.

[وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ][1]، وهناك حزام نقّال، فالإنسان يمشي على هذا الحزام، وهناك باب يؤدي إلى دركات الجحيم، وهناك باب آخر يؤدي إلى موقع آخر من النار، وهكذا فالإنسان ليس بإرادته أن يختار أي الأبواب يدخلها، هذا نسميه نظام التحرك الذاتي، فهذه سبعة أحزمة نقّالة يوم القيامة، كما يقول تعالى: [وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ][2].

نظام الحشر الجمعي:

هل أن الإنسان يُحشر يوم القيامة وحده، أم مع جماعة من الناس؟

يبدو أن نظام الآخرة هو نظام الحشر الجمعي، وليس نظام الحشر الفردي، ولهذا يقول تعالى في الجنّة: [مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرائِكِ][3]، وفي جهنم كذلك، فالإنسان لا يُحشر وحده، بل مع الذي أضله، كما يقول تعالى عن لسان أهل النار: [رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأَسْفَلِينَ][4]، وهكذا قوله تعالى: [قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ

---

(١) فصلت: ٢١ و٢٢.

(٢) الحجر: ٤٣ و٤٤.

(٣) الكهف: ٣١؛ الإنسان: ١٣.

(٤) فصلت: ٢٩.

تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ][1].

وهكذا نظام الحشر الجمعي في الجنّة، فهناك تعارف في الجنّة بين أهلها، [يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ][2].

ذبح الموت:

وهنا رواية عن الإمام الصادق C وقد سُئل عن قوله تعالى: [وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ][3]، قال: «يُنادي منادٍ من عند الله ــ وذلك بعدما صار أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار ــ: يا أهل الجنّة، ويا أهل النار، هل تعرفون الموت في صورة من الصور؟ فيقولون: لا، فيؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنّة والنار، ثمّ ينادون جميعاً: أشرفوا وانظروا إلى الموت، فيشرفون، ثمّ يأمر الله به فيذبح، ثمّ يقال: يا أهل الجنّة خلود فلا موت أبداً، ويا أهل النار خلود فلا موت أبداً، وهو قوله: [وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ][4]، أي: قضي على أهل الجنّة بالخلود فيها، وقضي على أهل النار بالخلود فيها»[5].

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) سبأ: ٣٢ و٣٣.

(٢) يونس: ٤٥.

(٣) مريم: ٣٩.

(٤) مريم: ٣٩.

(٥) بحار الأنوار ٨: ٣٤٦.

المحاضرة الخامسة والستون:

الأعراف موقع بين الجنّة والنار

«يَا اللَّهُ يَا كَرِيمُ لا تُحْرِقْ وَجْهِي بِالنَّارِ بَعْدَ سُجُودِي لَكَ وَتَعْفِيرِي بِغَيْرِ مَنٍّ مِنِّي عَلَيْكَ بَلْ لَكَ الْحَمْدُ وَالْمَنُّ وَالتَّفَضُّلُ عَلَيَّ...».

بسم الله الرحمن الرحيم

الأعراف موقع بين الجنّة والنار، لا هو من الجنّة ولا هو من النار.

هو حقيقة أُخروية ينصّ عليها القرآن، ويؤكّدها المفهوم الديني، وكما لدينا حقيقة النار وحقيقة الجنّة فلدينا أيضاً حقيقة أخرى هي حقيقة الأعراف، وهي عبارة عن محطة انتقال وتوزيع وإشراف على الجانبين وهما الجنّة والنار.

القرآن الكريم فيه آيات تتحدّث عن الأعراف، وفيه سورة اسمها سورة الأعراف وهي السورة السابعة.

ما هي الأعراف؟

القرآن يقول: [وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ][1]، حوار بين أهل الجنّة وبين أهل النار.

وهنا القرآن الكريم ينتقل إلى مقطع آخر، حيث يقول: [وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ][2]، ثمّ يستمر القرآن الكريم في آية أخرى فيقول:

---

(١) الأعراف: ٤٤ و٤٥.

(٢) الأعراف: ٤٦.

[وَنادى أَصْحابُ الأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ][1]، تتحدّث هاتان الآيتان عن الأعراف، وهي عبارة عن كثبان ومناطق مرتفعة كما جاء في الرواية[2]، وعن رجال موجودين على الأعراف لهم:

أوّلاً: موقع الإشراف.

ثانياً: لهم قدرة عالية في تمييز جميع أبناء البشر.

ثالثاً: هم بمثابة الحَكَم الذي يوزع الناس، هؤلاء إلى الجنّة وهؤلاء إلى النار، ويخاطبونهم، فهو موقع متميز وشريف وعظيم، ولهذا تأتي رواياتنا كما روايات أبناء العامة في تفسير الأعراف.

تفسير الأعراف:

تقريباً هناك توافق على أن الأعراف عبارة عن سور بين الجنّة

---

(١) الأعراف: ٤٨.

(٢) عن الإمام الصادق C قال: «الأعراف كثبان بين الجنّة والنار، فيوقف عليها كل نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه، كما يوقف قائد الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنّة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه أنظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا إلى الجنّة، فيسلم المذنبون عليهم. وذلك قوله تعالى: [وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ]. ثمّ أخبر تعالى أنهم: [لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ] (الأعراف: ٤٦)، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنّة، وهم يطمعون أن يدخلهم الله إيّاها بشفاعة النبي والإمام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار، فيقولون: [رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ] (الأعراف: ٤٧). ثمّ ينادي أصحاب الأعراف، وهم الأنبياء والخلفاء أهل النار مقرعين لهم: [ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ] يعني هؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحتقرونهم وتستطيلون بدنياكم عليهم. ثمّ يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر الله لهم بذلك [ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ] (الأعراف: ٤٩)». أنظر: تفسير التبيان ٤: ٤١١.

والنـار، أو هـي شُرُف السـور، أي أعاليـه ولـيس أدنـاه، وأمـا فـي تفسـير ثالـث فهـو أن الأعـراف هـي الصـراط، أو عبـارة عـن كثبـان بـين الجنّـة والنـار، المحصـلة النهائيـة أن الأعـراف هـي منطقـة وسـطية ومنطقـة تحويـل وتوزيـع، كـأن تكـون صـراطاً أو كثبانـاً أو سـوراً أو شُـرَف السـور، فـالفكرة واحـدة هـي منطقة توزيع البشر [فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ][1].

رواياتنـا تقـول: إن هـؤلاء الرجـال يميّـزون النـاس. [عَلَـى الأَعْـرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ][2]، هذه نقطة تميّز كبيرة ونقطة شرف عظيمة.

من هؤلاء الذين يعرفون البشر من آدم إلى نهاية البشر؟

رواياتنـا تقـول: إنهـم الأئمّـة، أي الأنبيـاء وأوصـياء الأنبيـاء G ، فهـم فـي الـدنيا كـانوا شـهوداً على البشـرية، ويـوم القيامـة أيضـاً [وَجِئْنـا بِـكَ عَلـى هؤُلاءِ شَهِيداً][3].

الإمـام الصـادق C يقـول: ‴جـاء ابـن الكـواء إلـى أميـر المـؤمنين C فقـال: يـا أمير المـؤمنين [وَعَلَى الأَعْـرافِ رِجـالٌ يَعْرِفُـونَ كُـلاًّ بِسِـيماهُمْ]؟ فقـال: نحـن علـى الأعـراف، نعـرف أنصـارنا بسـيماهم، ونحـن الأعـراف الـذي لا يعــرف الله ﷻ إلاّ بســبيل معرفتنــا، ونحــن الأعــراف يعرفنــا الله ﷻ يــوم القيامـة علـى الصـراط، فـلا يـدخل الجنّـة إلاّ مـن عرفنـا وعرفنـاه، ولا يـدخل النـار إلاّ مـن أنكرنـا وأنكرنـاه. إن الله تبـارك وتعـالى لـو شـاء لعـرف العبـاد نفسـه، ولكـن جعلنـا أبوابـه وصـراطه وسـبيله والوجـه الـذي يـؤتى منـه، فمـن عـدل عـن ولايتنـا أو فضّـل علينـا غيرنـا، فـإنهم عـن الصـراط لنـاكبون، فـلا

---

(١) الشورى: ٧.

(٢) الأعراف: ٤٦.

(٣) النساء: ٤١.

سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربها ، لا نفاد لها ولا انقطاع»[١].

روايات أبناء العامة أيضاً بحثت هذا الموضوع، فلديهم في رواياتهم أن أصحاب الأعراف هم العبّاس وحمزة وغيرهم[٢].

تبقى الفكرة واحدة أن هذا الموقع لرجال متميزين من الدرجة الأولى.

أين موقع الجنّة والنار؟

لكن تعالوا نسأل اليوم: أين موقع الجنّة والنار؟ وهذا في الحقيقة بقية حديث سبق أن ذكرناه.

هناك تفسير يذكره العلامة المجلسي يمكن أن نعتبره غريباً، وهو ما يميل له عدد من العلماء، وهو أن أهل النار في الأرض، وأهل الجنّة في السماء[٣].

هناك نظرية طرحناها عليكم، وهي أن الجنّة والنار هما في عالم السماء، وهو غير عالم الفضاء، كما هو غير عالم الأرض، رأي العلامة المجلسي أن جهنم في الأرض؛ لقوله تعالى: [وإِذا الْبحارُ سُجِّرَتْ][٤]، أي اشتعلت، وهذه البحار هي بحار الأرض، ثمّ يُفتح بين الأرض

---

(١) الكافي ١: ١٨٤/ باب معرفة الإمام والردّ إليه/ ح ٩.

(٢) في الرواية عن ابن عبّاس في قوله تعالى: [وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ ...] قال: تلٌّ على الصراط، عليه العبّاس، وحمزة، وعلي بن أبي طالب، وجعفر ذو الجناحين، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسواد الوجوه. (رواه ابن حجر في لسان الميزان ٣: ٢١٩؛ والثعلبي في تفسيره ٤: ٢٣٦؛ والقرطبي في تفسيره ٧: ٢١٢).

(٣) أنظر: بحار الأنوار ٨ : ٣٣٤.

(٤) التكوير: ٦.

والسماء باب: [وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً][١]، ثمّ يأتي الله تبارك وتعالى بالجنّة من عالم آخر من عالم السماء!! العلامة المجلسي لا يقول كيف يأتي الله بالجنّة؟ هل هي كوكب الزهرة مثلاً، أو كوكب عطارد، أو المريخ؟ وتصبح قريبة من الأرض التي أصبحت جهنم، وهذه الجنّة سقفها العرش، في ضوء هذه النظرية تكون الأرض جهنم وفوقها الجنّة وفوقها العرش، بين الأرض وبين الجنّة هناك درجات وسلالم ومراتب، وهذه هي الأعراف، ويوضع الصراط من الأرض إلى الجنّة، والأعراف درجات ومنازل بين الجنّة والنار.

نستطيع أن نقول: إن هذه الفكرة هي فكرة تقليدية، ومحاولة لتصوير القضية تصويراً مادياً، ولا يوجد ما يشهد أو يدل عليها، أما الرؤية الذي نقترب نحن إليها نظرياً فهي أن القرآن الكريم يقول: [يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ][٢]، عالم الدنيا وعالم الوجود كله يتبدل، فننتقل إلى عالم آخر هو عالم السماء، فلا يصح أن نفكر في أرض ومريخ وقمر وما شاكل ذلك، فهذا تفكير مادي وشكلي.

العلامة المجلسي يذكر سؤالاً وهو: إذا كانت النار في الكرة الأرضية والجنّة في كوكب آخر وأصبحت قريبة من الأرض، لكن مهما كانت قريبة فلا بدَّ أن المسافة هي آلاف الأميال.

السؤال: كيف أن أهل الجنّة وأهل جهنم يسمع أحدهم الآخر حينما يتخاطبون مع هذه المسافة الطويلة بينهم؟

---

(١) النبأ: ١٩.

(٢) إبراهيم: ٤٨.

القرآن الكريم يقول: [وَنَادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ][١]، ومرة أخرى يقول: [وَنَادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ][٢]، فهل من الممكن أن يخاطب أهل الأرض أهل كوكب سماوي آخر ويسمعونهم؟

كيف يسمعون الصوت مع هذه الفواصل الكبيرة؟

ولهذا جاء بعض العلماء وقالوا: أما هذه الفواصل التي تمنع سماع الصوت يلغيها الله تبارك وتعالى بقدرته، فتصبح الأمواج الصوتية تنتقل بلا فواصل، أو في تفسير ثان: إن صوت أهل النار يكون بدرجة من القوة وصوت أهل الجنّة يكون بدرجة من القوة بحيث يسمعه الطرف الآخر[٣].

في الحقيقة هذا كله تفكير سطحي ومادي، والشيء الصحيح هو أن الجنّة والنار من عالم آخر هو عالم الملكوت، وهذا الوجود الذي نعيشه يُبدّل كله، والنظام الكوني يتغير: [إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ][٤]، أي: لا تبقى أرض ولا مجموعة شمسية ولا كواكب، بل ترتطم ببعضها وتتفجر البراكين.

الجنّة والنار لا نتعامل معهما على أساس رؤية مادية، وإنما على أساس أنهما من عالم الملكوت، وحينئذٍ فإن الأعراف ليست عبارة عن سلّم حديدي أو كهربائي موجود بين الجنّة والنار وعليه رجال يُعرفون

---

(١) الأعراف: ٤٤.

(٢) الأعراف: ٥٠.

(٣) أنظر: بحار الأنوار ٨: ٣٣٤.

(٤) التكوير: ١ - ٦.

كُلاً بسيماهم، لا، فالأعراف هي مرتبة وموقع من عالم الملكوت وبقوانين عالم الملكوت، فيشرف على الجنّة ويشرف على النار.

الإمام عليّ C يقول: «نحن الأعراف من عرفنا دخل الجنّة ومن أنكرنا دخل النار»[١].

عالم الآخرة:

وهو عالم الانفصال الكامل عن عالم الدنيا، حيث لا رجعة بعده.

[فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ][٢].

[قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها][٣]، وقد تسألون: أن أصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، لكنهم بعدئذٍ عادوا، فهل هذه عودة من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا؟

الجواب: لا، هذا ليس عودة من عالم الآخرة، فعالم الدنيا لم يتلاش بعد، وهؤلاء لم يصعدوا إلى عالم الآخرة، بل إنهم كما يظهر من القرآن الكريم لم يموتوا، ولهذا أُنظروا إلى الأدب القرآني الجميل حينما يقول: [فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ][٤]، ولم يقل ماتوا، هذه العبارة توحي أنهم لم يموتوا، أي أن أرواحهم لم تخرج من أبدانهم، بل القرآن يقول: [وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ][٥]، أي

---

(١) بحار الأنوار ٨: ٣٣٨.

(٢) يس: ٥٠.

(٣) المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.

(٤) الكهف: ١١.

(٥) الكهف: ١٨.

هناك حركة دموية تعمل لديهم، إذن هؤلاء لم ينتقلوا لعالم الآخرة حتّى نقول كيف رجعوا إلى عالم الدنيا؟

نموذج آخر هو عيسى C ، كان يحيي الموتى، فهل هذا عودة للموتى من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا؟

الجواب أيضاً: لا؛ لأننا ذكرنا أن بعد عالم الموت هو عالم آخر اسمه عالم البرزخ، وهو قبل عالم الآخرة، فهؤلاء الأموات الذين كان يحييهم عيسى C لم ينتقلوا إلى عرصات المحشر، بل كانوا ما يزالون في عالم ما بين الدنيا وبين الآخرة هو عالم البرزخ، ولهذا فإن الأموات يأتون إلى بيوتهم وإلى قبورهم ويسمعون حديث الزائرين. إذن هناك تماس مباشر بين الدنيا وبين عالم الأرواح في البرزخ والدنيا لم تنتهِ بعد.

وهكذا نموذج عُزَير C ، حيث يقول القرآن الكريم: [أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ][1]. أليست هذه عودة من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا؟

الجواب أيضاً: لا، فهو لم ينتقل إلى عالم الآخرة، فنظام الدنيا كان قائماً وموجوداً، وما انتقلت البشرية إلى عالم الآخرة، وطالما كان عالم الدنيا والأرض موجوداً فالأموات موجودون حول هذه الكرة الأرضية وحول مواقع قبورهم، وعند قيام الساعة يكون الانتقال [وَبَرَزُوا لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ][2]، كما يقول تعالى: [ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ

(١) البقرة: ٢٥٩.
(٢) إبراهيم: ٤٨.

يَخِصِّمُونَ](١)، حينئذٍ في ذلك العالم وهو عالم الآخرة تكون عملية الانقطاع الكامل.

وهذا الكلام نفسه ينسحب على نظرية الرجعة، حيث نعتقد في ثقافتنا أنه يرجع إلى عالم الدنيا خيار الخلق وشرار الخلق، فهذه أيضاً ليست عودة من عالم الآخرة، بل هي محطات في عالم الدنيا، وما يزال كلٌ من خلق الله تعالى قبل قيام الساعة في عالم الدنيا وحتّى الأنبياء والأئمّة G ، أنت حينما تزور الأئمّة G تستأذن وتقول: (أأدخل يا رسول الله؟)، أي إنك تخاطب شخصاً لا زال موجوداً معك في عالم الدنيا ولم ينتقل إلى العالم المفصول بالكامل عن عالم الدنيا.

هذه آفاق عن الجنّة والنار وعن الأعراف.

رجال على الأعراف:

رواياتنا تكاد تُجمع على أن الأئمّة الأطهار G هم على الأعراف، وهم يسوقون شيعتهم إلى الجنّة(٢).

الآية القرآنية تقول: [وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ].

ومن الحق أن نسأل: هل المقصود بالرجال هو العنصر الذكوري فقط؟

---

(١) يس: ٤٩.

(٢) في الرواية: أن فاطمة J سألت أبيها رسول الله] عن قول الله تعالى: [وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ ...]؟ قال: «هم الأئمّة بعدي، علي، وسبطاي، وتسعة من صلب الحسين، فهم رجال الأعراف، لا يدخل الجنّة إلاّ من يعرفهم ويعرفونه، ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وينكرونه، لا يُعرف الله تعالى إلاّ على سبيل معرفتهم». أنظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٢٥٤؛ كفاية الأثر: ١٩٤.

الجـواب: لا، وهـذا مفهـوم شـرحناه أكثـر مـن مـرة، حينمـا يقـول القـرآن الكـريم: [فِـي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللَّـهُ أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَـا اسْـمُهُ يُسَبِّحُ لَـهُ فِيهـا بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَـالِ * رِجـالٌ لا تُلْهِـيهِمْ تِجـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَـنْ ذِكْـرِ اللَّـهِ][1]، فـإن المقصـود بالرجـال هنـا هـو عنصـر الإنسـان بمـا يشـمل الرجـال والنسـاء، مثـل فاطمـة الزهـراء J ، فهـي أيضـاً مـن أهـل [بُيُـوتٍ أَذِنَ اللَّـهُ أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَـا اسْـمُهُ]، ولهـذا فـإن رواياتنـا تقـول: علـى الأعـراف رسـول الله 9 وعلـي C وفاطمة J والحسن والحسين H [2].

وعلـى الأعـراف أيضـاً وفـي هـذه السـاحات الواسـعة مستضـعفوا الشـيعة، وهـم الـذين ارتكبـوا ذنوبـاً فاسـتوت سـيئاتهم وحسـناتهم، فـلا هـم قادرون على أن يدخلوا الجنّة، ولا هم من أهل النار.

الروايـات تقـول: اسـتوت حسـناتهم وسـيئاتهم، هـؤلاء كمـا يشـير لـذلك القـرآن الكـريم: [وَنـادَوْا أَصْـحابَ الْجَنَّـةِ أَنْ سَـلامٌ عَلَـيْكُمْ لَـمْ يَـدْخُلُوها وَهُـمْ يَطْمَعُـونَ][3]، حينئـذٍ الروايـات تقـول: إن رسـول الله 9 وعليـاً C والأئمّة الأطهار G يدخلونهم الجنّة بشفاعتهم[4].

---

(١) النور: ٣٦ و٣٧.

(٢) سُـئل الإمـام الصـادق C عـن قـول الله ﷻ: [بَيْنَهُمـا حِجـابٌ]؟ فقـال: «سـور بـين الجنّـة والنـار قـائم عليـه محمّـد وعلـي والحسـن والحسـين وفاطمـة وخديجـة G فينـادون: أيـن محبونـا؟ أيـن شـيعتنا؟ فيقبلـون إلـيهم ، فيعرفـونهم بأسـمائهم وأسـماء آبـائهم. وذلـك قولـه تعـالى: [يَعْرِفُـونَ كُـلاًّ بِسِـيماهُمْ] فيأخـذون بأيـديهم فيجـوزون بهـم علـى الصـراط ويـدخلونهم الجنّة». بحار الأنوار ٢٤: ٢٥٥.

(٣) الأعراف: ٤٦.

(٤) أنظر: التفسير الآصفي ١: ٣٧٤.

وروى المجلسي في بحار الأنوار ٨ : ٣٣٨: عن الصادق C قال: \

الـدعاء يقـول: «إلهـي إن أدخلتنـي النـار ففـي ذلـك سـرور عـدوك، وإن أدخلتني الجنّـة ففـي ذلـك سـرور نبيـك، وأنـا والله أعلـم أن سـرور نبيـك أحـبّ إليـك مـن سـرور عـدوّك»[1]، هـذا حـوار جميـل بـين العبـد وبـين الله تعالى.

وهناك حوار آخر مع الله في الدعاء، وهو حوار جميل أيضاً:

«إلهـي إن قومـاً آمنـوا بألسـنتهم ولـم تـؤمن بـذلك قلـوبهم ليحقنـوا بـذلك دمـائهم فـأدركوا مـا أمّلـوا، وإنّـا آمنـا بـك بقلوبنـا وألسـنتنا لتعفـو عنّـا فأدركنا ما أملنا»[2].

والحمد لله رب العالمين

* * *

[«فأمّا في يوم القيامة فإنّا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنّة والنار محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين G والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات ممن كان منهم مقصراً في بعض شدائدها، فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمّار ونظرائهم في العصر الذي يليهم وفي كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة والصقورة ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقورة صيدها، فيزفونهم إلى الجنّة زفاً...»، الخبر.

(١) مصباح المتهجد: ٥٩٦.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٩٠.

المحاضرة السادسة والستون:

حقائق عن الموت

«فَمَـنْ يَكُـونُ أسْـوَأَ حَـالاً مِنِّـي إنْ أنَـا نُقِلْـتُ عَلَـى مِثْـل حَالِي إلَى قَبْري».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن الموت، وما هو الموت؟ وما هي استعدادات الإنسان للموت؟

الموت هو المقطع الانتقالي بين الدنيا، وما بعد الدنيا، ويبدو أن الموت شيء مخيف وحقيقة مرعبة، ليس على مستوى فراق الدنيا، فلو كانت المسألة فراق الدنيا لم يكن الأمر مبكياً مخيفاً مؤلماً للأنبياء والصالحين الذين لم يذوقوا من الدنيا إلاّ الآلام، لكن بكاء الأنبياء والصالحين من الموت؛ لأنه حقيقة موحشة ومخيفة ومرعبة، «وعند الموت كربتي».

الموت في المفهوم الديني:

هو حقيقة وجودية وليس حقيقة عدمية.

الموت هو أمر معلوم يقيني لكل الناس، وليس هناك إنسان يشكّ في الموت، وهو المصير الذي ينتظر أبناء البشر، وكلنا يشهد هذا المصير، لكن غفلة هذا الإنسان وجاذبية الدنيا وإغراء الشيطان تجعله ينسى الموت، وليس هناك شيء أكثر وضوحاً من الموت، الموت حقيقة يخاف منها حتّى الأنبياء، ويبكون منها، ويستعدون لها، لكن الناس الغافلين لا خوف لديهم ولا استعداد، ولهذا فإن الإمام الصادق C يقول: «لم يخلق الله ﷻ يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت»[1].

---

(١) الخصال: ١٤/ باب الواحد/ ٤٨.

هنــاك جوانــب معلومــة وجوانــب مجهولــة فــي المــوت، القضــايا المعلومة هي انتهاء الحياة وتوقفها وانقطاع النفس ونهاية حركة الإنسان.

القضايا المجهولة في الموت:

أما القضايا المجهولة، فهي الكيفية، فكيف يموت الإنسان؟

لا أحد يدري كيف سيموت، هل يموت قتلاً في سبيل الله، أو في حادث، أو على فراشه؟ لا أحد يدري.

كذلك كيفية خروج الروح، لا أحد يدري!

الوقت أيضاً، لا أحد يدري هل سيموت في أيام الطفولة، أم الشباب، أم الكهولة؟

اجتماع الشكّ باليقين، يقين بالكبريات، وجهل بالتفاصيل، ولهذا فإن المؤمن يجب أن يقتحم عالم الشكّ.

أين؟ ومتى؟ ولماذا؟ وما شاكل ذلك؟

المطلوب من المؤمن أن يمتلك اليقين قلبه ومشاعره، ويترك الشكوك والغفلة، فهو مع الله، والموت حوله وينتظره، وعالم الملكوت وعالم الآخرة يحيط به.

ولهذا ولأجل تغيير أجواء هذا المحفل نذكر بعض المعاني العلمية:

العُرَفاء يقولون: لدينا ثلاثة أشياء: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وسأشرحها لكم بشكل موجز.

علم اليقين: هو أن تعرف الله تعالى بك.

عين اليقين: هو أن تعرف الله تعالى بالله.

حق اليقين: هو أن تعرف الله بالألوهية(١).

---

(١) قال المجلسي في توضيح الحديث الوارد عن الإمام الصادق C : «إن الله ﷻ وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البر، والصِدق، واليقين، والرضا، والوفاء، والعلم، والحلم...» الحديث. قال: ... واليقين: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وفي عرف الأخبار هو مرتبة من اليقين يصير سبباً لظهور آثاره على الجوارح، ويُطلق غالباً على ما يتعلق بأمور الآخرة، وبالقضاء والقدر، وله مراتب أشير إليها في القرآن العزيز، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، كما قال تعالى: [كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ] (التكاثر: ٥ - ٧)، وقال سبحانه: [وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ] (الواقعة: ٩٤ و٩٥).

وفي بيان الحديث الوارد عن الرضا C : «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين العباد شيء أقل من اليقين».

قال: بيان: قال بعض المحققين: اعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كلما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين ونظر الناظرين، بل لأجلهما أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض، وما فيهما من الخلق، ... فحق للعبد أن لا يشتغل إلاّ بهما ولا يتعب إلاّ لهما، ... وكل عبادة تقع على وجهها تورث في القلب صفاء يجعله مستعداً لحصول نور فيه، وانشراح ومعرفة ويقين، ثمّ ذلك النور والمعرفة واليقين تحمله على عبادة أخرى وإخلاص آخر فيها، يوجب نوراً آخر وانشراحاً أتم، ومعرفة أخرى ويقيناً أقوى، وهكذا إلى ما شاء الله ﷻ، وعلى كل من ذلك شواهد من الكتاب والسُنّة.

ثمّ اعلم أن أوائل درجات الإيمان تصديقات مشوبة بالشكوك والشبه، على اختلاف مراتبها ، ويمكن معها الشرك [وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ] (يوسف: ١٠٦)، وعنها يعبر بالإسلام في الأكثر [قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] (الحجرات: ١٤).

وأواسطها تصديقات لا يشوبها شكّ ولا شبهة [الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا] (الحجرات: ١٥)، وأكثر إطلاق الإيمان عليها خاصة [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] (الأنفال: ٢). \

أما الأوّل، فهو يعني أن من خلالك أنت وتأملك في نفسك [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ][١]، أي من خلالك تعرج إلى الله تبارك وتعالى، [الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ][٢]، عن أمير المؤمنين C قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٣]، فالنفس تصير جسراً للعبور إلى الله تعالى.

والمرحلة الثانية، وهي عين اليقين، وهي أن تنسى نفسك وتعبرها وتعرف الله تعالى في الله، أي تهيم وتطير في عالم الغيب.

[وأواخرها تصديقات كذلك مع كشف وشهود وذوق وعيان ومحبة كاملة لله سبحانه، وشوق تام إلى حضرته المقدسة [يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ] (المائدة: ٥٤). وعنها العبارة تارة بالإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وأخرى بالإيقان: [وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] (البقرة: ٤). وإلى المراتب الثلاث الإشارة بقوله ﷻ: [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] (المائدة: ٩٣)، وإلى مقابلاته التي هي مراتب الكفر، الإشارة بقوله ﷻ: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً] (النساء: ١٣٧)، فنسبة الإحسان واليقين إلى الإيمان، كنسبة الإيمان إلى الإسلام.

ولليقين ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين [كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ] (التكاثر: ٥ - ٧)، [إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ] (الواقعة: ٩٥)، والفرق بينها إنما ينكشف بمثال، فعلم اليقين بالنار مثلاً هو مشاهدة المرئيات بتوسط نورها، وعين اليقين بها هو معاينة جرمها، وحق اليقين بها الاحتراق فيها، وانمحاء الهوية بها، والصيرورة ناراً صرفاً، وليس وراء هذا غاية ولا هو قابل للزيادة، لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. انتهى. (أنظر: بحار الأنوار ٦٦: ١٦٠؛ و٦٧: ١٣٩).

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) الشعراء: ٧٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٩٢/ ٣٣٩.

أما المرحلة الثالثة، وهي حق اليقين، أي أن تعرف الله تعالى، لكن لا باعتباره شيئاً مفصولاً عنك، بل تعرف الله بما هو الله، أي بالأُلوهية.

نقلت لكم فيما سبق رواية تقول: إنه لمّا قيل لرسول الله 9 : إن عيسى يمشي على الماء.

فقال 9 : «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»[1]، هذا هو المستوى الأعلى لليقين، وهو حق اليقين، الذي يجعلك تلتحم مع الإلوهيّة فتذل لك أسباب الوجود.

حقائق عن الموت:

نحاول أن نذكر مجموعة حقائق عن الموت حسب المفهوم القرآني.

١ــ الموت أمرٌ وجودي:

الموت في المعرفة المختبرية، أي في غرفة الطوارئ والانعاش في المستشفى هو عبارة عن توقف الحياة وانقطاع الأنفاس، وهو عبارة عن أمر عدمي، أي لا حياة، ولكن الموت في الفهم الديني هو أمر وجودي، ومثلما الحياة لا تلمس باليد فهكذا الموت، وكلاهما أمر وجودي، نحن لا نستطيع أن نعرّف الحياة على أنها عدم الموت، بل هي أمر وجودي، وهي عبارة عن إدراك وقدرة وما شاكل، هكذا الموت، لكننا لجهلنا نقول: إن الموت هو عدم الحياة، وهذا خطأ، فالحياة أصلاً لا تُعدم كما جاء في الحديث عن النبي] : «ما خُلقتم للفناء، بل خُلِقتم للبقاء، وإنما تُنقَلون من دار إلى دار»[2]، حياة الإنسان في النظرية الدينية لا تُعدم، وإنما تقفز إلى الجانب الآخر من عالم الوجود، الموت

(١) مستدرك الوسائل ١١: ١٩٨/ ١٢٧٣٧/ ١٦.

(٢) بحار الأنوار ٦: ٢٤٩.

عبارة عن حياة في الجانب الآخر، هذه العملية الانتقالية هي أيضاً عملية وجودية وليست عدمية، ولهذا يقول القرآن: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً][١]، فلو كان الموت شيئاً عدمياً لقال تعالى: خلق الحياة، بينما القرآن قال: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ]، أي أن الموت هو أمر مخلوق، كما الحياة أمر مخلوق.

٢ _ صعوبة الموت:

لو كان الموت هو مجرد توقف القلب عن النبض وتوقف الدماغ عن الحركة إذن ليس فيه شدة، بل يُمكن أن تكون فيه راحة، فبدلاً من أن ينبض القلب ويتدفق منه الدم يتوقف ويرتاح، وهكذا الدماغ، فهناك ملايين الحركات العصبية والايعازات الدماغية بمجرد حركة اليد البسيطة في أقل من واحد من ألف من الثانية، لو كان الموت عبارة عن أمر عدمي إذن ليس فيه صعوبة أو شدّة، لكن الفهم الديني يقول: إن الموت شديد وعسير ومخيف وموحش، ولهذا نحن نقرأ في الدعاء: «اللهم إني أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب»[٢].

الرواية عن الإمام السجاد C تقول: «أشد ساعات ابن آدم ثلاث ساعات: الساعة التي يعاين فيها ملك الموت، والساعة التي يقوم فيها من قبره، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله تبارك وتعالى، فإما إلى الجنّة، وإما إلى النار»، ثمّ قال: «إن نجوت يا ابن آدم عند الموت فأنت أنت، وإلاّ هلكت، وإن نجوت يا ابن آدم حين توضع في قبرك فأنت أنت، وإلاّ هلكت، وإن نجوت

---

(١) المُلك: ٢.

(٢) كان الإمام موسى بن جعفر C يرددها. أنظر: الكافي ٣: ٣٢٣/ ١٠.

حين يحمل الناس على الصراط فأنت أنت، وإلاّ هلكت، وإن نجوت حين يقوم الناس لربِ العالمين فأنت أنت، وإلاّ هلكت»، ثمّ تلا C قوله تعالى: [وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ][1]، قال: «هو القبر، وإن لهم فيه لمعيشة ضنكاً، والله إن القبر لروضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النار». ثمّ أقبل على رجل من جلسائه فقال له: «لقد علم ساكن السماء ساكن الجنّة من ساكن النار، فأيّ الرجلين أنت، وأيّ الدارين دارك»[2].

كيف يسهل الموت؟

السؤال إذن: كيف يسهل الموت؟

هنا بعض الأمور البسيطة التي علَّمَناها الأنبياء G ، ويجب أن نتعايش معها، وهي أن تقول كل يوم عشراً:

«أعددت لكل هول لا إله إلاّ الله، ولكل همّ وغم ما شاء الله، ولكل نعمة الحمد لله، ولكل رخاء الشكر لله، ولكل أُعجوبة سبحان الله، ولكل ذنب أستغفر الله، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكل ضيق حسبي الله، ولكل قضاء وقدر توكلت على الله، ولكل عدوّ اعتصمت بالله، ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».

الرواية تقول: قال رسول الله 9 : «من قال هذه الكلمات كل يوم عشراً غفر الله تعالى له، ووقاه الله شر الموت، وضغطة القبر، والنشور والحساب والأهوال كلها، وهو مائة هول أهونها الموت»[3].

---

(١) المؤمنون: ١٠٠.

(٢) الخصال: ١١٩/ ١٠٨.

(٣) أنظر: مستدرك الوسائل ٥: ٣٧٩/ ٦١٤٠/ ١٢.

الأمر الثاني هو الصلاة.

الرواية عن الإمام الصادق C قال: «دخل رسول الله] على رجل من أصحابه وهو يجود بنفسه، فقال: يا ملك الموت، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال: أبشر يا محمّد، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم يا محمّد أني أقبض روح ابن آدم فيجزع أهله، فأقوم في ناحية من دارهم فأقول: ما هذا الجزع! فوالله ما تعجلناه قبل أجله، وما كان لنا في قبضه من ذنب، فإن تحتسبوا وتصبروا تُؤجروا، وإن تجزعوا تأثموا وتوزروا، واعلموا أن لنا فيكم عودة، ثمّ عودة، فالحذر الحذر، إنه ليس في شرقها ولا في غربها أهل بيت مدر ولا وبر إلاّ وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرّات، ولأنا أعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، ولو أردت قبض روح بعوضة ما قدرت عليها حتّى يأمرني ربي بها. فقال رسول الله] : إنما يتصفحهم في مواقيت الصلاة، فإن كان ممن يواظب عليها عند مواقيتها لقّنه شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، ونحى عنه ملك الموت إبليس»[١].

والمنجي الثالث من شدة الموت: هو الصدقة.

الرواية عن رسول الله] تقول: «الصدقة تدفع ميتة السوء»[٢].

٣ _ مَلَك الموت:

الموت يتم عبر واسطة، وهو مَلَك الموت، وهو عزرائيل C .

الموت ليس انطفاء شمعة، وإنما هناك مسؤول يخزن الأرواح التي يقتطفها من الناس، وهذا الملك هو مَلَك مُخيف ومَهول.

---

(١) الكافي ٣: ١٣٦/ باب إخراج روح المؤمن والكافر/ ح ٢.

(٢) الكافي ٤: ٢/ باب فضل الصدقة/ ح ١.

رسـول الله 9 رآه فـي عـالم المعـراج، فقـال 9 : «لمـا أُسـري بـي إلـى السـماء رأيـت ملكاً مـن الملائكـة بيـده لـوح مـن نـور، لا يلتفـت يميناً ولا شمالاً مقبلاً على اللوح كهيأة الحزين، قلت: من هذا يا جبرائيل؟

قال: هذا ملك الموت مشغول في قبض الأرواح.

قلت: أدنيني منه يا جبرئيل لأُكلمه، فأدناني منه.

فقلـت لـه: يـا ملـك المـوت، أكُـل مـن مـات أو هـو ميـت فيمـا بعـد أنـت تقبض روحه؟ قال: نعم.

قلت: وتحضره بنفسك؟ قال: نعم، ما الدنيا كلها عندي فيما سخّره الله لي إلاّ كدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء، وما من دار في الدنيا إلاّ وأدخلها في كل يوم خمس مرات، وأقول إذا بكى أهل البيت على ميتهم: لا تبكوا عليه، فإن لي إليكم عودة وعودة حتّى لا يبقى منكم أحد».

ثمّ قال رسول الله: «كفى بالموت طامة يا جبرئيل».

فقال جبرئيل: ما بعد الموت أطم وأعظم من الموت(١).

هنـاك كلمـة والتفاتـة رائعـة وجميلـة للإمـام علـيّ C ، حيـث يتأمـل فـي المـوت وكيفيتـه، يقـول C عنـد ذكـر المـوت فـي نهـج البلاغـة: «هـل تحـس بـه إذا دخـل منـزلاً؟، أم هـل تـراه إذا تـوفى أحـداً؟، بـل كيـف يتـوفى الجنـين فـي بطـن أُمّـه؟ أيلـج عليـه مـن بعـض جوارحهـا؟ أم الـروح أجابتـه بـإذن ربهـا؟ أم هـو سـاكن معـه فـي أحشـائها؟»، ثـمّ يقـول C : «كيـف يصف إلهَهُ من يعجز عن صفة مخلوق مثله»(٢).

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أنظر: تفسير القمي ٢: ١٦٨.

(٢) نهج البلاغة ١: ٢٢١/ ١١٢.

المحاضرة السابعة والستون:

عالم المُلك وعالم الملكوت

«لا تُسْألُ عَنْ فِعْلِكَ، وَلا تُنَازَعُ فِي مُلْكِكَ، وَلا تُشَارَكُ فِي أمْرِكَ، وَلا تُضَادُّ فِي حُكْمِكَ، وَلا يَعْتَرِضُ عَلَيْكَ أحَدٌ فِي تَدْبِيرِكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن عالم المُلك والمَلَكوت:

القرآن الكريم يقول: [تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][1].

ومرة أخرى يقول: [فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ][2]. فهناك إذن مُلك وهناك مَلَكوت.

ما الفرق بين المُلك والمَلَكوت؟

وهذا البحث كله يأتي في سياق ما قرأناه في دعاء أبي حمزة الثمالي: «لا تُنازع في مُلكِك، ولا يعترض أحد عليك في تدبيرك».

هناك عالمان:

١ـ عالم المُلك:

وهذا هو العالم المشهود، والذي نعيشه اليوم، ويُسمى في المصطلح القرآني حسب تفسير العلماء: (عالم الخَلق)، قال تعالى: [لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ][3]. وعالم الخلق هو عالم الظاهر من جميع الموجودات الكونية: الأرض، والسماء، والنجوم، والأشجار، والأنهار، وغيرها.

هل يوجد خلف هذا الموجود الظاهر عالم آخر؟

---

(١) المُلك: ١.

(٢) يس: ٨٣ .

(٣) الأعراف: ٥٤.

٢ _ عالم المَلَكوت:

القرآن الكريم يقول هناك شيء في عمق هذا العالم اسمه عالم الملكوت، ولو اطلع الإنسان عليه لكان من الموقنين وازداد يقيناً، ولكنه محجوب عنه لا يراه، وإنما يرى فقط عالم المُلك وهو الظاهر، المختبرات والعلوم المادية تستطيع أن تعرف عالم المُلك، وهو مثلاً بُعد القمر عن الأرض، وكذلك معرفة حجم الشمس، وعدد الكواكب، وما شاكل ذلك.

ولكن واقع هذا الوجود الكوني وباطنه وجوهره فهو عالم المَلَكوت، وهذا العالم لا يُكشف للناس إلاّ بعد الموت، وقد يُكشف لبعض الصالحين في هذه الحياة، مثل نبي الله إبراهيم C ، كما قال تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ][1].

إبراهيم C حين رأى الملكوت:

هنا رواية عن الإمام الباقر C ، وقد سُئل عن هذه الآية [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ] قال: «كُشِط له عن الأرض حتّى رأى من فيها، وعن السماء حتّى رآها ومن فيها، والمَلَك الذي يحملها، والعرش ومَن عليه»[2].

فأصبح نبي الله إبراهيم C يرى حقائق هذا الوجود وجوهره.

وفي رواية عن الصادق C قال: «لما رأى إبراهيم C ملكوت السماوات والأرض التفت فرأى رجلاً يزني، فدعا عليه فمات، ثمّ رأى

---

(١) الأنعام: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ١٢: ٧٢.

آخـر فـدعا عليـه فمـات، حتّـى رأى ثلاثـة فـدعا علـيهم فمـاتوا، فـأوحى الله عزّ ذكره إليه: يا إبراهيم إن دعوتك مجابة، فلا تدعُ على عبادي، فإنّي لو شئت لم أخلقهم، إني خلقت خلقي على ثلاثة أصناف:

عبداً يعبدني لا يشرك بي شيئاً فأثيبه.

وعبداً يعبد غيري فلن يفوتني.

وعبداً عبد غيري فأُخرج من صلبه من يعبدني»[1].

إذن عـالم الملكـوت هـو عـالم السـر والوجـود، ويُسـمى فـي المصـطلح القرآنـي عـالم الأمـر، كمـا فـي قولـه تعـالى: [لَـهُ الْخَلْـقُ وَالأَمْـرُ][2]، فعـالم المُلك يُسمى عالم الخلق، وعالم الملكوت يسمى عالم الأمر.

السامري هل رأى الملكوت؟

يتحدّث القرآن عن قصة السامري، وهو شخص منافق في زمن نبي الله موسى C ، حينما هاجر موسى C إلى ميقات ربه أربعين ليلة، استغلّها السامري في فترة غياب النبي، وأحدث فتنةً بين الناس، وصنع لهم عجلاً من ذهب له خوار وصوت، وتعجب الناس لهذا الفعل، وقال لهم: هذا ربكم. فكانوا يعبدون العجل. وعندما رجع نبي الله موسى C رأى أن الفتنة قد مزّقت الناس، فعاتب أخاه هارون، وجاء بعد ذلك إلى السامري وقال له: ماذا صنعت؟ ولماذا فعلت ذلك؟، فقال له السامري: [بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي][3].

---

(١) الكافي ٨ : ٣٠٥/ ٤٧٣.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) طه: ٩٦.

تفسير هذه الآية هو أن هذا الإنسان قد انفتح على عالم الملكوت بقدرة الله ومشيئته، فأصبح قادراً على هذا التصرف العجيب[١].

التعايش مع عالم الملكوت:

ما هو المطلوب تجاه عالم الملكوت؟

الدين يقول إن المطلوب من الإنسان تجاه عالم الملكوت هو الحدّ الأدنى، وهو عملية التعايش الإيجابي مع عالم الملكوت.

هناك مرتبة أعلى تسمى مرتبة المشاهدة، ولكن هذه المرتبة غير مقدورة لنا، إذن هناك مراتب:

المرتبة الأولى: هي مرتبة المعايشة: وهي المرتبة المقدورة لنا والمطلوبة منّا.

المرتبة الثانية: هي مرتبة المشاهدة، وهذه مخصّصة للأولياء، مثل نبي الله إبراهيم C ، ومرتبة الإمام C .

في الرواية عن أمير المؤمنين C أنه قال: «ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه] ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير»[٢].

---

(١) قال الطبرسي في تفسير الآية: [فَمَا خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ]، أي: ما شأنك؟ وما دعاك إلى ما صنعت؟ فكأنه قال: ما هذا الخطب والأمر العظيم الذي أحدثت؟ وما حملك عليه؟ قال السامري: [بَصُرْتُ بما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ]، أي: رأيت ما لم يروه. وقيل: معناه علمت ما لم يعلموا من البصيرة، [فَقَبَضْتُ قُبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ] أي: قبضت قبضة تراب من أثر قدم جبرائيل [فَنَبَذْتُها] في العجل، [وَكَذلِكَ] أي: وكما حدّثتك يا موسى [سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي]، أي: زينت لي نفسي من أخذ القبضة، وإلقائها في صورة العجل. (أنظر: تفسير مجمع البيان ٧: ٥١).

(٢) من خطبة له C تُسمّى: (القاصعة)، أنظر: نهج البلاغة ٢: ١٥٨/ ١٩٢.

الحدّ الأدنى المطلوب من الإنسان تجاه عالم الملكوت هو المعايشة والتطلع إلى ذلك العالم.

والإسلام يقول في مجال المعايشة: يستحب استذكار الموت، وكذلك استحباب زيارة القبور في ليلة الجمعة من كل أُسبوع، حتّى نتعايش مع عالم الملكوت، وقد ورد أن الإمام الصادق C سأله أحد أصحابه: كيف التسليم على أهل القبور؟ فقال: «نعم، تقول: السلام على أصحاب الديار من المسلمين والمؤمنين، أنتم لنا فرط، ونحن إن شاء الله بكم لاحقون»[1].

وأيضاً استحباب ذكر الآخرة [وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ][2]، وهي معايشة مع عالم الآخرة، لنكن مستعدّين للرحلة إلى هذا العالم.

أمّا عالم المشاهدة، فهو عالم آخر انفتح عليه بعض العلماء الكبار، فكانوا يلتقون بشخصيات ماتوا قبل مئات السنين، وتحدّثوا معهم وحاوروهم، ولعلّنا نستغرب كيف يحدث ذلك، هذا هو عالم المشاهدة.

نبي الله عيسى C كان يحيي الموتى، وكان منفتحاً على عالم الملكوت؛ لأن عيسى بالأصل هو من عالم الملكوت، ولهذا كان نبي الله عيسى C يتميّز بقدرات كبيرة، كان يحيي الموتى بإذن الله تبارك وتعالى، ويبرء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، وذلك هو ما نسميه المعجزة.

اتجاهات في تفسير المعجزة:

هناك بعض الاتجاهات في فهم المعجزة، وهي الاتجاهات المادية التي لا تؤمن بالأديان، تقول عن المعجزة:

(١) الكافي ٣: ٢٢٩/ باب زيارة القبور/ ح ٥.

(٢) البقرة: ٢٨١.

إنهـا أسـاطير وخرافـات. وبعـض تلـك الاتجاهـات الماديّـة تحـاول أن تفسّـر معـاجز الأنبيـاء G لـيس علـى أسـاس أنهـا خرافـة، وإنمـا علـى أسـاس أنهـا اسـتباق علمـي، يعنـي أن النـاس فـي ذلـك الزمـان كانوا جهلة لا يعرفون ما يعرفه الأنبياء G .

مثـال علـى ذلـك يقولـون فـي قصـة نبـي الله موسـى C حـين فـتح لهـم البحـر ودخلـوا وكـان المـاء لا يغمـرهم، ثـمّ جـاء فرعـون وغمـره المـاء: إن موسـى كـان يعـرف عِلْـم الفَلَـك وتأثيراتـه علـى الأرض، وكـان يدرسـه فـي ظـاهرة المـد والجـزر، وكـان يضـع رصـد علـى البحـر ليعـرف المـد والجـزر، وعنـدما جـاء المـد عبـر موسـى وأصـحابه، وعنـد الجـزر وقـع فرعـون فـي الفـخ، إذن القضـية ليسـت معجزة، وإنما هي استباق علمي!!.

نبـي الله عيسـى C أيضـاً كـان بـارزاً فـي علـم الطـب، ويبـرء الأكمَـه والأبـرص، وكـان يعـالج النـاس الـذين أوشكوا علـى المـوت، ولكـن القـرآن يعبّر عن ذلك أنه (إحياء الموتى).

هذه محاولة خاطئة في تفسير المعجزة.

أمـا القـرآن الكـريم والفهـم الـديني فإنـه يقـول: إن المعجـزة هـي ارتبـاط بعـالم الملكـوت، وأخـذ الإذن مـن الله تبـارك وتعـالى، ومعرفـة سـر مـن الأسـرار الإلهيـة التـي لا تُكشـف إلـى عـالم المُلـك إلى مدى آلاف السنين.

كان نبي الله عيسى C يحيي الموتى بعد موتهم بمائة عام، وهذا مما لا يستطيع العلم الوصول إليه، وكذلك عصا نبي الله موسى C ، لقد كان لعيسى

وموسى H ارتباط بالسر الوجودي لهذه الكائنات، ارتباط كن فيكون، [إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ][1].

إذن هناك عدة نظريات في فهم المعجزة:

النظرية الأولى: نظرية الخرافة.

النظرية الثانية: نظرية الاستباق العلمي.

النظرية الثالثة: نظرية الارتباط بعالم الملكوت. وهي النظرية الدينيّة.

حديث عن الإمام الحسن C :

لا بدَّ أن أُحدّثكم هذه الليلة عن الإمام الحسن C عندما دسَّت إليه جعدة بنت الأشعث السم، فقال: «أخرجوا فراشي إلى صحن الدار حتّى أنظر في ملكوت السماوات» فأخرجوا له فراشه، فرفع رأسه فنظر، فقال: «اللهم إني أحتسب نفسي عندك، فإنها أعزّ الأنفس عليَّ»[2].

لينفتح إلى عالم الملكوت، وهي لحظة انتقال وانفتاح على عالم الملكوت.

قصة مع الحسن البصري:

وكان أحد المعاصرين للإمام الحسن C وهو الحسن البصري الذي كانت قصته تشبه قصة السامري، وهو من التابعين الكبار، وكان إنساناً منحرفاً، وفي زمن الإمام علي C كان يُحرّض الناس على عدم

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) أنظر: ترجمة الإمام الحسن C في: (تاريخ دمشق) لابن عساكر ١٣: ٢٨٥.

القتال مع الإمام علي C ، كان الحسن البصري يبعث برسالة إلى الإمام الحسن C يقول فيها:

أما بعد، فأنتم أهل بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وإن الله جعلكم الفلك الجارية في اللجج الغامرة، يلجئ إليكم اللاجئ، ويعتصم بحبلكم القالي، من اقتدى بكم اهتدى ونجا، ومن تخلّف عنكم هَلَك وغوى، وإنّي كتبت إليك عند الحيرة واختلاف الأمّة في القدر، فتفضي إلينا ما أفضاه الله إليكم أهل البيت فنأخذ به.

فكتب إليه الإمام الحسن C : «أما بعد فإنّا أهل بيت كما ذكرت عند الله وعند أوليائه، فأما عندك وعند أصحابك فلو كنّا كما ذكرت ما تقدمتمونا ولا استبدلتم بنا غيرنا، ولعمري لقد ضرب الله مثلكم في كتابه حيث يقول: [أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ أَدْنى بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ][1]، هذا لأوليائك فيما سألوا ولكم فيما استبدلتم، ولولا ما أريد من الاحتجاج عليك وعلى أصحابك ما كتبت إليك بشيء مما نحن عليه، ولئن وصل كتابي إليك لتجدن الحجة عليك وعلى أصحابك مؤكّدة، حيث يقول الله ﷻ : [أَفَمَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ][2]، فاتبع ما كتبت إليك في القدر. فإنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله فقد فجر، إن الله ﷻ لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد من الملكة، ولكنه المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لن

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) يونس: ٣٥.

يكون عنها صاداً مثبطاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل، وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها ولا كلّفهم إيّاها جبراً، بل تمكينه إيّاهم وإعذاره إليهم طرقهم ومكنهم، فجعل لهم السبيل إلى أخذ ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، ووضع التكليف عن أهل النقصان والزمانة، والسلام»[1].

كان الإمام الحسن C هو الثقل الشرعي الديني، ويُمثّل الثقافة الإسلاميّة الصحيحة، واستطاع الحفاظ عليها، رغم أن معاوية هو الذي سيطر سياسياً.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) بحار الأنوار ١٠: ١٣٦.

المحاضرة الثامنة والستون:

التوحيد بين الاعتدال والتطرّف

والصلة بين التشيّع والتصوّف

«اللَّهُـمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ إِيمَاناً لا أجَلَ لَهُ دُونَ لِقَائِكَ أحْيِنِي مَا أحْيَيْتَنِي عَلَيْهِ وَتَوَفَّنِي إذَا تَوَفَّيْتَنِي عَلَيْهِ وَابْعَثْنِي إِذَا بَعَثْتَنِي عَلَيْهِ وَأبْرِئْ قَلْبِي مِنَ الرِّيَاءِ وَالشَّكِّ وَالسُّمْعَةِ فِي دِينِكَ حَتَّى يَكُونَ عَمَلِي خَالِصاً لَكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن التوحيد بين الاعتدال والتطرف.

الإسلام هو التوحيد، دعوة الأنبياء G هي التوحيد.

وهـذا الـدعاء الـذي نقـرؤه المعـروف بـدعاء أبـي حمـزة الثمـالي مـن أوّلـه إلـى آخـره هـو توحيـد وثنـاء وتمجيـد، «الحمـد لله الـذي أدعـوه ولا أدعو غيره...، أرجوه ولا أرجو غيره».

التوحيـد مبثـوث فـي طيّـات هـذا الـدعاء، لكـن هـذا التوحيـد الـذي هـو رسالة الأنبياء شهد نمطين من التعاطي معه، هما: الاعتدال، والتطرف.

جاء أعرابي إلى النبي] فقال: يا رسول الله، هل للجنّة من ثمن؟ قال: «نعم». قال: ما ثمنها؟ قال: «(لا إله إلاّ الله) يقولها العبد الصالح مخلصاً بها». قال: وما إخلاصها؟ قال: «العمل بما بعثت به في حقه، وحب أهل بيتي». قال: وحب أهل بيتك لمن حقها؟ قال: «أجل، إن حبهم لأعظم حقها»[1].

وسُئل الإمـام الحسـين C : كـم بـين السـماء والأرض؟ فقـال: «دعـوة مستجابة»[2].

هنـا الإمـام C لـم يحسـب المسـافة بالأميـال، ولا حسـب المسـافة بالسـنين الضـوئية، ولا بالقياسـات الزمنيـة؛ لأن المسـافة بـين السـماء والأرض ليست زمنية، ما بين الإنسان وبين الله لا توجد مسافة زمنية.

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٨٣/ ١٢٠٧/ ١٢.

(٢) بحار الأنوار ٣٦: ٣٨٤.

لاحظوا جواب أهل البيت G كم هو دقيق. «كلمة لا إله إلاّ الله يقولها العبد مخلصاً»، هذه الكلمة إذا قالها العبد مخلصاً، يعني الإخلاص هو المقاس.

التوحيد هو جوهر حركة الأنبياء G ، رسول الله 9 أوّل كلمة كانت له هي: «قولوا لا إله إلاّ الله، تُفلحوا»[1]، لكن هذا التوحيد ابتُلي باتجاهات تطرف، في عهد الديانة النصرانية المسيحية كان التطرف هو الرهبانية، مجموعة من الناس ترهّبوا، وتلقوا الديانة المسيحية بشكل متطرف، ولذلك يبين القرآن الكريم أن أصل الرهبانية ليس خطأ، بل الرهبانية مطلوبة، بمعنى أصل العلاقة مع الله والانقطاع إلى الله، ولكن التطرف فيها وتحويلها إلى مذهب انعزالي هذا هو الخطأ، ولذلك يقول القرآن الكريم: [وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ][2]، نعم عيسى المسيح C كان راهباً، بمعنى الكلمة للرهبانية، كان راهباً سيداً وحصوراً، ولكن ذلك هو غير الرهبانية التي حرّفوها وطوّروها إلى هذا الشكل، هذا التطرف على عهد الديانة الإسلاميّة أيضاً شهد نموذجاً آخراً سُمي بمذهب التصوف.

ما هو التصوف؟

التصوف في أصله هو الزهد، والانقطاع عن الدنيا، والابتعاد عن السيّئات، وتطهير القلب، والخلوة مع الله تعالى، والفقر إليه، وهذه مفاهيم صحيحة، الإسلام يدعو إلى الزهد، والانقطاع، والاعتكاف، والخلوة مع

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ٢٠٢.

(٢) الحديد: ٢٧.

الله تبارك وتعالى، ولكن التصوّف شهد تطرفاً في تلك المبادئ، فأصبح الصوفي يقول: (أنا الله، والله أنا)، هذا تطرف في التوحيد، وهذا فهم شكلي تقليدي للتوحيد، ولهذا جاء علماؤنا ونقدوا الفكر الصوفي.

هناك أبيات جميلة للشهيد الأوّل صاحب كتاب (اللمعة الدمشقية)، وهو الكتاب الفقهي الاستدلالي الذي يُدرّس في الحوزة العلمية، يقول في أبياته:

ليس التصوف عكّازاً ومسبحَةً   كلاّ، ولا الفقر رؤيا ذلك الشرفِ

وأن تروح وتغدو في مرقّعةٍ   وتحتها موبقات الكِبر والسَرَفِ

وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على   عكوفها كعكوف الكلب للجيفِ[1]

إن فرق التشيّع عن التصوف هو أن التشيّع يفهم ما هو جوهر الإسلام، فمرة تلبس ملابس الفقراء، ومرة تلبس ملابس الأغنياء، ومرة تجلس مجلس الملوك، ومرة تأكل أكل العبيد، كل شيء في موضعه يصبح جيداً، التشيّع هو جوهر التوحيد، وليس هو الأشكال التقليدية للتوحيد كما يصنعه المتصوفة.

شبهة عبد الله بن سبأ:

ولكن جاء أعداء التشيع فاتهموا الشيعة بأن أصل التشيع مأخوذ من عبد الله بن سبأ، وهو يهودي، فأصل التشيع إذن هو مذهب يهودي، ويذكر التأريخ المحرَّف أن عبد الله بن سبأ كان شخصية في زمن حروب الإمام عليّ C ، وهذه الشخصية شخصية يهودية جاء من

(١) شرح اللمعة الدمشقية ١: ١٢٦؛ أعيان الشيعة ١٠: ٦٣.

اليمن إلى العراق، ونشر في وسط العراقيين الفكر اليهودي الذي يؤمن بالوصية ليوشع.

قالوا: إن رسول الله 9 أوصى لعليّ C ، وهكذا مبدأ الرجعة، ومبدأ البداء، ومبادئ أخرى، فإن أصلها هو اليهودية! هذه تشويهات لمبدأ التشيع؛ لكي يقولوا إن التشيّع أصله يهودي، وليس أصله إسلامي[1].

هناك ظاهرة أصيلة:

هناك بحث مهم جدّاً لا أستطيع أن أتناوله الآن، نحن نقول: إن التشيع هو ظاهرة أصيلة في الإسلام، وليس ظاهرة طارئة، ولكن هناك أقلام وكتابات تريد أن تقول إن الشيعة والتشيّع مذهب طارئ، وليس مذهباً أصيلاً.

يكتب طه حسين في كتابه (عليّ وبنوه) و(الفتنة الكبرى): أن هناك عدّة آراء في أصل التشيّع، رأي يقول: إن التشيع نشأ بعد مقتل عثمان، رأي آخر يقول: إن التشيّع نشأ بعد مقتل الإمام عليّ C ، رأي ثالث يقول: إن التشيّع نشأ بعد مقتل الإمام الحسين C ، كل هذه الآراء تريد أن تقول: إن التشيع ظاهرة طارئة على الإسلام الأصيل.

ونحن نقول: إن التشيع نشأ على عهد رسول الله 9 ، والذي

(١) من أولئك الباحث المصري أحمد أمين في بحثه عن الفِرَق في فصل الشيعة (ص ٢٦٦ - ٢٦٨)، وللإطلاع على أصل الفكرة، والردّ عليها، يُراجع كتاب عبد الله بن سبأ (ج ١: ص ٥٠) للعلاّمة السيد مرتضى العسكري. فقد أوفى واستوفى. رحمه الله وجزاه عن المذهب خير الجزاء.

أسس التشيع هو رسول الله 9 ، حين قال: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتّى يَردا عليَّ الحوض»(١).

النشوء والتكامل:

ولكن من أجل أن يكون بحثنا علمياً أقول: هناك نشأة، وهناك تكامل، الإسلام متى نشأ؟ نشأ يوم بُعث رسول الله 9 في مكّة، لكن الإسلام متى تكامل؟ تكامل بعد (٢٣) سنة، حينما نزلت الآيات، الأحكام، أحكام الصوم، أحكام التجارة، أحكام المعاشرة الاجتماعية وغيرها، سنتان إلى أن تكامل الإسلام، لكن أحداً لا يستطيع أن يقول بأن الإسلام نشأ بعد (٢٣) سنة من البعثة النبوية؟ هذا كلام غير صحيح، الإسلام نشأ من اليوم الأوّل، الإسلام نشأ حينما نزل جبرائيل C في غار حراء على نبينا 9 في العام الأوّل للبعثة النبوية، لكنه تكامل بمرور السنين، حينما صار القرآن بين الدفتين.

التشيّع هكذا أيضاً، يجب أن نُميّز بين النشأة وبين التكامل، التشيع نشأ على عهد رسول الله 9 ، لكنه تكامل بمرور السنين، من الإمام علي C أخذنا نهج البلاغة، من الإمام عليّ بن الحسين C أخذنا الصحيفة السجادية، من الإمام الباقر والصادق H أخذنا عشرات الآلاف من الأحاديث في الفقه الإسلامي لم تكن موجودة من قبل، هذا تطور وتكامل، وهذا لا يعني أن التشيع نشأ في عهد الإمامين الباقر والصادق H ، هناك فرق بين النشأة والتكامل.

(١) عيون أخبار الرضا C ٢: ٢٠٨؛ سنن النسائي ٥: ٤٥؛ كنز العمال ١: ١٧٢.

نحن نقول: إن التشيع نشأ في عهد رسول الله 9 ، حينما دعا إلى الرجوع إلى أهل البيت G واعتبار الإمامة الفكرية والسياسية لهم.

في يوم الغدير قال رسول الله 9 : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»(١)، أما قضية عبد الله بن سبأ وأنه هو أصل التشيع، فالحقيقة أن عبد الله بن سبأ شخصية مجهولة مختَلَقة، لا وجود لها في التاريخ، أرادوا أن يشوّهوا صورة الشيعة والتشيع، قالوا: إن هناك شخص اسمه عبد الله بن سبأ، وهو الذي أسس التشيع.

العلامة السيد مرتضى العسكري ; ، له بحث رائع ومهم اسمه (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى) و(مائة وخمسون صحابي مُختَلق)، وهو يثبت أن شخصيّة عبد الله بن سبأ هي شخصيّة وهميّة.

التشيع كان في زمن النبي] ، علي، الزهراء، الحسن، الحسين G ، ونحن غير محتاجين إلى أن يأتي شخص من اليمن اسمه عبد الله بن سبأ ويعلّمنا التشيع، هذه دسائس أعداء أهل البيت G .

ومع الأسف هذه الفكرة نجدها في كتاب حديث الصدور صدر في الرياض اسمه (الموسوعة الميسرة للتعرف على الأديان والمذاهب المعاصرة) تأليف (ندوة الشباب الإسلامي)، نفس الأفكار يؤكّدونها.

يقول الكتاب _ مثلاً _ وهو يتحدّث عن الشيعة في هذا الزمان، رغم أن التشيع أصبح واضحاً بعلمائه، بكتبه، وفقهائه وفلاسفته.

يقول: (إن من شخصياتهم البارزة تأريخياً هو عبد الله بن سبأ، وهو

---

(١) أنظر: مسند أحمد ١: ٨٤؛ سنن ابن ماجة ١: ٤٥؛ سنن الترمذي ٥: ٢٩٧؛ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٩.

يهودي من اليمن، أظهر الإسلام ونقل ما هو موجود في الفكر اليهودي إلى التشيّع، كالقول بالرجعة، وعدم الموت، وملك الأرض، والقدرة على ما يشاء، وإثبات البداء، والنيابة عن الله تعالى، وكان يقول في يهوديته: أن يوشع بن نون وصي موسى، فقال في الإسلام أن علياً وصي محمّد) هذا ما جاء في كتاب (الموسوعة الميسّرة)، فهو يغفل متعمداً عن كل أحاديث الوصية الموجودة في صحاحهم ومسانيدهم: أن رسول الله 9 قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[١].

وإنه 9 قال: «أقضاكم علي»[٢].

وإنه 9 قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتّى يَردا عليَّ الحوض»[٣]، فهذه كلها يتغافلون عنها ليقولوا إن عبد الله بن سبأ هو الذي أدخل فكرة الوصية في الإسلام. هذه محاولة تشويه لصورة الشيعة والتشيع.

اتهام الصلة بين التصوّف والتشيّع:

وجاءنا اتهام آخر يقول بأن هناك صِلة بين التصوّف والتشيّع، وهناك تشابه، وواقع الحال أن الصوفيّة ينتشرون اليوم في المغرب العربي، في تونس ومصر والجزائر والمغرب، أمّا الشيعة فلديهم الصحيفة السجّادية، وأدعية أهل البيت G .

ظاهرة التصوّف انتشرت في المغرب العربي، انتشرت عند أهل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ دمشق ٥١: ٣٠٠؛ شرح نهج البلاغة ١: ١٨.

(٣) سنن النسائي ٥: ٤٥؛ كنز العمال ١: ١٧٢.

السُنّة، ولم تنتشر عند الشيعة. إن شيخ أصحاب الطرق هو عبد القادر الكيلاني، وليس الإمام موسى بن جعفر C ، وهو الإمام السابع عند الشيعة.

علماؤنا نقدوا التصوف، لدينا العلامة المجلسي نقد التصوف، لدينا صدر المتألهين نقد التصوف، وهكذا كثير من علمائنا كتبوا في نقد التصوف، والتصوف فكر انحرافي، وليس فكراً أصيلاً، وربما تكون بعض مبادئهم صحيحة، لكن ليس معناه أن كل تلك المدرسة صحيحة، التصوّف ليس له قرابة بالتشيّع، والتصوف عبارة عن فكر متطرف رغم أن لديهم أفكاراً جميلة، وأفكاراً صحيحة.

قالوا: إن أحد الخصائص التي نتعلمها من رسول الله 9 هو الفقر، لكن أنظروا هناك كيفيتان لفهم الفقر:

الكيفية الأولى: الفقر الصوفي، يعني أن نعيش في خَربة، ونقفل الباب علينا، ونلبس ملابس ممزقة، ونبتعد عن المجتمع، ونأكل الخبز اليابس، هذا هو الفقر الصوفي.

لكن الفقر الإسلامي الصحيح الذي نتعلمه من رسول الله 9 ، هو الفقر إلى الله تبارك وتعالى، أن تشعر أنك مع الله فقيراً، وقد تكون ثرياً في الدنيا، [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ][1]، لكن أنت مع الله تبارك وتعالى يجب أن تشعر بالفقر، ولهذا قرأنا في الدعاء: «اللهم رضّني بما قسمت لي حتّى لا أسأل أحداً شيئاً، ... وارزقني من فضلك الواسع رزقاً حلالاً طيباً، لا تفقرني إلى أحد بعده سواك»، هذا فقر إلى الله تبارك وتعالى مع رجاء الغنى في نفس الوقت، «تزيدني بذلك

(١) الأعراف: ٣٢.

شكراً، وإليك فاقةً وفقراً، وبك عمّن سواك غنىً وتعففاً»[١]، هذا هو الفقر الصحيح، وليس الفقر الشكلي.

هؤلاء اثنان _ كما تقول الرواية _ كانا في الدنيا يعملان عملاً متشابهاً، نفس المستوى في أعمالهم الصالحة، لكن يوم القيامة، حينما حُشرا أحدهما نظر إلى صاحبه وإذا مرتبته في الجنّة كبيرة وعالية، فسأل الله تبارك وتعالى، قال: إلهي إن عملنا نفس العمل، وأعطيت فلاناً ما لم تعطني.

فقال تبارك وتعالى: ذاك سألني، وأنت لم تسألني، أنت لم تسألني، وأنا كريم، من يسألني أعطه، ذاك أعطيته لعمله وسألني، وأنت لم تسألني[٢].

الإسلام جميل، يقول: [وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ][٣].

وأيضاً في الرواية عن رسول الله 9 أنه يوم القيامة يُحشر أناس لهم أعمال مكتوبة لم يعملوها، وغيرهم عملوها فكُتِبت لهم، فيقال: إلهي هؤلاء مكتوب لهم أعمال لم يعملوها، فيقول الله تبارك وتعالى: سألوني وأعطيتهم، وهو فضلي أؤتيه من أشاء[٤].

---

(١) إقبال الأعمال ١: ١٢٠.

(٢) قال رسول الله]: «يدخل الجنّة رجلان كانا يعملان عملاً واحداً، فيرى أحدهما صاحبه فوقه، فيقول: يا رب، بما أعطيته وكان عملنا واحداً؟ فيقول الله تعالى: سألني ولم تسألني»، ثمّ قال: «اسألوا الله واجزلوا، فإنه لا يتعاظمه شيء». أنظر: وسائل الشيعة ٧: ٢٤/ ٨٦٠٥/ ٧.

(٣) النساء: ٣٢.

(٤) قال رسول الله]: «لتسألُنّ الله أو ليغضبنّ عليكم، إن لله عباداً يعملون فيعطيهم، وآخرين يسألونه صادقين فيعطيهم، ثمّ يجمعهم في الجنّة، فيقول الذين عملوا: ربنا عملنا فأعطيتنا، فبما أعطيت هؤلاء؟ فيقول: هؤلاء عبادي، أعطيتكم أجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً، وسألني هؤلاء فأعطيتهم، وهو فضلي أوتيه من أشاء». أنظر: وسائل الشيعة ٧: ٢٥/ ٨٦٠٦/ ٨.

ولهـذا نحـن عنـدما نـدعو الله زيـارة بيـت الله الحـرام وزيـارة قبـر نبيـه، هـذه سـتكتب لنـا إن شـاء الله فـي صـحائف أعمالنـا، سـواء رُزِق الإنسـان الحـج أم لـم يُـرزق، الله يقـول أنـا أعطـيكم ثـواب الحـج حتّـى وإن لـم تحجّـوا، أُنظـروا المفـاهيم الإسـلاميّة، مفـاهيم معتدلـة، التشـيّع لمـا عـرض الإسـلام عرضـه عرضـاً معتـدلاً ولـيس عرضـاً متطرفـاً وإفراطيـاً، نحـن نعمـل ونسـأل الله تبـارك وتعـالى ونتوسـل، وأيضـاً نعمـل مـع بعضـنا ونتعـاون ونسـأل بعضنا، هذا هو التوحيد المعتدل في مقابل التوحيد المتطرف.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة التاسعة والستون:

قانون الشفاعة

وأوسمة أمير المؤمنين C

«مَعْرِفَتِي يَا مَوْلايَ دَلِيلِي عَلَيْكَ وَحُبِّي لَكَ شَفِيعِي إِلَيْكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن الشفاعة؛ لأننا نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «وحبي لك شفيعي إليك، وأنا واثق من دليلي بدلالتك، وساكن من شفيعي إلى شفاعتك».

مفهوم الشفاعة:

هو مفهوم إجماعي؛ بمعنى أن جميع المذاهب الإسلاميّة تتفق على أصل المبدأ، على اختلاف في التفاصيل.

الشفاعة لغوياً تعني الشفيع، هو المرادف الثاني، أو القرين الذي يجعل الواحد اثنين، ومنه كلمة الشفع الذي يعني الزوج، الشفيع هو القرين الثاني الذي يشفع ويتوسط للفرد الأوّل[1].

الناس جميعاً يحتاجون إلى الشفاعة، أي لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الله تعالى إلاّ عبر الشفاعة، الله تبارك وتعالى لا يُرى بالعين، ولا نستطيع أن نمسك به، لا بدَّ من حبل وسيط بيننا وبين الله تبارك وتعالى، وهذا الذي يقول عنه القرآن: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ][2]، أي ليكن عندكم وسيط بينكم وبين الله تعالى.

---

(١) أنظر: لسان العرب ٨: ١٨٣ / مادة: شفع.

(٢) المائدة: ٣٥.

الشُفَعاء ستّة:

وهذا الوسيط هو أحد أمور ستّة:

١ _ الإيمان به تبارك وتعالى، ولهذا نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «اللهم إني بذمة الإسلام أتوسل إليك»، الشفيع هنا هو الإيمان والتوحيد، وشهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمّداً رسول الله.

٢ _ الحب، وهو أعمق من الإيمان، وهو عبارة عن ممازجة العاطفة والعقيدة، ولهذا أيضاً نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «وحبي لك شفيعي إليك».

٣ _ القرآن، «اللهم إني بذمة الإسلام أتوسل إليك، وبحرمة القرآن أعتمد عليك»، هذا القرآن هو كتاب الله، وهو محبوب عند الله تعالى، ونحن من خلال تقديرنا وحبّنا وتقديسنا وتقبيلنا ودفاعنا عن كتاب الله هذا نتقرب إليه تعالى، ولهذا نحن نشهد يوم القيامة هؤلاء الشفعاء: التوحيد، والحب، والقرآن.

الروايات تقول: إن الآيات القرآنية والسور تتجلى للإنسان يوم القيامة على شكل صور نورانية جميلة تشفع له وتدفع عنه الأهوال(١).

---

(١) عن أبي جعفر الباقر C قال: «تعلموا القرآن، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق، والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صف أمّة محمّد، وأربعون ألف صف من سائر الأمم، فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلم، فينظرون إليه ثمّ يقولون: لا إله إلاّ الله الحليم الكريم إن هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته، غير أنه كان أشد اجتهاداً منّا في القرآن، فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه، ... ثمّ يجاوز حتّى ينتهي إلى رب العزة تبارك وتعالى فيخر تحت العرش، فيناديه تبارك وتعالى يا حجتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فيرفع رأسه، فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا رب منهم من صانني وحافظ عليَّ ولم يضيع شيئاً، ومنهم من ضيعني واستخف بحقي وكذب بي، وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب، ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب...» الحديث. أنظر: الكافي ٢: ٥٩٦/ باب فضل القرآن/ ح ١.

ويقال للإنسان يوم القيامة: اقرأ وارق، أي اقرأ آية واصعد درجة[١].

٤ ـ العمل الصالح، كالصلاة، والصوم، والزكاة، وبر الوالدين، والصدقة، وصلة الرحم، كل هذه الأعمال الصالحة تشفع للإنسان.

٥ ـ الأنبياء والرسل وأهل البيت G ، فكما أن الله تعالى لديه رسالة هي القرآن، فلديه رسول، ولهذا أيضاً نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «وبحبي النبي الأُمّي العربي التهامي القرشي العربي المكّي المدني أرجو الزلفة لديك»، النبي شفيع، وأهل بيت النبوة هم شفعاء أيضاً.

٦ ـ المؤمنون، كل مؤمن له شفاعة يوم القيامة، كنت أقرأ رواية جميلة عن رسول الله 9 تقول: «ما من أهل بيت يدخل واحد منهم الجنّة، إلاّ دخلوا أجمعين الجنّة».

قيل: وكيف ذلك؟

قال: «يشفع فيهم فيشفَّع، حتّى يبقى الخادم، فيقول: يا رب خويدمتي ـ يعني خادمي أو خادمتي وهو تصغير ـ قد كانت تقيني الحر والقر، فيشفع فيها»[٢]؛ لأن المؤمن يشفع يوم القيامة، وهذا حديث مفصّل أضطر إلى تأجيله.

حيث لدينا في مبحث الشفاعة عدّة بحوث:

البحث الأوّل: إشكالات على مبدأ الشفاعة:

١ ـ تضارب النصّ القرآني.

(١) في حديث عن الإمام الصادق C قال: «وعليكم بتلاوة القرآن، فإن درجات الجنّة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق، فكلما قرأ آية رقي درجة». أمالي الصدوق: ٤٤٠/ ٥٨٦/ ١٠.

(٢) الاختصاص: ١١١.

٢ _ التجرؤ على المعاصي.

٣ _ إنها قضية شكلية.

البحث الثاني: من هم الشفعاء؟

البحث الثالث: من هم المشمولون بالشفاعة؟ ومن هم المطرودون عنها؟

حديثنا الليلة عن أمير المؤمنين C لأنَّ الليلة هي ليلة القدر وفاجعة جرح علي C ، والأحاديث عنه واسعة بسعة شخصيته C ، لكنني وضعت عنواناً هو:

أوسمة أمير المؤمنين C :

أمير المؤمنين C أعطاه رسول الله 9 مجموعة أوسمة وألقاب اختُصّ بها دون سواه، فهناك فضائل مشتركة يشترك بها الإمام عليّ C وغيره، مثلاً «إن الجنّة تشتاق إلى أربعة: علي، وسلمان، وأبوذر، والمقداد»[1]، لكن حديثنا الليلة عن أوسمة خاصة، فالوسام لا يُعطى لكل شخص، نحن نجد أن الله تبارك وتعالى، وهكذا رسول الله 9 أعطى أوسمة للإمام علي C ، فضائل الإمام علي تُعد بالآلاف، لكن الوسام لا يُعطى لصاحب أيّ فضيلة، بل يُعطى للذي بلغ القمّة، المحدّثون من السُنّة والشيعة صنّفوا الآلاف من الكتب التي جمعوا فيها فضائل الإمام عليّ C ، حديث الليلة ليس عن فضائله، بل عن أوسمته التي أعطاها له رسول الله 9 عن الله تبارك وتعالى، والتي تميّز بها عن جميع المسلمين بلا منازع، ولا يستطيع اليوم أحد أن يقول: إن هذا وسام حصل عليه غير أمير المؤمنين C .

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٤؛ مجمع الزوائد ٩: ٣٠٧.

البحث عن الفضائل ليس ترفيّاً:

هنا لدينا بحثان:

الأوّل: أن البحث عن الفضائل هل هو بحثٌ تراثي وترفي لا فائدة فيه؟

هذا سؤال مهمّ، وجوابه أيضاً مهمّ، ولعلّي لا أستطيع الليلة الحديث عنه، لكننا نقول بشكل موجز: إن البحث عن الفضائل ليس تراثياً ولا ترفياً، والقرآن الكريم بحث عن الفضائل وعن قصص الأنبياء G وتحدّث عنها، ولو كان هذا البحث تراثيّاً ترفيّاً لما تحدّث القرآن الكريم عن الأنبياء G ، مثل إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وعيسى روح الله G .

نحن نعتقد أن البحث عن الفضائل هو بحث عقائدي تربوي، ويحدد هوية الأمّة، فالأمّة التي ليس لديها قادة ولا تعرف خصوصيّاتهم هي أُمّة سائبة، هوية الأمّة بهويّة قادتها وأئمّتها.

القرآن الكريم يقول: [أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ][1]، لو كان الحديث عن الفضائل حديثاً ترفياً لما تحدّث القرآن الكريم عن فضائل رسول الله 9 : [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ][2]، هذه الفضائل يجب أن تترسخ في ذهننا؛ لكي نعرف نبينا وأئمّتنا عقائدياً وتربوياً؛ لكي نتعلم منهم [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ][3].

البحث عن الفضائل ليس طائفياً:

وهناك أيضاً سؤال ثانٍ عريض، ولعلّنا في أجوائنا الخاصة لا

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) القلم: ٤.

(٣) الأحزاب: ٢١.

نسمعه، لكن يوجد غيرنا من يكتب عنه ويتكلم به، وهو: أن الحديث عن الفضائل هو حديث طائفي يكرس الطائفية والقطيعة بين مذهب وآخر، هذه شبهة ثانية.

الجواب أيضاً واسع، لكن القرآن الكريم حينما يتحدّث عن اليهود: [وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ](١)، وعن النصارى: [وَقَالَتِ النَّصَارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ](٢)، فهل هذا يعني أن القرآن صار طائفياً؟ القرآن يتحدّث عن مذاهب وأُمم، والحديث عن الطوائف ليس طائفياً، الطائفية لغوياً تعني الانتماء، والحديث عن مجموعة معينة، وهذا ليس أمراً سلبياً، لكن الآن المصطلح أصبح سلبياً، كل العالم اليوم لديه طوائف ومذاهب، وليس هناك مشكلة في ذلك، لكن الطائفية المرفوضة هي أن تمقت الآخرين وتحقد عليهم وتسحقهم، أما أن يكون لديك دين معين أو رأي معين تختلف به عن الآخرين فلا يعني ذلك الطائفية، بل هو حوار حر وانتماء مقبول، القرآن الكريم يقول: [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ](٣)، اليوم العالم مبني على التعددية والحوار، وهذا ما أسس أصوله دين الإسلام، الطائفية حينما يصل الأمر إلى ذبح الآخرين وتكفيرهم ومصادرتهم، نحن حين نتحدّث عن رسول الله 9 وأهل البيت G لا نريد أن نسحق أية أُمّة من الأُمم الأخرى، سواء كانت غير إسلاميّة أو مسلمين من مذاهب أخرى، فالناس وكما يقول أمير المؤمنين

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) العنكبوت: ٤٦.

C : «صنفان: إما أخ لك في دين، وإما نظير لك في خلق»[(١)]، فمن كان أخوك يجب أن تحمل همّه وتقاتل من أجله، [وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ][(٢)]، لا توجد طائفية في الإسلام، ولا نحن حينما نتحدّث عن مذهبنا نصبح طائفيين، بل بالعكس نحن ننفتح على المذاهب الأخرى ونؤمن بوحدة الأمّة الإسلاميّة، أقرأ لكم نموذجاً للخطاب الطائفي لكي تعرفوا مدى الظلم الذي يلحق بنا وبكم، ونحن أوّل من ذُبحنا بسيف الطائفية:

تصريحات علماء الوهابية:

الآن يوجد اثنان من العلماء المعاصرين ومن فقهاء الإسلام في المملكة العربية السعودية، أحدهما المفتي الأعظم السابق الشيخ ابن باز، والثاني الشيخ ابن عثيمين، والاثنان يُعتبران مراجع عليا في المملكة العربية السعودية، وأقرأ لكم نماذج من عباراتهم؛ كي نرى كيف يتعامل معنا الآخرون:

الشيخ ابن باز سُئِل من اليمن عن الشيعة الذين يرجعون إلى زيد بن عليّ بن الحسين G ، وهل تجوز الصلاة خَلفهم أم لا؟

قال: أما الصلاة خلف الزيدية فلا أرى صحتها خلفهم؛ لأن الغالب عليهم الغلو في أهل البيت، لأنواع من الشرك، مع سبّهم لبعض الصحابة، وإظهارهم بعض البدع. ثمّ يقول: وهكذا بقية أصناف الشيعة الموجودين اليوم، كالإمامية وغيرهم، فهم مبتلون بأنواع من الشرك.

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٨٤/ ٥٣.

(٢) النساء: ٧٥.

ثمّ اسمعوا الشيخ المفتي الأعظم في السعودية الشيخ ابن عثيمين، وهو أيضاً معاصر، حيث سُئِل: هل يُعتبر الشيعة في حكم الكافرين؟ وهل يدعو المسلم الله تعالى أن ينصر الكفار عليهم؟

فكان جوابه: (الشيعة، والصواب أن يقال الرافضة؛ لأن تشيّعهم لعليّ بن أبي طالب 2 تشيّع متطرف لا يقبله علي 2 ، فالرافضة كما وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية ; في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) حيث قال في (صفحة ٣٩١): إنهم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركاً، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتّى أنهم يخربون مساجد الله التي يُذكر فيها اسمه، فيعطلونها عن الجمعة والجماعات، ويعمرون المشاهد التي أُقيمت على القبور التي نهى الله ورسوله عن اتخاذها.

ثمّ قال في (صفحة ٤٣٩) من الكتاب المذكور: الرافضة أُمّة مخذولة، ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصورة... إلى أن يقول: وأما خطر الرافضة على الإسلام فكبير جدّاً، وقد كانوا هم السبب في سقوط الخلافة الإسلاميّة في بغداد، وخطرهم يأتي من حيث يدينون بالتقية التي حقيقتها النفاق، وهو إظهار قبول الحق مع الكفر به باطناً، والمنافقون أضرّ على الإسلام من ذوي الكفر الصريح).

هذا في الحقيقة هو نموذج الخطاب الطائفي، أما الحديث عن الفكر والفضائل وأحداث الأمّة الإسلاميّة فليس حديثاً طائفياً. القرآن الكريم يتحدّث عن موسى C ، وفي مقابله يتحدّث عن فرعون، ولابدَّ من الحديث عن الحق وعن الباطل، الخطاب الطائفي هو عبارة عن تكفير الآخرين.

المذهب التكفيري الذي تبلور في العراق لا يُمثّل ظاهرة جديدة، فالتكفير مذهب قديم، التكفير كان من عهد معاوية ويزيد.

نرجع إلى الحديث عن أوسمة الإمام علي C : رحم الله علماءنا الذين كتبوا في حفظ فضائل أهل البيت G ، بعد أن كانت السياسة الأُموية والسلطوية تريد مسح هذه الفضائل، وكما تعرفون فإن السلطة الأُموية أهدرت دم من يروي رواية في فضل علي C (١).

---

(١) يذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج: أن معاوية أصدر مرسوماً من نسخة واحدة إلى عماله: أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي C ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي C ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وشردهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم.
وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن أنظروا من قِبَلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه؛ لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً.
ثمّ كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليَّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرويت إخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقى إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتّى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله. \

فكم جَهد علماؤنا لأجل حفظ هذه الفضائل، حتّى ثبت أنه: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله] من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب C) كما قال أحمد بن حنبل[1].

أذكر لكم اليوم على سبيل الاسترسال السريع سبعة أوسمة أعطاها رسول الله 9 للإمام علي C :

١ _ الوسام السياسي.

٢ _ الوسام النَسَبي.

٣ _ الوسام العِلمي.

٤ _ الوسام البطولي.

٥ _ الوسام العبادي.

[ثمّ كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان أنظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولاسيّما بالكوفة، حتّى إن الرجل من شيعة علي C ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرّاء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الدّيانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها. فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن علي C ، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض. (شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤).

(١) عنه: الحاكم في المستدرك ٣: ١٠٧؛ والخوارزمي في المناقب: ٣٤.

٦ ـ الوسام الدّيني.

٧ ـ الوسام الأُخروي.

يعني أن علياً C حاز أوسمة الدنيا وأوسمة الآخرة، لا ينافس علياً C أحد في هذه الأوسمة، رحمة الله على أحد علماء النجف، وهو السيد الفيروز آبادي، حيث كتب كتاباً اسمه (فضائل الخمسة من الصحاح الستة)، الخمسة هم رسول الله] ، وعلي وفاطمة والحسن والحسين G ، والصحاح الستة هي الكتب الحديثية المعتبرة عند أهل السُنّة، وهي عبارة عن صحيح البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبي داود، وأحمد، وانتقيت لكم من هذا الكتاب الجميل مجموعة أوسمة:

١ - الوسام السياسي:

وهو قول رسول الله 9 : «من كنت مولاه فعلي مولاه»[1]، وكذلك قوله] : «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبي بعدي»[2]، وهذا موجود في صحيح البخاري، الذي يعتبره أهل السُنّة أصح كتاب بعد القرآن الكريم، وكما يروي هذه الرواية مصادرهم الأخرى، مثل مسند أحمد بن حنبل، وابن ماجة وغيرهم.

كما يروي ابن ماجة في سننه، وابن كثير الدمشقي في السيرة، عن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول الله 9 في حجته التي حج، فنزل

(١) أنظر: مسند أحمد ١: ٨٤؛ سنن ابن ماجة ١: ٤٥؛ سنن الترمذي ٥: ٢٩٧؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٠٩.

(٢) أنظر: صحيح البخاري ٥: ١٢٩؛ صحيح مسلم ٧: ١٢٠ ؛ مسند أحمد ١: ١٧٠؛ سنن ابن ماجة ١: ٤٣.

في بعض الطريق، فأمر الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى، قال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟»، قالوا: بلى، قال: «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»[1].

٢ - الوسام النَسَبي:

ليس هناك أحد حصل على الوسام النَسَبي مع رسول الله 9 مثلما حصل عليه الإمام علي C ، جاء في صحاح الفريقين: أن علياً C جاء تدمع عيناه _ وذلك عندما آخى بين أصحابه ولم يؤاخه مع أحد _ فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد.

فقال له رسول الله 9 : «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[2].

٣ - الوسام العلمي:

وهو قوله 9 : «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وللدقة العلمية أقرؤه لكم من صحاح أبناء العامة.

الرواية تقول في مستدرك الصحيحين: قال رسول الله 9 : «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب»[3].

في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي _ وهو أيضاً من مصادرهم _ عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله 9 يوم الحديبية

(١) سنن ابن ماجة ١: ٤٣/ ١١٦؛ السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٤١٧.

(٢) أنظر: أمالي الصدوق: ١٣٦/ ١٣٥/ ٨؛ سنن الترمذي ٥: ٣٠٠/ ٣٨٠٤؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٤؛ الاستيعاب ٣: ١٠٩٩؛ أُسد الغابة ٤: ١٦؛ كنز العمال ١١: ٥٩٨/ ٣٢٨٧٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٦.

وهو آخذ بيد علي ويقول: «هذا أمير البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله ـ يمد بها صوته ـ أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد البيت فليأت الباب»[١].

٤ - الوسام البطولي:

قال رسول الله 9 : «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه»، الرواية أيضاً مصادرها من أبناء العامة كصحيح البخاري وصحيح مسلم وغيره باب في فضل من أسلم على يديه، حيث قال النبي 9 يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

وكان علي C مريضاً في عينيه الرمد، فاشرأبت إليها الأعناق، فبات الناس ليلتهم أيّهم يعطاها، فغدوا كلهم يرجون، فقال رسول الله 9 : «أين علي؟».

فقيل: يا رسول الله يشتكي عينيه.

قال: «ادعوه»، فدعي له C ، فبصق في عينيه، أو أخذ من ريقه ووضعه في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

فقال علي: يا رسول الله، أُقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا؟.

فقال رسول الله 9 : «انفذ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لئن يهد الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم». حمر النعم رمز لأهم

---

(١) تاريخ بغداد ٣: ١٨١.

قيمة مالية عند أهل الجزيرة وهي الإبل الصفراء والشقراء، وفي رواية أخرى: «خير لك مما طلعت عليه شمس».

هذه الرواية يرويها البخاري ومسلم، وهي الوسام البطولي: «رجل يفتح الله على يديه، كرار غير فرار»[(١)].

٥ - الوسام العبادي:

هذا الوسام هو قول رسول الله 9 بإجماع المحدّثين والمؤرخين قول رسول الله] : «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»، أي إن كل عبادات الأوّلين من آدم إلى أن تصل إلى إبراهيم إلى موسى وعيسى G ، إلى يوم يبعثون لو وضعوها في كفة ووضعوا موقف الإمام علي في كفة، فإن ضربة الإمام علي C يوم الخندق سوف ترجح عليها. وهذا وارد في مصادر أبناء العامة المتفق عليها والتي لا يقبلون مناقشة فيها.

أذكر لكم الرواية كما يروونها هم: وهو أنّ عمرو بن ود العامري وهو ثالث أبطال قريش كان قد قاتل يوم بدر، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ـ يحمل الراية ـ ليُرى مشهده، فلما وقف هو وخيله وعبروا الخندق، قال له علي: «يا عمرو، قد كنت تعاهد الله لقريش أن لا يدعوك رجل إلى خلتين إلاّ قبلت منه إحداهما».

فقال عمرو: أجل.

فقال علي: «أنا أدعوك لله U ولرسوله والإسلام».

فقال: لا حاجة لي بذلك.

فقال: «فإني أدعوك إلى البراز».

---

(١) أنظر: صحيح البخاري ٥: ٧٦؛ صحيح مسلم ٧: ١٢١.

قال: يا بن أخي لِمَ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك.

فقال علي C : «لكني والله أحب أن أقتلك».

فحمى عمرو بن عبد ود، فاقتحم عن فرسه فعقره، ثمّ أقبل فجاء إلى علي C وقال: من يبارز؟، فقال رسول الله 9 : «من يبرز له».

فقال علي وهو مقنّع في الحديد: «أنا له يا نبيّ الله».

فقال: «إنه عمرو بن عبد ود، اجلس يا علي»، مرة أخرى نادى عمرو: ألا رجل!؟

ولقد بححت من النداء ... لجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ وقف الشجاع ... مواقف القرن المناجز

مرة أخرى قال رسول الله: «من يبرز له؟» قال علي: «يا رسول الله أنا»، فأذن له رسول الله، فمشى إليه وهو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتاكَ ... مُجيب صوتك غير عاجز

ذو نبهةٍ وبصيرةٍ والصدقُ ... منجي كلّ فائز

إنّي لأرجو أن أُقيم ... عليك نائحة الجنائز

من ضربةٍ نجلاء يبقى ... ذِكرُها عند الهزائز

فقال له عمرو: من أنت؟

فقال: أنا عليّ.

قال: ابن من؟

فقال: ابن عبد مناف.

قال: عندك يا بن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فانصرف فإني أكره أن أريق دمك.

فقال علي: «ولكني والله ما أكره أن أريق دمك».

فغضب فنزل فسل سيفه كأنه شعلة نار، ثمّ أقبل نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في الدرقة فقدها فأثبت فيها السيف وأصاب السيف رأس علي فشجه، ولكن علي بادره وضربه على حبل العاتق فسقط وثار العجاج، فسمع رسول الله] التكبير، فعرف أن علياً قتله، ثمّ أقبل علي C نحو رسول الله 9 ووجهه يتهلل[1].

أعطى للإمام علي C هذا الوسام، حيث قال رسول الله 9 : «لضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[2].

وفي رواية أخرى: «لمبارزة علي لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة»[3].

٦ - الوسام الديني:

ليس هناك أكثر شرعية وحقانية من الإمام علي C ، إن أردتم المصدر التشريعي الصحيح والإمامة والسلطة القضائية الصحيحة فهي عند الإمام علي C ، هنا مصادر السُنّة يروون عدة أوسمة بهذا الخصوص:

مرة رسول الله 9 قال: «علي قسيم الجنّة والنار»[4].

ومرة يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي»[1].

---

(١) أنظر: المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٣.

(٢) أنظر: السيرة الحلبية ٢: ٦٤٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٢؛ كنز العمال ١١: ٦٢٣/ ٣٣٠٣٥.

(٤) تاريخ دمشق ٤٢: ٣٠١؛ ينابع المودّة ١: ١٧٤.

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٤؛ مجمع الزوائد ٩: ١٣٤.

و«علي مع الحق والحق مع علي»[١].

و«علـي بـاب علمـي، ومبـيّن لأمّتـي مـا أرسـلت بـه مـن بعـدي، حبّـه إيمان وبغضه نفاق، والنظر إليه رأفة، ومودته عبادة»[٢].

سأقرأ لكم بعض هذه الروايات في مستدرك الصحيحين.

عـن أبـي ثابـت مـولى أبـي ذر قـال: سـمعت رسـول الله 9 يقـول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[٣].

في كتاب (الصواعق المحرقة) يقول:

قـال رسـول الله 9 فـي مـرض موتـه: «أيهـا النـاس، يوشـك أن أُقـبض قبضـاً سـريعاً فينطلـق بـي، وقـد قـدمت إلـيكم القـول معـذرة إلـيكم: ألا إنـي مخلـف فـيكم كتـاب ربـي U، وعترتـي أهـل بيتـي»، ثـمّ أخـذ بيـد علـي C فرفعهـا وقـال: «هـذا علـي مع القـرآن والقـرآن مع علـي لا يفترقـان حتّـى يـردا عليَّ الحوض، فأسألهما ما خلفت فيهما»[٤].

فـي صـحيح الترمـذي قـال رسـول الله 9 : «رحـم الله عليـاً، اللهـم أدر الحق معه حيث دار»[٥].

ورووا أنه] قال: «علي مع الحق والحق مع علي، يدور حيثما دار»[١].

وروى مسـلم بسـنده عـن عـدي بـن ثابـت قـال: قـال علـي: «والـذي فلـق

(١) تاريخ دمشق ٤٢: ٤٤٩؛ تاريخ بغداد ١٤: ٣٢٢/ ٧٦٤٣.

(٢) كنز العمال ١١: ٦١٤/ ٣٢٩٨١؛ ينابيع المودة ٢: ٢٤٠/ ٦٧٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٤.

(٤) الصواعق المحرقة: ١٢٤.

(٥) سنن الترمذي ٥: ٢٩٧/ ٣٧٩٩.

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٩٧.

الحبـة وبـرأ النسـمة إنـه لعهـد النبـي الأُمّـي إلـيَّ أن لا يحبنـي إلاّ مـؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق»[١].

وروى الترمـذي بسـنده عـن أبـي سـعيد الخـدري قـال: إنّـا كنّـا لنعـرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببغضهم علي بن أبي طالب[٢].

«أيهـا النـاس قـدموا قريشـاً ولا تقـدموها وتعلمـوا منهـا ولا تعلموهـا»، ــ هـذا فـي كنـز العمـال، وهـو مـن مصـادرهم، ــ إلـى أن يقـول: «أيهـا النـاس أُوصـيكم بحـب ذي أقربهـا، أخـي وابـن عمّـي علـي بـن أبـي طالـب، فإنـه لا يحبـه إلاّ مـؤمن، ولا يبغضـه إلاّ منـافق، مـن أحبـه فقـد أحبنـي، ومـن أبغضـه فقد أبغضني، ومن أبغضني عذبه الله ﷻ»[٣].

٧ - الوسام الأُخروي:

إنـه لا يجـوز أحـد علـى الصـراط لا نبـي ولا وصـي ولا مـؤمن ولا ولـي إلاّ ومعـه صـك بولايتـه، الروايـة تقـول: قـال رسـول الله] : «إذا كـان يـوم القيامـة يقعـد علـي بـن أبـي طالـب علـى الفـردوس، وهـو جبـل قـد عـلا علـى الجنّـة، وفوقـه عـرش رب العـالمين، ومـن سـفحه تتفجـر أنهـار الجنّـة، وتتفـرق فـي الجنـان، وهـو جـالس علـى كرسـي مـن نـور يجـري بـين يديـه التسـنيم، لا يجـوز أحـد الصـراط إلاّ ومعـه بـراءة بولايتـه وولايـة أهـل بيتـه، يشرف على الجنّة، فيدخل محبيه الجنّة، ومبغضيه النار»[١].

---

(١) صحيح مسلم ١: ٦١.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٢٩٨/ ٣٨٠٠.

(٣) كنز العمّال ١٤: ٨١/ ٣٧٩٩٦.

(١) مناقب الخوارزمي: ٧١/ ٤٨.

وروى المتقي الهندي في كنز العمال أن رسول الله 9 قال: «يا علي، إني سألت ربي U فيك خمس خصال فأعطاني.

أما الأولى: فإني سألت ربي أن تنشق عني الأرض وانفض التراب عن رأسي وأنت معي، فأعطاني.

وأما الثانية: فسألته أن يوقفني عند كفة الميزان وأنت معي، فأعطاني.

وأما الثالثة: فسألته أن يجعلك حامل لوائي، وهو لواء الله الأكبر عليه المفلحون والفائزون بالجنّة، فأعطاني.

وأما الرابعة: فسألت ربي أن تسقي أُمّتي من حوضي، فأعطاني.

وأما الخامسة: فسألت ربي أن يجعلك قائد أُمّتي إلى الجنّة، فأعطاني»[١].

وهذا تاريخ الخطيب البغدادي يروي عن أنس بن مالك قال: لما حضرت وفاة أبي بكر، قال: سمعت رسول الله 9 يقول: «إنّ على الصراط لعقبة لا يجوزها أحد إلاّ بجواز من علي بن أبي طالب»[٢].

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) كنز العمال ١٣: ١٥٢/ ٣٦٤٧٦.

(٢) تاريخ بغداد ١٠: ٣٥٥.

المحاضرة السبعون:

إشكالات على قانون الشفاعة

«مَعْرِفَتِي يَا مَوْلايَ دَلِيلِي عَلَيْكَ، وَحُبِّي لَكَ شَفِيعِي إِلَيْكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذه الليلة عن الشفاعة.

الشفاعة مبدأ يجمع عليه رجال الفكر الإسلامي، من الشيعة أو السُنّة، لكن هناك ثلاثة إشكالات، وأنا بصدد أن أقرأ لكم مجموعة من النصوص والروايات الجليلة.

هناك ثلاثة إشكالات وشبهات على مبدأ الشفاعة.

الإشكال الأوّل: **تضارب وتعارض النص القرآني**:

حيث يقال: إن القرآن الكريم فيه آيات تنفي الشفاعة، وفيه آيات تثبت الشفاعة، فما هو الموقف منها؟

مثلاً القرآن الكريم يقول: **[**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**]**(1)، هذه الآية تنفي الشفاعة.

وهكذا قوله تعالى: **[**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**]**(2).

والآية الأخرى تقول: **[**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ**]**(3).

ومن ناحية ثانية نجد آيات كثيرة صريحة في وجود الشفاعة.

---

(1) الشعراء: ١٠٠ و١٠١.

(2) الدخان: ٤٠ و٤١.

(3) البقرة: ٢٥٤.

مثلاً: [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ] (١).

ومثلاً: [لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً] (٢).

ومثلاً: [وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى] (٣)، إذن هناك شفاعة، الملائكة يشفعون، لكن ذلك مشروط بالإذن الإلهي.

وهكذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: [وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ] (٤).

كيف نفسّر الموقف القرآني مع وجود هذا التضارب في مدلول الآيات؟

هذا هو الإشكال الأوّل.

وجوابه: أنه نحن لدينا في التفسير قاعدة اسمها: (قاعدة تفسير القرآن بالقرآن)، يعني أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً، مثل أيّ كتاب من الكتب، الفصل الثاني يفسر الفصل الأوّل ويشرحه أكثر، نأخذ آية واحدة ونبحث عن الآيات الأخرى المرتبطة بنفس الموضوع، حتّى نكوّن النظرية الكاملة، ولا يمكن أن نأخذ صفحة واحدة من كتاب من كتب الكيمياء أو الفيزياء أو الطب ونحاول أن نكوّن فهماً كاملاً من خلال تلك الصفحة فقط، لا يمكن ذلك، بل نكوّن النظرية الكاملة من مجموعة صفحات، هذا هو معنى أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) مريم: ٨٧ .

(٣) النجم: ٢٦.

(٤) الأنبياء: ٢٦ - ٢٨.

القرآن الكريم يقول: [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ][١]، لكن هناك آية أخرى تقول: [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ][٢]، نجمع بين الآيتين، ستظهر لنا نظرية، وهي أن النظر إلى الله يوم القيامة لا يعني النظر بهذه العين؛ لأنه [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ]، وإنما [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ] تعني النظر إلى تجلّيات ربها، إلى رحمة ربها، وهذا معناه أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وحينئذٍ حينما نأتي إلى آيات تقول: لا توجد شفاعة، وآيات أخرى تقول: توجد شفاعة، فإن هذه الآيات لو رتبناها واحدة بعد الأخرى، ستتكوّن لنا نظرية واضحة طبيعية وجميلة، وخلاصة النظرية ما يلي:

أوّلاً: لا توجد شفاعة مفروضة على الله تعالى، وحتّى الأنبياء، إلاّ بإذنه تعالى.

ثانياً: أن هذه الشفاعة ليست مطلقة، بل هي خاصة بالمؤمنين الذين رضي الله دينهم، وهو معنى قوله: [وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى][٣]، أما الناس الذين فشلوا في امتحان الحياة الدنيا وكانوا كافرين فلا تنالهم الشفاعة، إذن هناك حقل مخصوص للشفاعة.

ثالثاً: ليس كل الناس يَشفعون، بل [إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً][٤]، الذين يشفعون هم أولئك الذين يملكون ارتباطاً مع الله، وبينهم وبين الله علاقة خاصة.

---

(١) القيامة: ٢٢ و٢٣.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) الأنبياء: ٢٨.
(٤) مريم: ٨٧.

إذن هناك يوم القيامة شفاعة مشروطة بثلاثة شروط، كما ذكرناها، ولهذا فإن المؤرخين والباحثين من السُنّة والشيعة يقولون: نحن ليس لدينا شكّ في الشفاعة، لأن هناك حديث إجماعي عن رسول الله 9 يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي»(١).

أبو نواس لما نزل به الموت، قال له أحد أصحابه: يا أبا نواس، أنت في آخر يوم من أيام الدنيا، وأوّل يوم من أيام الآخرة، وبينك وبين الله هنات، فتب إلى الله ﷻ.

فقال أبو نواس: أسندوني، فلما استوى جالساً قال: إيّاي تخوّف بالله؟ سمعت من حدّثني عن رسول الله 9 قال: «لكل نبي شفاعة، وإني خبّأت شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي»، أفترى أن لا أكون منهم(٢)؟! يعني أنا أعرف أني من أهل الكبائر، ولكنني مشمول بهذا الحديث، إذن فإن مبدأ الشفاعة إجماعي، وهذا هو الإشكال الأوّل في تعارض النص القرآني وجوابه.

الإشكال الثاني: إن الشفاعة تعطي جرأة للناس على المعاصي:

الجواب: إن هذه شبهة سيّالة، فإن قلت: الله كريم، تأتي هذه الشبهة. وإذا قلت: الله أرحم الراحمين، فكذلك. وإذا قلت: إن الله فتح باب التوبة، فكذلك تأتي هذه الشبهة. ولهذا فإن الدعاء يقول: «إلهي يحملني ويجرئني على معصيتك حلمك عني»، وهذا صحيح، حلم الله بالعباد يعطي جرأة للعباد بالعصيان، «ويسرعني إلى التوثّب على

---

(١) أنظر: أمالي الصدوق: ٥٦/ ١١/ ٤؛ مسند أحمد ٣: ٢١٣.

(٢) أمالي الطوسي: ٣٨٠/ ٦١٥/ ٦٦.

محارمك، ستر ك عليَّ»[١]، وهذا صحيح أيضاً، فهل يسمح لنا ذلك أن نقول: إن الله ليس أرحم الراحمين، وليس ستاراً للعيوب، ولا غافراً للذنوب، الحقيقة أن هذه المفاهيم: الشفاعة، التوبة، المغفرة، الاستجابة هي مدعاة للأمل والعمل، وهذا جزء مهم في التربية الإسلاميّة، حتّى لا يصل الإنسان إلى حدّ اليأس، الإسلام يعطينا مفاهيم تزرع لدى الإنسان حالة الأمل بالله تبارك وتعالى، وإذا صار لدى الإنسان أمل بالنجاح فسوف يصبح لديه عمل نحو النجاح، هذا هو الإشكال الثاني وجوابه.

الإشكال الثالث: إن الشفاعة هي مبدأ شكلي:

لأن هؤلاء الناس الذين يريد النبي والإمام ـ مثلاً ـ أن يشفع لهم عند الله تعالى، هؤلاء إما أن الله تعالى راض عنهم، فهم لا يحتاجون شفاعة، أو غير راض عنهم فهؤلاء لا تفيد معهم الشفاعة، إذن هي أمر شكلي؛ لأن الله تعالى إذا كان راض عن الناس فإنه يدخلهم الجنّة بإرادته وليس بإرادة النبي أو الإمام، هذه الشبهة الثالثة.

الجواب: إن هذه الشبهة أيضاً غير صحيحة، في القانون الإلهي أبى الله إلاّ أن تجري الأمور بأسبابها في الدنيا، كذلك في الآخرة جعل أسباباً للرحمة وأسباباً للهداية، وهذه أسباب حقيقية، الأنبياء G ما هو عملهم؟ هداية البشر. هل نستطيع أن نقول: إن الله إما أن يريد هداية البشر، أو لا يريد؟ فإن أراد هدايتهم هداهم، وإن لم يرد هدايتهم لا تنفعهم دعوة النبي. وهذا الشاب إما أن الله يريد أن يرزقه أو لا، فإذا كان يريد رزقه إذن لا ضرورة للعمل، وإذا كان لا يريد أن يرزقه فلا ينفع

---

(١) من دعاء السحر للإمام زين العابدين C . إقبال الأعمال ١: ١٦٠.

العمل. هذا كلام غير صحيح؛ لأن الله يريد أن يرزقه، لكن عبر الأسباب الطبيعية، الله يريد أن يهديه، لكن عبر الأسباب، وكذلك يوم القيامة، الله يريد أن يدخله الجنّة لكن عبر الوسطاء، وحتّى يكون لهم دور في الدنيا، حتّى نعتمدهم في الآخرة، هؤلاء هم الأنبياء G .

هذه مجموعة شبهات ضد مبدأ الشفاعة.

من هم الشفعاء؟

النظرية الإسلاميّة بشكل عام تقول: الشفعاء هم الأنبياء والأئمّة G ، العلماء، الشهداء، الصالحون، يعني أنت إذا كنت من أهل الجنّة تكون شفيعاً لأبويك، شفيعاً لأولادك، شفيعاً لزوجتك، الزوجة تكون شفيعة لزوجها، كل من يرضى الله تعالى عنه، يتفضل عليه، ويقول له: تشفَّع فيمن تحب، فمثلما كنت تهدي الناس إلى الله في الدنيا، اهدهم اليوم إلى الجنّة. هذا هو المبدأ العام.

روايات كثيرة عن شفاعة النبي 9 ، عن شفاعة الأئمّة G ، شفاعة الزهراء J ، شفاعة الشيعة واحداً واحداً، الشيعة يشفعون أيضاً، أنا أقرأ لكم بعض الروايات.

هذه رواية جميلة عن الإمام الباقر C :

«إذا كان يوم القيامة، جمع الله الناس في صعيد واحد من الأوّلين والآخرين، عراة حفاة، فيوقفون على طريق المحشر، حتّى يعرقوا عرقاً شديداً، وتشتد أنفاسهم، فيمكثون كذلك ما شاء الله، ثمّ ينادي المنادي: أين النبي الأُمّي؟ فينادي: أين نبي الرحمة محمّد بن عبد الله 9 ؟ فيقوم رسول الله ويتقدم أمام الناس كلهم، حتّى ينتهي إلى حوض طوله ما بين

إيلة وصنعاء ـ ما بين الحجاز واليمن ـ فيقف عليه، ثمّ ينادي بصاحبكم ـ يعني أمير المؤمنين C ـ فيقوم أمام الناس فيقف معه، ثمّ يؤذن للناس فيمرون».

قال إمامنا الباقر C : «فبين وارد وبين مصروف ـ يعني لا يُسقى ماءً ـ فإذا رأى رسول الله 9 مَن يُصرف عنه من محبينا أهل البيت G ، بكى، فيقول: يا رب، شيعة علي.

قال: فيبعث الله إليه مَلَكاً، فيقول: ما يبكيك يا محمّد؟

فيقول: وكيف لا أبكي لأُناس من شيعة أخي علي بن أبي طالب أراهم قد صُرفوا تلقاء أصحاب النار، ومنعوا من ورود حوضي.

قال: فيقول الله U: يا محمّد، إني قد وهبتهم لك، وصفحت لك عن ذنوبهم، وألحقتهم بك وبمن كانوا يتلون من ذريتهم، وجعلتهم في زمرتك، وأورثتهم حوضك، وقبلت شفاعتك فيهم».

قال أبو جعفر C : «فكم من باك يومئذٍ، وكم من باكية ينادون: يا محمّداه، إذا رأوا ذلك».

قال C : «فلا يبقى أحد يومئذٍ كان يتولاّنا ويحبّنا إلاّ كان في حزبنا ومعنا وورد حوضنا»[١].

أقرأ لكم رواية أخرى في شفاعة الأنبياء G .

الرواية عن أنس بن مالك عن رسول الله 9 قال: «لكل نبي دعوة قد دعا بها وقد سأل سؤالاً، وقد خبّأت دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة»[٢].

---

(١) أمالي الطوسي: ٦٧/ ٩٧/ ٦.

(٢) بحار الأنوار ٨ : ٣٤.

قـــال رســـول الله 9 : «ثلاثـــة يشـــفعون إلـــى الله U، فيشـــفعون، الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»[١].

إلى جانب ذلك تقول الروايات الصحيحة: إن كل من كان من أهل الجنّة، يشفع في أهل بيته، حتّى فقراء الشيعة، الرواية عن رسول الله 9 تقول: «لا تستخفوا بفقراء شيعة علي وعترته من بعده، فإن الرجل منهم يشفع لمثل ربيعة ومضر»[٢]. يعني ربيعة ومضر أكبر العشائر في الجزيرة العربية.

أقرأ لكم رواية عن النبي 9 تقول: «كأني أنظر إلى ابنتي فاطمة وقد أقبلت يوم القيامة على نجيب من نور ـ يعني فرس ـ، عن يمينها سبعون ألف مَلَك، وعن يسارها سبعون ألف مَلَك، وبين يديها سبعون ألف مَلَك، وخلفها سبعون ألف مَلَك، تقود مؤمنات أُمّتي إلى الجنّة. فأيما امرأة صلَّت في اليوم والليلة خمس صلوات، وصامت شهر رمضان، وحجت بيت الله الحرام، وزكّت مالها، وأطاعت زوجها، ووالت علياً بعدي، دخلت الجنّة بشفاعة ابنتي فاطمة وإنها لسيدة نساء العالمين»[٣].

وهذه أيضاً رواية جميلة سأقرأها عليكم.

تقول الرواية: «إن للجنّة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: رب سلّم شيعتي، ومحبيي، وأنصاري، ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش، قد أُجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك. ويشفع

---

(١) الخصال: ١٥٦/ ١٩٧.

(٢) بحار الأنوار ٨ : ٥٩.

(٣) أمالي الصدوق: ٥٧٤/ ٧٨٧/ ١٨.

كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني، وحارب من حاربني، بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه»[(١)].

الرواية تقول أيضاً، عن رسول الله 9 قال: «ما من أهل بيت يدخل واحد منهم الجنّة، إلاّ دخلوا أجمعين الجنّة».

قيل: وكيف ذلك؟

قال: «يشفع فيهم فيشفَّع، حتّى يبقى الخادم، فيقول: يا رب خويدمتي ـ يعني خادمي أو خادمتي وهو تصغير ـ قد كانت تقيني الحر والقر، فيشفع فيها»[(٢)].

المحرومون من الشفاعة:

هناك مجموعة من الناس لا تنالهم شفاعة، أنا أذكر أربعة أنواع منهم:

١ ـ الكافرون لا تنالهم شفاعة، يقول القرآن الكريم: [إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً][(٣)]، و[إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى][(٤)]، وهذا لم يرتضى الله دينه، فليس له شفاعة، وذلك هو الكافر المقصّر.

٢ ـ الناصبي، وهو العدو لأهل البيت G ، فإن أكثر من رواية تقول: إن الناصبي ليس له شفاعة.

الرواية عن الإمام الصادق C : «إن الجار يشفع لجاره، والحميم

(١) الخصال: ٤٠٨/ باب الثمانية/ ٦.
(٢) الاختصاص: ١١١.
(٣) مريم: ٨٧ .
(٤) الأنبياء: ٢٨.

لحميمه، ولو أن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، شفعوا في ناصب ما شفعوا»[١]، ليس له شفاعة.

٣ _ المستخف بالصلاة ليس له شفاعة، ولهذا فإن الإمام الصادق C يقول: «لا تنال شفاعتنا مستخفاً بالصلاة»[٢]، القرآن الكريم هكذا يقول: [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ][٣]. هؤلاء ليسوا لأنهم لا يصلون فقط بل وغير مؤمنين. فإذا كان عندهم إيمان أيضاً تشملهم الشفاعة، لأن رسول الله 9 يقول: «ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي»، ولا يبقى موحّد يؤمن بالله ورسوله إلاّ وخرج من النار ودخل الجنّة [مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ][٤].

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) بحار الأنوار ٨: ٤٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٦/ ٦١٨.

(٣) المدثر: ٣٨ - ٤٣.

(٤) المدثر: ٤٢ - ٤٨.

المحاضرة الحادية والسبعون:

بحث في أشراط الساعة

«أبْكِـي لِخُرُوجِـي مِـنْ قَبْـري عُرْيَانـاً ذَلِـيلاً حَـامِلاً ثِقْلِـي عَلَى ظَهْري أنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يَمِيني وأُخْرَى عَنْ شِمَالِي».

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا هذه الليلة في عنوان مهم في الفكر الديني، هو (أشراط الساعة)، إنطلاقاً مما نقرؤه في دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام السجاد C ، حين يقول: «أبكي لخروج نفسي...»، إلى أن يقول: «أبكي لخروجي من قبري».

الخروج من القبر عند قيام الساعة:

الفكر الديني لديه مفهوم الساعة، ولديه مفهوم علامات الساعة، [اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ][1]، ويقول تعالى: [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ][2]، والأشراط هي العلامات.

الساعة وأشراط الساعة:

هذا عنوان خاص في كتب الحديث، (أشراط الساعة) ليس بمعنى شروط الساعة، وإنما بمعنى علامات الساعة، وأشراط جمع شَرَط، والشَرَط ـ بفتح الشين والراء ـ يعني العلامة، وهي غير الشَرْط ـ بسكون الراء ـ، القرآن الكريم في آية واحدة يعطينا عنواناً عريضاً اسمه (أشراط الساعة)، جاء هذا في القرآن الكريم في آية واحدة وبدون تفاصيل، لكن توجد علامات مذكورة في القرآن الكريم نستطيع أن نصنفها إلى نوعين من العلامات، هما:

---

(١) القمر: ١.

(٢) الزخرف: ٦٦.

١ _ علامات مؤكّدة.

٢ _ علامات غير مؤكّدة.

القرآن الكريم يقول: [فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ][1]، الساعة قد جاءت واقتربت أشراطها وعلاماتها، وعندنا مجموعة من الروايات، وكذلك لدينا سيل من الأساطير والخرافات وما دخل في متون الحديث من أمور لا يمكن قبولها، وإنما سطّرها القصاصون.

أما القرآن الكريم ففيه علامات أكيدة تؤيّدها النصوص، وفيه أيضاً علامات ظنّية تؤيدها بعض النصوص وليست أكيدة، وأما ما بقي من العلامات وأشراط الساعة فلا يمكن التصديق بها، ولا يوجد عليها دليل ثابت.

وهناك سؤال مهم:

ما هي علامات الساعة؟

وكما تعلمون أن الساعة لها مبتدأ، ولها منتهى، القرآن الكريم يقول هي ساعة واحدة، لكن مرة يتحدّث عن بدايتها، ومرة يتحدّث عن نهايتها.

ابتداء الساعة بالنفخة الأولى، [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ][2]، هذه ساعة، ثمّ لدينا الساعة الكبرى، [ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ][3]، يعني قيام الساعة، حيث يُفنى من في السماوات ومن في الأرض،

(١) محمّد: ١٨.

(٢) الزمر: ٦٨.

(٣) الآية السابقة.

هذه بداية، فيمكثون دهوراً، الروايات تقول: دهوراً،[١] ثمّ بعد تلك الدهور، [ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى]، يعني في الصور، وهذه أمور رمزية.

الصور هنا إشارة إلى أداة الصوت، يومئذٍ لا يوجد عند العرب أدوات للصوت، ليس لديهم إلاّ البوق، وهو عبارة عن قِرْن ثور مفتوح من الجانبين، القرآن الكريم يقول الصور هو أداة مكبرة للصوت، [ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ]، وفي آية أخرى: [فَإِذا هُم جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ][٢]، وفي آية أخرى: [فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ][٣].

حديثنا اليوم عن علامات البداية، وهي الساعة الأولى التي يموت فيها من في السماوات والأرض. لا عن علامات النهاية، وإنما علامات بدء القيامة، يعني نهاية هذا الوجود، ما هي علاماته؟

هناك علامات قرآنية، ولكن قبل أن نصل إلى هذه العلامات القرآن يجب أن نذكر عِدّة مفاهيم:

---

(١) عن هشام بن الحكم ، عن الصادق C في حديث طويل أنه سُئِل: أفيبلى شيء من الروح بعد خروجه عن قالبه، أم هو باق؟ قال: «بل هو باق إلى يوم ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس يبقى ولا محسوس، ثمّ أعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها، وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق، وذلك بين النفختين». أنظر: الاحتجاج ٢: ٩٧؛ عنه المجلسي في بحار الأنوار ٦: ٣٣٠، وقال بعد إيراده الخبر:

بيان: هذا الخبر يدل على فناء الأشياء وانعدامها بعد نفخ الصور، وعلى أن الزمان أمر مرهوم (أي: مستديم)، وإلاّ فلا يمكن تقديره بأربعمائة سنة بعد فناء الأفلاك، ويمكن أن يكون المراد ما سوى الأفلاك، أو ما سوى فلك واحد يتقدّر به الأزمان. انتهى.

وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون». وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام، وقيل: لا يُعلم أهي أربعون سنة، أو أربعون ألف سنة. أنظر: تفسير أبي السعود ٧: ٦٦.

(٢) يس: ٥٣.

(٣) يس: ٥١.

مفاهيم في الساعة:

المفهوم الأوّل: إن الساعة أصبحت قريبة، ومنذ أن بعث نبينا 9 ، حيث يقول القرآن الكريم: **[اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ]**[١]، يعني أنتم تعيشون على مقربة من نهاية الوجود، وربما ليس مقربة بمقاساتنا البشرية، ولكن بما هو عند الله تعالى، فإن ألف سنة والألفين سنة عند الله لا شيء، ولكن اقتربت الساعة بالمقاسات الإلهية.

المفهوم الديني أيضاً يقول: إن الزمان الذي نعيش فيه هو آخر الزمان، حيث يعتبر زمن آدم هو بداية الزمان، وزمن نبينا 9 يعتبر آخر الزمان، ولهذا فإن إبراهيم قال: **[وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ]**[٢]، والآخرين هم من يأتون آخر الزمان، محمّد وعلي H .

المفهوم الثاني: وقت الساعة مجهول لا يعلمه إلاّ الله: **[لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ]**[٣]، وحتّى النبي 9 وجبرائيل والملائكة لا يعلمون وقتها.

سُئِل رسول الله 9 عن قيام الساعة؟ فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[٤]. **[يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها]**[١]، وفي آية أخرى: **[قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي]**[٢]، الأمر هنا

---

(١) القمر: ١.

(٢) الشعراء: ٨٤ .

(٣) الأعراف: ١٨٧.

(٤) أنظر: بحار الأنوار ٥٦: ٢٦١. وفيه: أن السائل كان جبرئيل، جاءه على هيأة رجل عليه ثياب السفر، فتخلل الناس وجلس بين يديه يسأله عن الإسلام، فكان آخر ما سأله أن قال: يا رسول الله، متى الساعة؟...

(١) النازعات: ٤٢ و٤٣.

(٢) الأعراف: ١٨٧.

محسوم، لا يمكن لكشف نبوي، غيبي، ملكوتي، ولا يمكن لكشف مادي جغرافي فلكي أن يحدد لنا نهاية الوجود الكوني.

علامات لقيام الساعة:

المفهوم الثالث: هناك علامات لبدء الساعة، والقرآن الكريم يشير إلى هذه القضية، أن هناك علامات، وهذه العلامات تتحقق، وبعدها تقوم الساعة، ربما بألف سنة، أو بعشرة آلاف سنة، فذاك أمر غير معلوم، وأن كل هذا في الحقبة الزمنية الأخيرة للوجود الكوني، القرآن الكريم يقول: **[**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**]**(١).

السؤال الآن: ما هي تلك الآيات؟

القرآن والروايات الصحيحة تعطينا عِدّة علامات أكيدة، وهناك آيات قرآنية تعطينا علامات يختلف فيها المفسرون؛ هل هي علامة، أو هي إشارة إلى مدلول آخر؟

أقرأ لكم بعض العلامات:

العلامة الأولى: بعثة النبي 9 :

يقول رسول الله 9 : «بُعثت أنا والساعة كهاتين ــ وجمع بين سبّابتيه ــ»(١)، يعني نحن على الحافّة الأخيرة من بدء الساعة، فالساعة لا تقوم إلاّ بعد أن يُبعث نبينا، وقد بُعث نبينا.

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

(١) أمالي المفيد: ٢١١/ المجلس: ٢٤/ ١.

العلامة الثانية: ظهور المهدي C :

فقد ثبت عند الفريقين بروايات صحيحة معتبرة عن رسول الله 9 : «لو لم يبْقَ من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجل من ولدي، (أو: من أهل بيتي) يواطئ اسمه اسمي، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً»[١]، والمهدي عند الشيعة الإمامية هو (محمّد بن الحسن العسكري H)، وكذلك عند بعض أعلام السُنّة، حيث صرّحوا بولادته، وأنه المهدي المنتظر الذي بشّر به النبي 9 [٢].

---

(١) الأحاديث في ذلك كثيرة، وإن اختلفت في الألفاظ، إلاّ أنها متّحدة المعنى. أنظر: غيبة الطوسي: ٤٢٥/ ٤١٠؛ سنن الترمذي ٣: ٣٤٣/ باب ما جاء في المهدي/ ٢٣٣١ و٢٣٣٢؛ الفصول المهمّة لابن الصباغ المالكي: ٢/ ١١٠٩.

(٢) **منهم**: العلاّمة كمال الدين محمّد بن طلحة الشامي الشافعي في (مطالب السؤول: ٨٩/ ط طهران)؛ **ومنهم**: ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١: ٥٧١/ ط بولاق بمصر)؛ **ومنهم**: سبط ابن الجوزي في (تذكرة الخواص: ٢٠٤/ ط طهران)؛ **ومنهم**: ابن الصباغ المصري في (الفصول المهمّة: ٢٧٤/ ط الغري)؛ **ومنهم**: المولوي محمّد مبين الهندي في (وسيلة النجاة: ٤٢٠/ ط مطبعة گلشن فيض في لكهنو)؛ **ومنهم**: ابن حجر الهيتمي في (الصواعق: ١٢٤/ ط مصر)؛ **ومنهم**: الشيخ عثمان العثماني في (تاريخ الإسلام والرجال: ٣٧٠/ مخطوط)؛ **ومنهم**: الحمزواي في (مشارق الأنوار: ١٥٣/ ط مصر)؛ **ومنهم**: عبد الرحمن بن محمّد بن حسين بن عمر باعلوي مفتي الديار الحضرمية في كتابه (بغية المسترشدين: ٢٩٦/ طبع مصر)؛ **ومنهم**: الشيخ عبد الله بن محمّد بن عامر الشبراوي الشافعي المصري في كتابه (الإتحاف بحب الأشراف: ٦٨/ ط مصر)؛ **ومنهم**: عبد الرحمن من مشايخ الصوفية في (مرآة الأسرار: ٣١)؛ **ومنهم**: السيد عبّاس بن علي المكّي في (نزهة الجليس ٢: ١٢٨/ ط القاهرة)؛ **ومنهم**: القندوزي في (ينابيع المودة ٣: ١١٣/ ط العرفان بيروت)؛ **ومنهم**: الأبياري في (جالية الكدر في شرح منظومة البرزنجي: ٢٠٧/ ط مصر)؛ **ومنهم**: البدخشي في (مفتاح النجا: ١٨٩/ مخطوط)؛ **ومنهم**: نور الدين عبد الرحمن الدشتي الجامي الحنفي في (شواهد النبوة: ٢١/ ط بغداد)؛ **ومنهم**: محمّد مبين المولوي الهندي في (وسيلة النجاة: ٤١٧/ ط گلشن فيض بلكهنو)؛ **ومنهم**: محمد خواجة پارساي البخاري في (فصل الخطاب) على ما في (ينابيع المودة: ٣٨٧/ ط إسلامبول). أنظر: شرح إحقاق الحق ١٣: ٨٧ - ٩٧.

وعند بعضهم أن المهدي هو من ذرية رسول الله 9 ، وأن خروجه قبل قيام الساعة أمر أكيد، ولكنهم يقولون أنهم لا يعلمون من هو.

العلامة الثالثة: نزول عيسى C من السماء:

نحن نتفق على أن عيسى C لم يُقتل ولم يُصلب، [وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ][(١)]، وعيسى C بحسب نظريتنا القرآنية مرفوع عند الله تعالى، وهذه الفكرة متقاربة كثيراً مع فكرة غيبة إمام زماننا، وهناك إجماع لدى المسلمين أن عيسى C يَظهر وينزل من السماء، وتقول روايات الشيعة والسُنّة أنه يظهر ويصلي خلف المهدي الذي هو من آل محمّد.[(٢)] وهذه العلامة يشير إليها القرآن بشكل يثير الانتباه حيث يقول: [وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ][(٣)]، يعني أن عيسى C لم يُقتل ولم يمت، وجميع النصارى قبل أن يموت عيسى C سيؤمنون به، وذلك حينما ينزل ويظهر لهم، فيؤمنون به جميعاً ثمّ يموت[(٤)].

وفي آية ثانية: [وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ][(٥)]، حيث يقول المفسرون في معنى الآية أن المقصود هو أن عيسى C علامة للساعة.

أما سُنَّة رسول الله 9 فقد ورد فيها قوله: «والذي نفسي بيده، إن مهدي هذه الأمّة الذي يصلي خلفه عيسى منّا»[(١)].

---

(١) النساء: ١٥٧.

(٢) أنظر: غيبة الطوسي: ٧٩؛ ينابيع المودة ٢: ٨١؛ مسند أحمد ٣: ٣٦٨.

(٣) النساء: ١٥٩.

(٤) راجع: تفسير مجمع البيان ٣: ٢٣٥؛ تفسير الطبري ٦: ٢٥.

(٥) راجع: تفسير جامع الجوامع ٣: ٣١٢؛ تفسير مجاهد ٢: ٥٨٣.

(١) دلائل الإمامة: ٤٤٣/ ٤١٦/ ٢٠، ونحوه في: ينابيع المودة ١: ٢٤١.

العلامة الرابعة: الانهيار الأخلاقي الكبير:

الروايات تقول: لا تقوم الساعة حتّى يشهد المجتمع البشري سقوطاً أخلاقياً عالمياً عجيباً، والروايات بأشكال شتى وعبارات شتى، لكنها تجتمع في التأكيد على حدوث سقوط أخلاقي، في زماننا هذا نرى هذا السقوط الأخلاقي.

الرواية تقول: «إن من أشراط الساعة إضاعة الصلاة، واتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء، مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره»(١). اليوم العالم يضج من الانحراف الأخلاقي العالمي.

علامات غير مؤكّدة:

وهناك لدينا علامات غير مؤكّدة جاءت الإشارة إليها في القرآن الكريم:

العلامة الأولى: دابة الأرض:

القرآن الكريم يقول في هذه العلامة: **[وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ]**(٢)، والروايات في وصف هذه الدابة كثيرة ومتعددة ومتنوعة يطول شرحها، وتقول بعض رواياتنا: أن الدابة هي علي C ، الذي يخرج في آخر الزمان في عالم الرجعة، ومعه ميسم يَسِمُ به أعدائه ــ أي يضع عليهم علامة يُعرفون بها ــ(١).

---

(١) بحار الأنوار ٦: ٣٠٦.

(٢) النمل: ٨٢ .

(١) عن أبي عبد الله C قال: «انتهى رسول الله 9 إلى أمير المؤمنين C وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه، فحركه برجله، ثمّ قال له: قم يا دابة الله»، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، أيسمى بعضنا بعضاً بهذا الاسم؟ \

وفي قراءة أخرى: (تَكلِمُهم) ـ بفتح التاء وتخفيف اللاّم ـ، تَسِمَهم[(١)].

القرطبي في تفسيره يذكر تفسيراً آخر عن بعض المفسرين: أن الدابة شخص يخرج يناظر أهل البدع والكفر، ويجادلهم لينقطعوا، فيهلَك من هلَكَ عن بيّنة، ويحيا من حيي عن بيّنة[(٢)].

هذه مجموعة تفاسير، وكلّها غير يقينية.

العلامة الثانية: الدخان:

الدخان الذي يملأ السماء، كما يقول تعالى: **[يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ]**[(٣)].

إنّ كتب الرواة والحديث تذكر أن من أشراط الساعة ظهور دخان عظيم يملأ السماء[(٤)].

ونحن الليلة نريد أن نناقش هذه العلامة وفق النص القرآني.

لاحظوا هذه العلامة جاءت في آية في سورة الدخان، هكذا تقول: **[فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ]**[(١)] فالناس يفزعون من هذا الدخان وتراكمه في السماء، في كل

[فقال: «لا والله ما هو إلاّ له خاصة وهو الدابة التي ذكر الله في كتابه **[وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ]**»، ثمّ قال: «يا علي، إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك» أنظر: تفسير القمي ٢: ١٣٠؛ بحار الأنوار ٣٩: ٢٤٣.

(١) راجع: تفسير الطبري ٢٠: ٢٠؛ تفسير الثعلبي ٧: ٢٢٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٣: ٢٣٦.

(٣) الدخان: ١٠.

(٤) أنظر: تفسير القمي ٢: ٢٩٠؛ جامع البيان ٢٥: ١٤٦.

(١) الدخان: ١٠ و١١.

الدنيا، الناس يعرفون أن هذا عذاب، ويقولون بلسان حالهم: [رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ][(١)]، يأتي الجواب: [أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ][(٢)]، مع ذلك فإن الله تعالى يقول: [إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ][(٣)].

هذه الآية كانت هي الأصل لفكرة الدخان، باعتباره من علامات الساعة. الفكرة جاءت من هذه الآية، ثمّ جاءت روايات في نفس السياق، لكن أصل النص القرآني هو هذا، وهذا النص إذا قلَّبناه يميناً وشمالاً، نجد أنه يحتمل تفسيرين، كما يذكر ذلك المفسرون:

التفسير الأوّل: أن هذه الآية ليست ناظرة إلى قيام الساعة، وإنما الآية ناظرة إلى واقعة حدثت في زمن قريش، حيث إن رسول الله 9 دعا عليهم، فتلبَّدت السماء بغيوم دخانية مخيفة، فجاءوا إلى رسول الله 9 وقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك رَحِم، الله الله في الرحم، ادع الله ليكشف هذا الدخان، فدعا رسول الله 9 فكشف عنهم الدخان، ومع ذلك هو يدري أنهم سيعودون مرة أخرى إلى المعصية، واستجاب الله تعالى دعاءه، فأمهلهم من حين نزول هذه الآية في مكّة المكرمة وإلى أن انتقل النبي إلى المدينة، وقد ظهرت آثار العقوبة في معركة بدر، القرآن يشير إلى ذلك حسب التفسير الأوّل، يقول: [إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ]، لكن انتظروا [يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى] في بدر،

(١) الدخان: ١٢.
(٢) الدخان: ١٣ و١٤.
(٣) الدخان: ١٥ و١٦.

حينئـذٍ سـتندمون بعـد أن تعرفـوا أن أبطـالكم قـد جُنـدلوا صـرعى، [إِنَّـا مُنْتَقِمُـونَ]، هـذا هـو التفسير الأوّل للآيـة، حيـث لا ربـط لهـا بعلامـات السـاعة، وإنمـا إشـارة إلـى أن الحـدث تـأريخي، حيـث دعـا علـيهم رسـول الله 9 قائلاً: «اللهم سنين كسني يوسف»، فجاء ذلك الدخان[١].

التفسـير الثـاني يقـول: إن هـذه الآيـة نـاظرة إلـى علامـة مـن علامـات السـاعة، وحيـث سـيحدث حَـدثٌ عـالمي قبـل قيـام السـاعة، وهـو الـدخان السـماوي، هـذا هـو التفسـير الأشـهر الـذي تكوَّنـت حولـه رؤيـة كاملـة تقـول إن أحـد علامـات السـاعة هـو الـدخان، فالتفسـير الثـاني يقـول _ مستشـهداً بروايـات عديـدة _ دخـان يَـدخل أسـماع الكـافرين كلَّهـم، ويصـيب المـؤمن منـه مثـل الزكمـة، هـذا الـدخان ينـزل بمثابـة وبـاء سـماوي يبيـد الكـافرين، ولا يصـيب المـؤمنين إلاّ كمثـل الزكمـة، وتكـون الأرض كبيـت أوقـد فيـه لـيس فيه فرجة[٢].

فـي ضـوء هـذا التفسـير تكـون الآيـة إشـارة إلـى ملحمـة سـتحدث قبـل السـاعة، ولهـذا فهـم يعتبـرون هـذه الآيـة مـن آيـات الملاحـم، آيـات الملاحـم هـي التـي تتحـدّث عـن الآيـات الكبـرى الكونيـة العالميـة التـي سـتظهر، ومـن جملتهـا الـدخان، فيظهـر قبـل قيـام القيامـة وفـق هـذه الآيـة. وهـذا ينسـجم مـع مـا تشـير إليـه الآيـات القرآنيـة التـي تتحـدّث عـن ظـاهرة الانهيـار الكـوني، مثـل: [إِذَا الشَّـمْسُ كُـوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُـومُ انْكَـدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَـالُ سُـيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَـارُ عُطِّلَـتْ * وَإِذَا الْوُحُـوشُ حُشِـرَتْ * وَإِذَا الْبِحَـارُ سُـجِّرَتْ * وَإِذَا

---

(١) أنظر: تفسير مجمع البيان ٩: ١٠٤.

(٢) المصدر السابق.

النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ] (١)، هناك انهيار ينسجم مع ظاهرة دخان يملأ السماوات والأرض.

العلامة الثانية: ظهور يأجوج ومأجوج:

هذه الفكرة قرآنية، وليست فقط في الروايات، فلننظر من أين جاءت؟

فقبل قيام الساعة يظهر قوم اسمهم قوم يأجوج مأجوج من كل حَدَب ينسلون، مَنْ هم هؤلاء الأقوام؟ ومن أين أتت هذه الفكرة؟

الفكرة أتت من آيتين قرآنيّتين، ثمّ نُسجت حولها عشرات الروايات، لعلَّ أكثرها مفتعلة ومجعولة، رغم أن أصل الفكرة قد تكون صحيحة. لكن ليس بهكذا أساطير متضاربة بعضها مع البعض الآخر، والتي لا يمكن الوثوق بها جميعاً.

ماذا يقول القرآن؟ يقول: [حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ]، يبدو أنها مدن عملاقة، لم تُفتح من قبل، وسوف تفتح فيما بعد، كما حدث في اكتشاف القارات، [وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ]، حينئذٍ [وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ]، هذا هو الربط، [فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ] (١).

وفي آية ثانية من سورة الكهف تتحدّث عن ذي القرنين، وهو ملك عادل عاش قبل الميلاد بـ (٥٠٠) سنة، لمّا بنى السَد قال: [قالَ هذا

---

(١) التكوير: ١ - ١١.

(١) الأنبياء: ٩٦ و٩٧.

رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا](١)، والقصة أنه لمّا وَصل إلى هذا الشعب المسكين، قالوا له: يا ذا القرنين إن وراء الجبل أقوام شرّيرة، هم يأجوج ومأجوج، فهل لك أن تعمل لنا سداً، فصنع ذو القرنين لهم سداً، والشاهد في الآية أنها تقول: [فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً](٢)، هذه الآية بهذا السياق تُفيد أن هناك أُمّة هي يأجوج ومأجوج، وهذه الأمّة قد بنى عليهم ذو القرنين السد، وهذا السد سينهدم ويتلاشى قبل قيام الساعة، وهم الآن ممنوعين بذلك السد.

هذه الفكرة تربطنا بالسؤال المهم: ما هو هذا السد؟ وأين؟ ومن هو هذا المَلِك الذي بنى لهم هذا السد؟ ومن تلك الأمّة التي مُنعت من خلال ذلك السد؟

هذه الأسئلة الثلاثة، تأتي الآيات القرآنية التي قبل هذه الآية لتشرح الفكرة، وهي فكرة إجمالية فتقول: [حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قالُوا يا ذا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً](١)، فأتوه بقطع الحجارة والنحاس، وأخذ يذيبه ويجعله ما بين الجبلين، فأصبح كالخرسانة المسلحة، وكان هذا هو ابداع ذي

---

(١) الكهف: ٩٨.

(٢) الكهف: ٩٨ و٩٩.

(١) الكهف: ٩٣ - ٩٦.

القـرنين، فأصـبح سـداً منيعـاً، لـم تسـتطع أمّـة يـأجوج ومـأجوج أن تعبـره أو تكسـره، [فَمَـا اسْـطاعُوا أَنْ يَظْهَـرُوهُ وَمَـا اسْـتَطاعُوا لَـهُ نَقْبـاً] (١)، سـداً عجيبـاً لا تنفـع معـه معـاولهم، وفـي سـورة آخـرى القـرآن الكـريم يقـول: [حَتّـى إِذا فُتِحَـتْ يَـأْجُوجُ وَمَـأْجُوجُ وَهُـمْ مِـنْ كُلِّ حَـدَبٍ يَنْسِـلُونَ] (٢)، إن هـذا السـد لا يتهـدم إلاّ بقيام الساعة، أو قبلها، فتأتي يأجوج ومأجوج من كل حَدَب ينسلون.

في هذا الضوء ماذا نفهم؟ نفهم أن هناك أمّة وراء سد مجهول المكان، وهذا السد سوف ينهار قبل النفخ في الصور، وستأتي تلك الأمّة المليونية أو المليارية وتزحف على العالم، هذه هي الفكرة الأولى، وحولها جاءت الأساطير لتقول إن هؤلاء أمّة عجيبة، كانوا يأكلون الناس، وكانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلاّ أكلوه، ولا يابساً إلاّ احتملوه، ولا يموت أحدهم حتّى يرى ألف ذكر من صلبه كلهم حمل السلاح، وأنهم على صنفين: مفرطوا الطول، وقصار مفرطوا القِصر...(٣) الخ.

وهنا جاء علماؤنا يتساءلون:

١ _ ما هو هذا السد؟

هناك عِدّة آراء:

فممـا قيـل: أنـه سـور الصـين العظـيم. لكـن الآيـة تقـول إنـه بـين جبلـين، ولـيس سـوراً طولـه سـتة آلاف كيلـو متـراً، كمـا أن سـور الصـين موجـود فعلاً، وهو عبارة عن صخور وطين ليس فيه حديد ولا نحاس (١).

---

(١) الكهف: ٩٧.

(٢) الأنبياء: ٩٦.

(٣) أنظر: مجمع الزوائد: ٦: ٦؛ تفسير جامع الجوامع ٢: ٤٣٦.

(١) أنظر: تفسير الميزان ١٣: ٣٨١.

وقال الطبرسي: قيل: إن هذا السد وراء بحر الروم، بين جبلين هناك، يلي مؤخرهما البحر المحيط. وقيل: إنه وراء دربند وخزران من ناحية أرمينية وآذربيجان[١].

٢ ـ من هو ذو القرنين؟

كان مَلكاً عادلاً، واحتل مساحات واسعة من العالم، ولماذا سمي ذو القرنين؟ هنا جاءت روايات، منها رواية عن أمير المؤمنين C لما سُئِل عنه؟ فقال: «إنه دعا قومه إلى الله ﷻ، فضربوه على قرنه، فغاب عنهم حيناً، ثمّ عاد إليهم، فضُرب على قرنه الآخر، وفيكم مثله»[٢].

رأي آخر يقول: إن ذلك كناية ولقب، كما هو عندنا من الكنى والألقاب[٣].

وفي رواية أن اليهود سألوا رسول الله 9 : من هو ذو القرنين؟ فأنزل الله الآيات كما جاء في القرآن[١].

وهناك نظرية تقول: إن ذا القرنين هو ملك من ملوك الصين قبل أن تكون هذه الصين. والمشخصات المذكورة في القرآن الكريم لذي القرنين وسدّه لا تنطبق على هذا الملك[٢].

ونظرية تقول: إن هذا هو الملك (كورش) الذي أسس الامبراطورية الفارسية[٣].

---

(١) تفسير مجمع البيان ٦: ٣٨٩.

(٢) علل الشرائع ١: ٤٠/ باب ٣٧/ ١.

(٣) كأن يُلقّب الشخص بذلك لشجاعته فيقال له: القرن؛ لأنه يقطع أقرانه. بحار الأنوار ١٢: ٢١٠.

(١) التبيان ٧: ٨٥؛ أسباب النزول: ٢٠٢.

(٢) أنظر: تفسير الميزان ١٣: ٣٨١.

(٣) أنظر: تفسير الميزان ١٣: ٣٨١ و٣٩١ .

ومهما يكن الحال فإن هذا الأمر ارتبط بعلامات القيامة؟ هذا كله في ضوء التفسير الأوّل لقضية يأجوج ومأجوج.

التفسير الثاني يقول: إن هذه الآيات القرآنية تتحدّث عن حادث تاريخي كان قبل الميلاد، ثمّ تتحدّث عن غزو التتر للعالم؛ لأن يأجوج ومأجوج هم عبارة عن التتر الذين زحفوا واحتلوا الصين وإيران والعراق وكل بلاد الإسلام وكل دول الاتحاد السوفيتي السابق، وكما قالت الروايات إنهم إذا دخلوا بلاداً أبادوا مَن فيها بشكل عجيب، هذه الآية القرآنية تتحدّث عن التتر، وقد وقعت هذه الحادثة، وهي علامة لاقتراب نهاية التاريخ وقيام الساعة. ليس بالضرورة أن يكون قيام الساعة بعد الحادث بلا فاصلة، تقول الأساطير إن هؤلاء أمّة كبيرة تتشعب إلى أربعمائة أمّة لا يموت الذكر حتّى يرى ألفاً من ولده، يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل، بوحش، أو جمل، أو خنزير إلاّ أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، يشربون أنهار المشرق، وهذه كلها أساطير غير مقبولة.

العلامة الطباطبائي في تفسيره يميل إلى أن هذه القضية قد وَقعت، وإن أقرب الأحداث لهذه الرواية هو هجوم التتر، ولا وجود للسد، وأما السد الذي يصبح دكاً فليس معناه انهياره، بل بمعنى إمكانية العبور عليه، وهؤلاء التتر عبروا السدود ببساطة دون أن يمنعهم مانع، فالسد قد اندك بين أيديهم. هذا هو تفسير الآيات في شأن العلامة الثانية[1].

ومهما يكن الحال فإن هذه علامة غير مؤكّدة، فمرةً قيل: هو سور الصين.

---

(١) أنظر: تفسير الميزان ١٣: ٣٩٦.

وقيل: إن الاسكندر المقدوني هو الذي بنا سداً، وكان قبل المسيح بـ (٣٠٠) عام وسيطر على بلاد واسعة وذَبح بني إسرائيل ومَلَك أرمينية. وقيل: هو كورش.

وكل هذه الآراء غير أكيدة، ولا مستندة إلى دليل علمي.

العلامة الرابعة: خروج الشمس من الغرب:

خروج الشمس من المغرب: بمعنى أن دوران الفلك يصبح معكوساً، ولا توجد آية قرآنية مفادها أن الشمس ستظهر من المغرب، وإنما هناك آية قرآنية عامة، تقول إنه ستظهر بعض الآيات بدون تحديد [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ][1]، إذن النصّ القرآني ليس فيه شاهد على طلوع الشمس من مغربها، لكن جاءت هنا روايات عديدة ليست ثابتة الصحة تقول: إن من علامات قيام الساعة أن الشمس تخرج من المغرب[2]. وهذه لا يمكن اعتمادها، وإن كانت موجودة، وبالتالي نحن جعلناها علامات غير مؤكّدة.

وحينئذٍ يبقى هذا التساؤل: أنه ما المقصود؟ هل المقصود أن الشمس تطلع من المغرب؟ وهل تبقى الحياة البشرية بعد ذلك؟

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

(٢) روى أحمد بن حنبل في مسنده ٢: ٢٣١ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله 9 يقول: «لا تقوم الساعة حتّى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».
وروى المجلسي في بحار الأنوار ٥٥: ٢٠٩ عن أبي ذر 2 قال: كنت ردف رسول الله 9 على حمار عليه برذعة أو قطيفة، وذاك عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغيب هذه؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تغرب في عين حامئة تنطلق حتّى تخر لربها ساجدة تحت العرش، فإذا حان خروجها أذن لها فتخرج فتطلع، فإذا أراد الله أن يطلعها من حيث تغرب حبسها، فتقول: يا رب، إن مسيري بعيد، فيقول لها اطلعي من حيث غربت، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل».

هل يتغير نظام دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس؟

وهل تبقى الأوضاع طبيعية؟ أم هو إشارة إلى الاختلال الكوني؟ وعند انهيار النظام الكوني ماذا يحدث؟

البحار تصير ناراً، الشمس تتفجر، وبذلك تكون نهاية الكون؟، أم أن المقصود هو كناية وليس حقيقة أن تخرج الشمس من المغرب؟، كما يقول أحدنا مثلاً: (رأيت نجوم الظهر)، وهو كناية عن شدة البلاء، فربما بعد التأمل في هذه الروايات نفهم أنها إشارة لشدة الابتلاءات والانهيار الأخلاقي الذي سيحدث، أو أنه رمز إلى شيء آخر، رمز إلى التقدم الغربي، العلم والتقنية تظهر في الغرب، وأن الساعة لن تقوم حتّى يكون العالم الغربي هو المتقدم تقنياً، كما هو الآن، فالعلم والتكنولوجيا نأخذه من الغرب.

ولعلَّ هذه الروايات تشير إلى أن شمس الحياة المادية أشرقت من المغرب. أو إلى معنى آخر هو أن الساعة لن تقوم حتّى يهتدي أهل الغرب. وهذا المعنى الأخير تشهد له بعض الروايات عن رسول الله 9 ، حيث يقول: «إن في المغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة عرضه سبعين سنة، لا يزال مفتوحاً حتّى تطلع الشمس من نحوه، فذلك حين [لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ][1]»[2]. يعني أن بلاد الغرب ونتيجة الجهل بالإسلام يبقى باب التوبة مفتوحاً لهم حتّى إذا فتحها الإسلام، فحينئذٍ تكون القيامة، حتّى إذا دخلوا في الإسلام، وأشرقت شمس الهداية من المغرب ـ كما تشير له بعض الروايات ـ فحينئذٍ يكون قد اقترب قيام الساعة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

(٢) المعجم الكبير ٨ : ٦١.

المحاضرة الثانية والسبعون:

النداءِ المتبادَل بين الله والإنسان

«اَلْحَمْدُ للهِ الذي أنادِيهِ فَيُجيبُني، وَإِنْ كُنْتُ بَطيئاً حينَ يَدْعُوني».

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك نداءان مستمرّان على طول عالم الوجود، نداء من الله إلى الإنسان، ونداء من الإنسان إلى الله، هذان النداءان خطّان: خط نازل من الله إلى الإنسان، وخط صاعد من الإنسان إلى الله تبارك وتعالى.

[وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ][1]، هذا في الخط الصاعد من الإنسان يقول الله: أيها الإنسان، وأنا نعم المجيب.

وهناك نداء نازل من الله تبارك وتعالى إلى الإنسان، على طول تاريخ الوجود البشري [رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي][2].

وحديثنا عن هذه الحركة المتموجة السريعة بين الأرض والسماء، بحيث لو كُشف لنا الغطاء لوجدنا عالم الكون مملوءً بأمواج من النداءات الصاعدة، وبأمواج نداءات نازلة، النداءات الصاعدة من البشر وجميع المخلوقات متضرعة إلى الله تعالى، وبينها وبين خالقها وبارئها هناك صوت يصعد، ومقابل هذا الخط الصاعد هناك خط نازل [يا عِبادِ فَاتَّقُونِ][3]، هناك نداء مستمر، [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا]، هذا صوت نازل من السماء إلى عالم الأرض. ولهذا يُستحب عند قراءة [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] في القرآن أن تقول: (لبيك اللهم لبيك).

---

(١) الصافّات: ٧٥.

(٢) آل عمران: ١٩٣.

(٣) الزمر: ١٦.

فهنا موضوعان في القرآن الكريم يعلّق عليهما الإنسان، والقرآن كلام الله، وليس لدينا حق التعليق والدخول في الوسط، هذه آيات قرآنية، لكن في موضعين هناك استحباب أن تدخل أنت في الوسط؛ لأنك أنت المخاطب، وعليك إعطاء جواب، كلّما جاءت آية قرآنية فيها: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا]، هذا الخطاب ليس فقط للنبي وأصحاب النبي 9 ، وإنما لك أيها الإنسان المؤمن، لذا يُستحب أن تقول: (لبيك اللهم لبيك).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم أيضاً يُستحب أن يدخل الإنسان على الخط وفي وسط الوحي ويعطي جواب، وذلك في سورة (الرحمن)، كلما تقرأ قوله تعالى: [فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]، تقول: (لا بشيء من آلائِك ربِّ أُكذّب)[1]. وهذا الخطاب للإنس وللجن، سورة الرحمن تستعرض الآيات الإلهية العظيمة، ثمّ يقول: بأيّ آية من هذه الآيات تكذبون أيها البشر!، فأنت تقول: إلهي، لا بشيء من آلائك أُكذّب.

لنعُد إلى أصل الفكرة، أن هناك نداءين: نداء من الله للإنسان، ونداء من الإنسان إلى الله تعالى، وكل ذلك نقرؤه في سياق قوله في الدعاء: «الحمد لله الذي أُناديه فيجيبني، وإن كنت بطيئاً حين يدعوني»، فحينما أدعو الله يجيبني، ولكن حينما يدعوني فأنا بطيء ومتثاقل. [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ][2]،

(١) في الرواية عن الإمام الصادق C قال: «يُستحب أن تقرأ في دبر الغداة يوم الجمعة (الرحمن) كلها، ثمّ تقول كلما قلت: [فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]: (لا بشيء من آلائك رب أُكذّب)». الكافي ٣: ٤٢٩/ باب نوادر الجمعة/ ح ٦.

(٢) التوبة: ٣٨.

فلماذا هذا التثاقل؟ حيث يقول الدعاء: «الحمد لله الذي أُناديه فيجيبني، وإن كنت بطيئاً حين يدعوني»، وحديثنا عن هذا النداء المتقابل.

ومن الطريف أن ألفِتُ أنظاركم إلى أن من جملة أسماء يوم القيامة هو (يوم التناد)، أي يوم الصراخ والنداءات والاستغاثة، وكل واحد ينادي أخاً، أو أباً، أو ابناً، أو يستغيث بالله تبارك وتعالى، أو نداء من أهل جهنم إلى أهل الجنّة، وبالعكس نداء من أهل الجنّة إلى أهل النار، أو نداء بين الإنسان وبين الله تعالى، يوم ينادي المنادي من مكان بعيد، يوم القيامة هو يوم الأصوات وتعالي النداءات من الخلق، [وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ](١).

أحد أصحاب موسى C كان مؤمناً، لكنه غير معلِن عن إيمانه، وكان ينصح القوم ويقول: [وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ](٢).

النداء النازل:

حديثنا الليلة عن النداء النازل والنداء الصاعد، فأما نداء الله للإنسان، وهو النداء الأوّل، فهو على وجهين: وجه خاص، وهو أن الله ينادي بعض عباده، ووجه عام لكل العباد، للمؤمن والكافر، مثل قوله تعالى: [وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظّالِمِينَ](٣)، هذا نداء خاص، وليس لكل الأنبياء، وهناك نداء خاص من الله تعالى لإبراهيم، [وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا](٤).

---

(١) غافر: ٣٢.
(٢) غافر: ٣٢ و٣٣.
(٣) الشعراء: ١٠.
(٤) الصافّات: ١٠٤ و١٠٥.

هـذا النـداء الخـاص، فهـل هنـاك نـداء عـام بيننـا وبـين الله؟ وهـل نسـمع شـيئاً؟ والجـواب: نعـم، هنـاك نـداء عـام يشـمل كـل العبـاد، وأنـا وأنـت نسـمع هذا النداء، وهو على ثلاثة نماذج:

الأوّل: نداء الفطرة.

والثاني: نداء الوحي.

والثالث: نداء الله عَجَلَّ.

ونداء الله تعالى: أنه ينادي في السماء في كل يوم وليلة، وهو نداء لكل الناس، وليس فقط للأنبياء، ففي ليلة الجمعة تقول الرواية عن الإمام الباقر C : «إن الله لينـادي فـي كـل ليلـة جمعـة مـن أوّل الليـل إلـى آخـره: ألا عبـد مـؤمن يدعوني لآخرته ودنياه قبل طلوع الفجر فأجيبه، ألا عبد مؤمن يتوب إليَّ من ذنوبه قبل طلوع الفجر فأتوب عليه، ألا عبد مؤمن قد قتر عليه رزقه يسألني الزيادة قبل طلوع الفجر فأزيده وأوسّع عليه، ألا عبد مؤمن سقيم يسألني أن أشفيه قبل طلوع الفجر فأعافيه، ألا عبد مؤمن محبوس مغموم يسألني أن أطلقه من حبسه وأفرّج عنه قبل طلوع الفجر فأطلقه من حبسه وأخلي سربه، ألا عبد مـؤمن مظلـوم يسـألني أن آخـذ بظُلامتـه قبـل طلـوع الفجـر فأنتصـر لـه وآخـذ بظُلامته؟»، قال: «فما يزال ينادى بها حتّى يطلع الفجر»[1].

وقـد يُقـال: إننـا لا نسـمع هـذا النـداء، والجـواب: أنـت لا تسـمعه بأذنـك هـذه، ولكـن أهـل بيـت الـوحي يخبرونـا أن هنـاك عالَمـاً آخـر هـو عـالم الغيـب وأبـواب السـماء فـي ذلـك العـالم مفتوحـة ليلـة الجمعـة، وهـذا النـداء قـد أُرسـل إليكم وإن كنتم لا تسمعون.

---

(١) روضة الواعظين: ٣٣٣.

ونـداء الـوحي: وهـو جبرائيـل، الـذي نـزل علـى نبينـا 9 ، ولكنـه لنـا أيضـاً [وَإِنَّـهُ لَـذِكْرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ](١)، فـالوحي لـيس فقـط للنبـي 9 ، وهـو لنـا جميعـاً، ونحـن نقـرأ الـوحي، والقـرآن بـين أيـدينا، رسـالة الله تبـارك وتعـالى هـي القـرآن، وقـد أوصـل إلينـا هـذه الرسـالة العجيبـة، والمعجـزة التـي مـن وراء عـالم السـماء وممـا فـوق العـرش، [يـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ](٢)، ونحـن نقـرأ هـذه الرسـالة يوميـاً، ولكـن تأخـذنا الغفلـة، والله تعـالى يبعـث لـك هـذه الرسـالة مـن فـوق السـماء السـابعة وحتّـى السـماء الأولـى ويخاطبـك: يـا عبـدي، [أَقِـمِ الصَّـلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّـمْسِ](٣)، [كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الصِّيامُ](٤)، [وَلَكُمْ فِـي الْقِصـاصِ حَيـاةٌ يـا أُولِـي الأَلْبـابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ](٥)، ونحـن غـافلون عـن هـذه الرسـالة وكيـف أتـت، وأنـت الآن تتعجـب إذا جاءتـك رسـالة بالهـاتف الجـوال مـن قـارة أخـرى ودولـة أخـرى، وتتعجـب مـن وصـولها تلـك المسـافة البعيـدة، فكيـف برسـالة جـاءت مـن وراء ملايـين السـنين الضـوئية، ومـن مـا وراء العـرش، مـن ذي العـزّة والجبـروت، يخاطبـك بلسـانه المنـزَّل إلـى المسـتوى الـذي نفهمـه نحـن البشـر، [وَنَزَّلْنـاهُ تَنْـزِيلاً](٦)، وهذا نداء الله عبر الوحي الذي هو جبرائيل (أمين الله على وحيه).

وهـذا الآذان الـذي يُسـتحب إتيانـه قبـل الصـلاة: (أشـهد أن لا إلـه إلاّ

---

(١) الزخرف: ٤٤.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) الإسراء: ٧٨.

(٤) البقرة: ١٨٣.

(٥) البقرة: ١٧٩.

(٦) الإسراء: ١٠٦.

الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله)، هذا الآذان علَّمه جبرائيل لرسول الله 9 في روايتين:

الأولى تقول عن ابن أُذينة، عن أبي عبد الله C قال: «ما تروي هذه الناصبة؟»، فقلت: جُعلت فداك، في ماذا؟ قال: «في أذانهم وركوعهم وسجودهم»، فقلت: إنهم يقولون: إن أُبي بن كعب رآه في النوم، فقال: «كذبوا، فإن دين الله عزّ وجلّ أعزُّ من أن يُرى في النوم»، قال: فقال له سدير الصيرفي: جُعلت فداك، فأحدِث لنا من ذلك ذكراً، فقال C : «إن الله عزّ وجلّ لما عرج بنبيه 9 إلى سماواته السبع...» إلى أن قال: «ثمّ عرج بي حتّى انتهيت إلى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئاً، وسمعت دوياً كأنه في الصدور، فاجتمعت الملائكة، ففُتحت أبواب السماء وخرجت إلي شبه المعانيق[1]، فقال جبرئيل C : (حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح). فقالت الملائكة: صوتان مقرونان معروفان، فقال جبرئيل C : (قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة) فقالت الملائكة: هي لشيعته إلى يوم القيامة»[2].

والآذان في اللغة العربية يعني النداء المرتفع، [وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ][3]، هكذا قال الله تعالى لإبراهيم C : [أَذِّنْ فِي النَّاسِ] بمعنى نادِهم بصوت مرتفع أن يؤدوا مناسك الحج.

(١) معانيق: أي مسرعين، من عانق وأعنق إذا سارع وأسرع. (لسان العرب ١٠: ٢٧٤).

(٢) راجع: الكافي ٣: ٤٨٦/ باب النوادر/ ح ١.

(٣) الحج: ٢٧.

وقد روت بعض مصادر العامة أن بعض الصحابة هو الذي أشار على رسول الله 9 بصيغة الأذان حين رآها في المنام، فقال 9 : «قم يا بلال فناد بالصلاة»[(١)].

الرواية الثانية تقول: إن جبرائيل C هو الذي علّم رسول الله 9 الآذان في الدنيا وليس في رحلة المعراج[(٢)].

والشاهد في كل هذا العَرض أن هذا النداء هو نداء إلهي وليس كما تقول بعض الروايات أنه رؤيا رآها بعض الصحابة [(٣)].

ونداء الفطرة: فكل إنسان ـ مؤمن أو غير مؤمن ـ هناك منادٍ في قلبه يناديه ويدعوه إلى الإحسان والبر، وينهاه عن الشر والمنكر. فمثلاً

---

(١) وهو ما روته مصادر العامة: أن عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب هما من أشارا على النبي 9 بالأذان بعد أن قصّا عليه الرؤيا. (راجع: مسند أحمد ٢: ١٤٨؛ صحيح البخاري ١: ١٥٠). وهو ما تعارضه مصادرنا ورواياتنا عن الأئمّة من أهل البيت G .

(٢) في الرواية: أن الحسين بن علي H سُئل عن الأذان، وما يقول الناس؟ قال: «الوحي ينزل على نبيكم، وتزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد، بل سمعت أبي علي بن أبي طالب C يقول: أهبط الله ﷻ مَلَكا حين عُرج برسول الله 9 ، فأذن مثنى مثنى، وأقام مثنى مثنى، ثمّ قال له جبرئيل: يا محمّد، هكذا أذان الصلاة». (مستدرك الوسائل ٤: ١٧/ أبواب الأذان والاقامة/ ح ١).

(٣) ذكر ابن هشام في سيرته قال: رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه النداء، فأتى رسول الله 9 ، فقال له: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر... ثمّ ذكر الأذان، ثمّ قال - أي ابن هشام -: فلما أخبر بها رسول الله 9 قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك». (راجع: سيرة ابن هشام ٢: ٣٥٥).

إذا أردت استغابة أخيك في مجلس، وأنت تهُمُّ بذلك فهناك نداء في داخلك ينهاك عن ذلك، وهناك أيضاً نداء الشيطان يدعوك للتجريح وارتكاب المعصية.

تقول الرواية عن الإمام الصادق C : «ما مِن قلبٍ إلاّ ولَه أُذنان، على إحداهما مَلَك مُرشِد، وعلى الأخرى شيطان مُفتِن، هذا يأمُره، وهذا يزجُره»[1].

الإسلام يقول هناك موجودان أحدهما داعي الخير وهو مَلَك، وثانيهما داعي الشر وهو شيطان. والإنسان بفطرته يسمع هذا النداء كما يسمع ويعرف تلك الوسوسة الشيطانية.

ولهذا يقول الكافرون يوم القيامة: [لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ][2]، فهم يعرفون أنه كان هناك نداء، ولكنهم لم يكونوا يعوه بأسماعهم. يقول القرآن الكريم: [لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ][3]، فالآيات والدلائل أمامه، لكنه لا يسمع ولا يبصر.

وأذكر هنا طريفة، هي أن الإمام السيد محسن الحكيم (رضوان الله عليه) وهو من أكبر علماء الطائفة ذهب إلى حج بيت الله الحرام، ويومئذٍ كان الفقيه الأعظم في المملكة العربية السعودية (عبد العزيز ابن باز)، وكان في المسجد الحرام يُنصب له منبر يومياً، وكنّا في مناسبات الحج نراه يتكلم ويعظ في

(١) الكافي ٢: ٢٦٦/ باب أن للقلب أذنين.../ ح ١.
(٢) الملك: ١٠ و١١.
(٣) الأعراف: ١٧٩.

المسجد الحرام، وهناك عُمل لقاء للسيد الحكيم على شرف الملك، فقال ابن باز: أنتم الشيعة تقولون بالتأويل، فمن أين لكم هذا أمّا نحن فنأخذ بظاهر القرآن ونرفض التأويل؟ فقال له السيد محسن الحكيم: لو لم نأخذ بالتأويل لاعتقدنا بأنك من أهل النار، فقال: كيف؟ قال: لأن القرآن يقول: [وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً][1]، وأنت في الدنيا أعمى، فهل تقبل بذلك؟ فسكت (ابن باز) ولم يتكلم بكلمة، إذن فليس المقصود بالآية هو العمى المادي بل هو عمى القلب.

كان هذا نموذجاً للنداء النازل من الله تبارك وتعالى.

النداء الصاعد:

أما النداء الصاعد من الإنسان إلى الله تبارك وتعالى فهو كما في قوله تعالى: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ * رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ][2]، هذا نداء من الإنسان إلى الله تعالى، والقرآن الكريم يقصّ لنا مجموعة نداءات في مجموعة قصص، أستعرض بعضها، وهي نداءات خاصة:

نداء زكريا C :

[كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا * قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا *

---

(١) الإسراء: ٧٢.

(٢) آل عمران: ١٩١ و١٩٢.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا][1]، هذا النداء صعد بسرعة الضوء، ووصل إلى العرش، فجاء الجواب: [يا زَكَرِيّا إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا][2]، وهذا نداء صاعد من نبي من الأنبياء، وجاءه جواب من الله تبارك وتعالى.

نداء نوح C :

ونداءٌ ثاني [وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ][3]، ففي سورة نوح يقول الله تعالى: [وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً][4]، هذا في سورة نوح، وفي سورة القمر شرحٌ آخر لنداء نوح: [فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ][5]، فوصل هذا النداء فوراً ونزل النصر [فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ][6].

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) مريم: ١ - ٦.

(٢) مريم: ٧.

(٣) الصافات: ٧٥ - ٧٧.

(٤) نوح: ٢٦ و٢٧.

(٥) القمر: ١٠.

(٦) القمر: ١١ - ١٤.

المحاضرة الثالثة والسبعون:

النداء الصاعد من الإنسان إلى اللّٰه

«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الذي أنادِيهِ كُلَّما شِئْتُ لِحاجَتِي».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زال الحديث عن النداء المتبادل بين الأرض والسماء، بين الله تعالى والإنسان، هناك نداء نازل من الله تعالى إلى الإنسان، وهو نداء الفطرة، والوحي، والملائكة، وهي ثلاثة نداءات نازلة من السماء إلى عالم الأرض، وهي موجّهة لنا نحن البشر.

وهناك نداءات صاعدة من الإنسان إلى الله تبارك وتعالى، وكل هذا نتحدّث عنه في سياق قوله في الدعاء: «اَلْحَمْدُ لِلّهِ الذي أنادِيهِ كُلَّما شِئْتُ لِحاجَتِي».

خط النداء بيننا وبين الله تعالى خط مفتوح على طول عمر الإنسان، من يوم يولد الإنسان ويكون له قدرة إدراك إلى يوم يموت، يريد أن يتصل أو لا يريد، ولا توجد ساعة من الساعات ينقطع الخط فيها، أو تُغلق البوابة من السماء، والدعاء يقول: «كلّما شئت»، صباحاً أو مساءً، شتاءً أو صيفاً، وحيداً أو مع جماعة، في برٍّ كان أو في بحر، «كلّما شِئتُ لِحاجَتي، وأخلو به حيثُ شِئتُ لِسِرّي»، فهناك اتصال مباشر وخلوة مباشرة مع الله تبارك وتعالى، «فيقضي لي حاجتي»، هذا خط النداء بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى.

سورة الأنبياء فيها من الجمال أنها تستعرض نداءات الأنبياء مع الله تعالى، وكيف أن الله تعالى استجاب لهم ونصرهم، ثمّ يحدّثنا الله تعالى ويحدّث نبيَّهُ أنك أيضاً بنفس الطريق متى ما ناديت يُستجاب لك، وأنت منصور أيضاً على أعدائك.

نداء أيّوب C :

سورة الأنبياء تبدأ بنداء نوح، وزكريا، ثمّ تتحدّث السورة عن نداء أيّوب.

القرآن الكريم في سورة الأنبياء يقول: [وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][1]، وهذا أيضا نداء صاعد من الأرض إلى السماء على لسان نبي الله أيّوب، لكن العجيب في نداء أيّوب ـ وهي قضية يقف عندها العرفاء والفلاسفة موقفاً طويلاً، فأيّوب قد دامَ مرضه سنين كثيرة، حتّى أنهُ هجرهُ قومُهُ وأهلُهُ وعيالُهُ ووَلدُهُ، وألقَوه خارج المدينة، وكان وضعه الصحي بمستوى أن الناس كلُّهم نَفروا منه، حتى زوجتَه وأولاده، ولا ندري أي مرض كان ـ، لكن العجيب أن أيّوب هذا العبد الصالح قال ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ: [وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ]، يقول: أنت ترى حالي، وأنت أرحم الراحمين، وأنا لا أتكلّم بأكثر من ذلك، أيّوب هنا لا يدعو ولا يقول إلهي شافني بل يقول: [وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ] وهذه قضية يقف عندها العرفاء. عند صبر هذا الإنسان العظيم في هذه المدة الطويلة، وهو نبي ويستطيع أن يدعو ويُستجاب دعاؤه، لكنه يسلّم الأمر إلى الله تسليماً، وهذه البرقية استلمها الله من أيّوب، وكانت مشفَّرة وغير مباشرة، فيقول له الله تعالى: [فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ][2]، شافيناه. وصار أهلُه بعدد مضاعف،

---

(١) الأنبياء: ٨٣.

(٢) الأنبياء: ٨٤.

فأصبح أيّوب مسروراً. والقرآن أيضاً يعطينا بَرقية مشفَّرة أخرى فيقول: [وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ]، فإذا أردتم أن يكون دعاؤكم مستجاباً مثل أيّوب يجب أن تكونوا عابدين مثل أيّوب، فالذكرى هي للعابدين وليس لكل الناس، فمن يكون صالحاً فهذه نتيجته [فَاسْتَجَبْنَا لَهُ]، وهذا النداء هو نموذج لنداء إنسان صالح مبعوث من الأرض إلى عالم السماء.

نداء يونس C :

ثمّ ينتقل القرآن الكريم في سورة الأنبياء إلى ذي النون (يونس).

يُونس في القصة المعروفة أنه أعرض عن القرية، وابتعد من أهلها حينما رأى العذاب ينزل عليهم، فسجّل الله عليه نقطة ضعف، وهي أن انسحابك عن هؤلاء القوم خطأ، ونتيجته أن يبتلعك الحوت، فكان أن ابتلعه الحوت، ولكن يونس وهو في بطن الحوت وفي عمق البحر، وصل نداؤه إلى عنان السماء.

القرآن الكريم يقول: [وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ][(١)]، أنظروا كم هو عجيب وجميل كلام القرآن الكريم، يونس في بطن الحوت، لكنّه لا يقول: إلهي خلّصني، وإنما يقول: إلهي أنا لستُ عبداً صالحاً، فهو يعرف كيف يبعث البرقية، وهي أن تعترف بظلمك وذنبك، لأنك أنت السبب أيها الإنسان فيما يجري عليك، وأنت إذا أصلحت نفسك واعتذرت إلى الله تبارك وتعالى سيفرّج عنك ويفتح عليك، فيونس نادى في بَطن الحوت: [سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ]، انتبَهَ إلى

(١) الأنبياء: ٨٧.

نفسه، واكتشف أن سبب البلاء الذي نزل عليه كان بسببه. فأصل القضية خطأي أنا الإنسان، [بِما كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ][١]، فكل شيء يصيب الإنسان بما كسبت يداه.

هذا الخطاب وهذه البرقية المشفَّرة أيضاً صَعدت إلى عنان السماء في لحظة واحدة، واستلمها الله من (يونس)، ولما استَلمها وتقبَّلها ـ وهي رسالة صادقة وليس فيها أنانية ونفعية، بل فيها اعتراف بالخطأ والذنب ـ استجاب الله تعالى له، [فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ][٢].

النجاة لِمَن؟ الله تعالى يعطينا إشارة، إذا أردتم النجاة واستجابة دعاء، فهي مربوطة بالعبادة وبالإيمان، وهذا عَرضٌ جميل، نداء نوح، وأيوب، وذي النون، وزكريا G .

بعدئذٍ يقول القرآن الكريم: [وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ][٣]، هذا مسلسل نبي بعد نبي، وكل نبي فإن الله تعالى ينصره ويستجيب دعاءه، [إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ][٤].

لاحظوا الربط، هناك يقول: [ذِكْرى لِلْعابِدِينَ] وبعدها يقول: [لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ]، وأنت يا نبي الرحمة مثل أولئك [وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ][٥].

بعد هذا الاستعراض القرآني سوف نخرج بنظرية تقول: إن نداء

---

(١) الشورى: ٣٠.
(٢) الأنبياء: ٨٨ .
(٣) الأنبياء: ١٠٥.
(٤) الأنبياء: ١٠٦.
(٥) الأنبياء: ١٠٧.

الإنسان مرفوع إلى السماء، خط متصل، لكن يبدو من القرآن الكريم أن هناك شروطاً مطلوبة لفتح هذا الخط، وإذا لم تعرف المفتاح فإن نداءك لن يصل، والمفتاح في تلك الآيات التي قرأناها وهو عبارة عن الصلاح، والدعاء الدائم، وليس المؤقت.

القرآن الكريم في قصة زكريا قال: [فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى][1]، وزكريا كان يريد ولداً، وقد كان كبير العمر، وزوجته كبيرة العمر، دعا الله تعالى أن يرزقه ولداً، وبعضكم أيضاً يسأل الله تعالى أن يهبه ذرّية صالحة، وهي نعمة عظيمة.

القرآن الكريم يقول: [وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً][2]، يعني أن زكريا وزوجته كانوا أهل خير، والله يحب أن يكون الناس أهل خير، والله يريد أن يكون البشر أهل خير وحنان ومحبة وتواصل، وكان زكريا وزوجته دائمي الدعاء في السراء والضراء [رَغَباً وَرَهَباً] ولكن كثيراً من الناس يدعون فقط عند الشدة، وإذا كشف عنهم الضر لا يدعون كما يقول القرآن الكريم: [فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ][3]، أي أدار وجهه، ولكن زكريا وزوجته كانا [يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ][4]، وإذا كان الدعاء متواصلاً بالشدة واليسر، فحينئذٍ انتظروا منه تعالى الإجابة، وخطّك مفتوح، ورسالتك قد وصلت، أما إذا كان الدعاء فقط في الشدة فهذا غير مقبول.

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) الأية السابقة.

(٣) يونس: ١٢.

(٤) الأنبياء: ٩٠.

قصة عن ملائكة السماء:

قرأت لكم الليلة رواية جميلة ـ وحديثنا عن النداءات بين الأرض والسماء ـ وهي حديث عن رسول الله 9 يقول: «ما من يوم يطلع فجره، ولا ليلةٍ غاب شفقها إلاّ وهناك ملكان يناديان بأربعة أصوات ـ ملكان يتبادلان رسائل عامة، وممكن أن تُطبّق تفصيلياً على كل واحدٍ منّا وهو نداء ينحل إلى ملايين الملايين من الرسائل، ونحن نعتقد أن عالم السماء مملوء بالملائكة، فمنهم رُكّع لا يقومون، ومنهم سُجّد لا ينهضون، ومنهم من يوم خُلِقوا سُجّداً إلى يومنا هذا، وهذان الملكان يتكلمان بأربعة كلمات، وربما هي قصيرة ـ يقول الأوّل: يا ليت هذا الخَلق لم يُخلقوا، ويقول الآخر: فيا ليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا.

فيقول الأوّل: يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خُلقوا عملوا بما علموا.

فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا يا ليتهم تابوا مما عملوا»[1].

أيها الإنسان، الله تعالى فتح لك باب التوبة، وشهر رمضان شهر التوبة، الدعاء يقول: «أدعوك يا إلهي بلسان قد أخرسه ذنبه، ربّ أناجيك بقلب قد أوبقه جرمُهُ، أدعوك يا رب راهباً راغباً راجياً خائفاً، إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعتُ، وإذا رأيتُ كرمَك طمعتُ»[2]، وباب التوبة مفتوح إلى أن تبلغ الروح هاهنا ـ البلعوم ـ القرآن يقول عن فرعون: [حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ][3]، فأجابه الله تعالى: [آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ

(١) جامع السعادات ٣: ٣٧.

(٢) من دعاء السحر في شهر رمضان. (مصباح المتهجد: ٥٨٣).

(٣) يونس: ٩٠.

قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً][1]، وبعض العرفاء يقول: حتّى في هذا المقام فإن الله تعالى استجاب لفرعون دعاءه، فأنجاه ببدنه، [وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ][2].

وقفة مع الإمام الغزالي:

قرأت بالأمس القريب قضية عن الإمام الغزالي تذهل لها العقول، يقول: (يحرم لعن اليهود لعناً مطلقاً، ويجوز لعناً مشروطاً)، بمعنى إذا لم يهتد أو لم يتب، لكن بعد ذلك يقول: (وكذلك القول في لعن يزيد بن معاوية، لا يجوز لعنه لعناً مطلقاً، لأنه لم يقتل الحسين، وإذا افترض أن يزيد قتل الحسين فمسلمٌ قَتلَ مُسلماً، ولا يكون كافراً)، ويصل الغزالي إلى النتيجة فيقول: (ويجوز لعن الروافض بدون شرط)!، أي الشيعة؛ (لأن الرافضي لا أمل في توبته)، هذا الكلام يقوله إمام الفكر السلفي ونتركه بدون تعليق.

في كتاب (الكافي) ـ وهو أهم مصادرنا ـ، يقول الراوي: كنت عند أبي عبد الله الصادق C ، إذ دخل أبو بصير ـ وهو من أقطاب الشيعة، ومن رواة فقه أهل البيت G ـ وقد حَصَرَهُ النَفَس، فلما أخذ مجلسه، قال له أبو عبد الله C : «يا أبا محمّد ما هذا النَفس العالي؟»، قال: جُعلتُ فداك يا ابن رسول الله 9 ، كَبُر سنّي، ودقّ عظمي، واقترب أجلي، مع أني لست أدري ما أرد عليه من أمر آخرتي.

فقال الإمام الصادق C : «يا أبا محمّد، وإنك لتقول هذا!».

قال: جُعلت فداك، وكيف لا أقول هذا؟!

---

(١) يونس: ٩١ و٩٢.

(٢) يونس: ٩٢.

قـال C : «يـا أبـا محمّـد أمـا علمـت أن الله ﷻ يكـرم الشـباب مـنكم ويستحيي من الكهول».

قلت: جُعلتُ فداك، كيف يُكرم الشباب ويستحيي من الكهول؟.

قـال C : «يكـرم والله الشـباب أن يعـذبهم، ويسـتحيي مـن الكهـول أن يحاسبهم».

قلت: جُعلتُ فداك، هذا لنا خاصة، أم لأهل التوحيد؟

قال C : «لا والله، إلاّ لكم خاصة دون العالم».

قلـت: جُعلـتُ فـداك، فإنّـا قـد نُبزنـا بنبـزٍ انكسـرت لـه ظهورنـا، وماتـت له أفئدتنا، واستحلّت له الولاة دماؤنا في حديث رواه لهم فقهاؤهم!

فقال أبو عبد الله: «الرافضة؟!».

قلت: نعم.

قال: «والله، ما هم سمّوكم، بل الله سمّاكم به، أما علمت يا أبا محمّد إن سبعين رجلاً من بني إسرائيل رفضوا فرعون وقومه لما استبان لهم ضلالهم، فلحقوا بموسى لما استبان لهم هداه، فسُمّوا بعسكر موسى الرافضة؛ لأنهم رفضوا فرعون، وكانوا أشد ذلك العسكر عبادة وأشدهم حباً لموسى وهارون وذريتهما، فأوصى الله تعالى إلى موسى أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة، فإني سميتهم به، ونحلتهم إيّاه، فأثبت موسى الاسم لهم، ثمّ ذخر لكم الله ﷻ هذا الاسم حتّى نحلكموه، يا أبا محمّد، رفضوا الخير، ورفضتم الشر...»[1].

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) الكافي ٨ : ٣٣/ ح ٦.

المحاضرة الرابعة والسبعون:

القدرة الإلهية

«لا الـذي أحْسَـنَ اسْـتَغْنى عَـنْ عَوْنِـكَ وَرَأفَتِـكَ، وَلا الذي أساءَ وَاجْتَرَأَ عَلَيْكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول دعاء الإمام زين العابدين C برواية أبي حمزة الثُمالي: «لا الذي أحْسَنَ اسْتَغْنَى عَنْ عَوْنكَ وَرَأفَتكَ، وَلا الذي أساءَ وَاجْتَرَأ عَلَيْكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ»، فالذي أحسن لم يستغن عن رحمتك وشفاعة نبيك، لا يقول قائل أنا محسن، لذلك آخذ جزائي بأعمالي، فأعمالنا غير كافية لدخول الجنّة، وإنما نحن نحتاج دائماً إلى رحمة الله ومغفرته ورأفته وشفاعة نبينا 9 .

الرواية عن الإمام الباقر C تقول: «ما من أحدٍ من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو محتاجٌ إلى شفاعة محمّد 9 يوم القيامة»[1].

«وَلا الذي أساءَ وَاجْتَرَأ عَلَيْكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ»، فلا يتصور أحدٌ مهما بلغ أنه قد خرج عن قدرة الله، لعلّه في الدنيا قد سترتَ عليه، وهو ماضٍ في المعاصي، وأنتَ تزيده عطاءً وبركة ورزقاً، فلا يتصور أحد أنه خَرَج عن قدرتك، بل هو داخل القدرة الإلهية، الإنسان المحسن والمسيء لا يمكن خروجهما عن القدرة الإلهية.

يقول القرآن الكريم: [يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ][2]، فهذه السماوات والأفلاك والكون الوسيع الذي لا

(١) بحار الأنوار ٨: ٣٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

نهاية له يوم القيامة نطويه كطي الورَقة، [كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ]، مثلما بدأناها وهي لا شيء يوم انبثقت وانفتحت وانتشرت هذه السماوات والأرضون، [كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنّا كُنّا فاعِلِينَ]، وهذه السماوات جميعها ليست خارجة عن قدرة الله تبارك وتعالى، [وَالسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ][1]، بالقبضة الإلهية، القرآن دائماً يعطينا مفهوماً أن الله قادر على كل شيء، القدرة الإلهية لا حدّ لها ولا نهاية، [تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][2]، هذا المعنى يتكرر في عشرات الآيات، [وَكانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً][3]، [إِنَّ اللّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ][4]، [إِنَّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ][5]، فالله تعالى هو الذي يُمسك السماوات والأرض، والكون قائم بالإدارة الإلهية، فمثلاً الأرض الآن مستقرة في مكانها، والعلم يقول إنها مستقرة بالجاذبية، فجاذبية الشمس بمستوى معين لا تسمح للأرض أن تتقدم ولا تتراجع، ولها مدار محدد، وكذلك السؤال لماذا لا يقع القمر على الأرض؟ ولماذا لا يبتعد عن الأرض؟، هناك خط مغنطة خاصة وجاذبية بمستواها يقف عند هذا الحد، القرآن الكريم يُلخّصها قبل أن تجيء نظرية الجاذبية وما شاكل ذلك، يقول: [إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ].

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) الملك: ١.

(٣) النساء: ١٢٦.

(٤) آل عمران: ٥.

(٥) فاطر: ٤١.

وهناك بحث علمي، أن هذه السماوات لماذا لا تتلاشى في الفضاء، وهذه المجرة التي نحن فيها وهي واحدة من مليارات المجرات، وبين كل نجم ونجم في داخل المجرة التي نحن فيها مئات السنين الضوئية، وكل سنة ضوئية هي عبارة عن آلاف السنين من أيامنا هذه.

والسؤال الذي يطرحه العلماء: أن هذا الكون بدورانه الرهيب بنسق واحد كما يطوف الحجاج في البيت الحرام بذبذبة معينة، وهذا الكون يدور دوراناً واعياً بذبذبة ومسارات محددة لا يخرج عنها، كأن هناك إرادة تسيّره. السؤال العلمي الفلكي المطروح الآن: أن هذا الكون لماذا لا يتلاشى؟ وأضرب لكم مثالاً: لو كان هناك ماء في إناء، ثمّ حركت الإناء حركة دائرية بحيث يدور الماء في داخله، فكلما تكون الحركة أسرع تكون حركة الماء أسرع حتّى يفلت ويخرج خارج الإناء. وسؤال العلماء: أن هذا الكون المذهل في سرعته، والأرض التي يصفها القرآن الكريم بـ [مِهاداً][1]، أي كالمهد، تسير بحركة بطيئة ولكنها خلال (٢٤) ساعة تدور دورة واحدة حولَ نفسها، لكن حركة المجرّات حول نفسها هي حركة سريعة جدّاً وهي أضعاف سرعة الأرض حول نفسها بملايين المرات. إذن يأتي هذا السؤال: لماذا هذه النجوم الهائلة بالعدد والكمية، لماذا لا تتناثر في الفضاء وتتمزّق أوصالها؟ لعلَّ العلم يكتشف يوماً مّا جاذبية معيّنة أو أيّ قانون آخر هو السبب في تماسك هذا الكون، ولكن القرآن الكريم يقول مهما اكتشفتم من نظرية فإن هذا الكون متماسك بأمر الله تعالى وإرادته، وهو الذي وضع لها قانوناً يسير

---

(١) قوله تعالى: [أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً] (النبأ: ٦).

ويتماسك وفقاً له [وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ][1]. القرآن الكريم يقول مهما يكن القانون وكيف يكون فإنه تعبير عن إرادة الله تبارك وتعالى، يقول: [إِنَّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ][2]، ولئن تفكك هذا الوجود، فلن يقدر أحد على جمعه.

نقرأ في دعاء الإمام علي C المعروف بدعاء كميل: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء... وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء»، وهو معنى عظيم جداً، أن كل شيء أركانه وأوتاره مملوءة بأسماء الله تعالى، وكل شيء في الوجود لولا اسم الرحمن الرحيم القوي، العزيز، الحي، المالك، المقتدر، لولا هذه الأسماء لما أمكن للوجود ولا لشيء في الوجود أن يقوم، وكل ما هو موجود متماسك بالأسماء الإلهية، وهو معنىً في غاية العظمة، وهو معنىً فلسفي عرفاني ذكرت عنوانه لكم.

[بَلِ الإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ][3]، إن الإنسان إذا تأمّل في ذاته قليلاً فسيعرف الحقيقة، تأمّل جسمك، وهذه ملايين الرسائل البريدية المحمولة عبر الجهاز اللمفاوي تذهب لآلاف العضلات، وبأقل من ثانية يعود الجواب إلى الدماغ، ما هذه القدرة التي أعطاها الله للإنسان، قدرة التوازن، إن البدن يجب أن يتناغم مع حركة الأقدام، واليدان تتناغم مع حركة الأقدام، وفقرات الظهر كذلك، والعيون تتناغم مع حركة القدم،

---

(١) الحج: ٦٥.

(٢) فاطر: ٤١.

(٣) القيامة: ١٤.

أنظروا الحركة الواحدة العجيبة المليونية. أيها الإنسان، هل تتصور أنك أنت من تقوم بهذه العمليات؟ أيها الإنسان، أنت مملوء بأسماء الله تعالى، وهي التي تحركك.

ونعود إلى الدعاء: «لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورأفتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك»، حتّى فرعون الذي قال: [يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ * أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى] (١)، بل هو تحت القبضة الإلهية.

يقول الدعاء: «إلهي بقدرتك عليَّ تب عليَّ»، أنظروا المعاني التوحيدية العجيبة التي يعطينا إيّاها أهل البيت G في هذه الأدعية، «وبحلمك عنّي اعف عنّي، أنت الفاعل لما تشاء، تعذب من تشاء كيف تشاء بما تشاء، وترحم من تشاء كيف تشاء بما تشاء، لا تُسأل عن فعلك، ولا تُنازع في ملكك، ولا تضادُ في حكمك، لا تُسأل عمّا تفعل وهم يُسألون» ويستمر القرآن في ذكر الأمثلة، ويستمر حتّى يصل إلى ذكر أمثلة بسيطة، يقول: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ] (٢)، الصقر مثلاً يرتفع فيحرك أجنحته، ثمّ يرتفع إلى مرتفعات عليا، يصفّ جناحه فلا يحركهُ. والقرآن يدعونا إلى التساؤل عمّن أعطى هذه القدرة إلى الحيوان؟ لقد اكتشَفوا علمياً كيف يطير الطير وهو صافٌ أجنحته ولا يقع، واكتشفوا أن هناك تيارات رياح هوائية وأمواج يعتمد عليها للطيران، ولهذا عندما يكون قريباً من الأرض لا يستطيع

(١) غافر: ٣٦ و٣٧.

(٢) الملك: ١٩.

صف جناحه، وهو يعرف متى تكون الرياح قادرة على حمله، وهذه كلها قوانين مادية، لكن القرآن يقول: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ]، فهذه كلّها في دائرة القدرة الإلهية.

الكون كلّه في قبضة الله، وخاضع لكلمة: (كن) الإلهيّة.

مرة دخل فلاّح فرأى في البستان سارقاً يسرق الثمار، فقال الفلاح: ماذا تفعل؟ فقال السارق: البستان مُلك الله، وأنا عبد الله، والأشجار خَلْقُ الله، والأرض أرضُ الله، وأسناني من صنع الله، ويدي من صنع الله. فسكت الفلاح ولم يجبه، ولكنه ذهب إلى باب البستان وأمسكَ بعصا غليظة وانتظر خروج السارق، فلمّا خَرَجَ السارق ضربه ضربة قوية أطاحت به، فقال السارق: ماذا تفعل؟ قال: العصا عصا الله، وأنا عبد الله، ويدي من صنع الله. فأعاد السارق له ما سرقه.

صحيح أن كل شيء لا يجري إلاّ بإرادة الله، لكن لا يدعونا ذلك إلى المعصية، فهناك أُناس أساؤوا فهم هذا الموضوع، هناك شاعر اسمه (عُمَر الخيّام) يُنسب له بيت شعر فارسي يقول فيه:

أنا أشرب الخمر لأن شرب الخمر بعلم الله تعالى.

وإذا لم أشرب الخمر هذا بخلاف علم الله تعالى.

وحاشا لعلم الله أن يختلف عن الحقيقة على الأرض.

إذاً يجب أن أشرب الخمر!!

هذا يُسمّى سوء استخدام للمفاهيم الدينية، صحيح أن كل شيء بقدرة الله وفي علم الله تعالى، لكن لا يعني ذلك أن يكون الإنسان مُسيّراً فاقد الإرادة، لا، فإن لديك إرادة.

لدينا رواية عن الإمام موسى بن جعفر C يقول فيها: «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بسبع: بقضاء، وقَدَر، وإرادة، ومشيئة، وكتاب، وأجَل،

وإذنٍ، فمن زعم غيرَ هذا فقد كذب على الله»[1]، كل شيء يكون بهذه الأشياء السبعة، من هزيمة، أو نصر، أو عافية، وكل شيء في الكون لا يخرج عن مشيئة إلهية وإرادة وقضاء وقدر وإذن من الله تعالى، حتّى مَقتل الإمام الحسين C يوم عاشوراء، فإنه C قال: «شاءَ اللهُ أن يراني قتيلاً، ويرى النساء سبايا»[2]، فلا يستطيع إنسان إنجاز شيء على الأرض إلاّ بإذن الله، وكتابٍ وأجَل، لكن ذلك لا يعني أن الإنسان ليس لديه إرادة ومشيئة.

عن الإمام الصادق C قال: قيل لأمير المؤمنين C : هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة، من غير أن تصغر الدنيا، أو تكبر البيضة؟

قال: «إن الله تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العَجز، والذي سألتني لا يكون»[3]، أي إن المشكلة ليست في قدرة الفاعل، بل في نقص القابل، لأن هذا الأمر في نفسه مستحيل، الله قادر على كل شيء ممكن في نفسه، أما غير الممكن فلا يمكن أن يكون. من قبيل أن تقول: هل يستطيع الله إيجاد الشيء الذي لا يمكن إيجاده. وهذه سفسطة ومغالطة علمية، القدرة الإلهية مطلقة، «لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء».

فلسفة وجود الشر:

بعض الفلسفات لم تستطع أن تحل المشكلة، أن الله تعالى إذا كان قادراً على كل شيء، وإذا كان كل شيء في الوجود هو بقدرة الله ومشيئته وإرادته وإذنه وقضائه وقدره وكتابه وأجله، إذن كيف نُفسِّر

---

(١) الكافي ١: ١٤٩/ باب لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بسبع/ ح ٢.

(٢) مقتل الحسين C للمقرم: ٦٥.

(٣) بحار الأنوار ٤: ١٤٣، نقلاً عن التوحيد للصدوق: ١٣٠/ باب القدرة/ ح ٩.

وجـود الشـر، والمـوت، والـزلازل، والعـذاب، والآلام، وملايـين ملايـين الكائنات الحية ما أن تولد حتّى يفترسها حيوان مفترس، فما ذنبها؟

بعـض الفلسـفات عجـزت عـن تحليـل الموقـف، فخرجـت بنظريـة نُسـمّيها (الثَنويـة)، فقالـت: إن هنـاك إلـهٌ للخيـر، وإلـهٌ للشـر. وهـذه فلسـفات قديمة وهي موجودة اليوم بأشكال أخرى.

الإسلام يقـول: [هُـوَ اللَّـهُ الَّـذي لا إلـهَ إلاَّ هُـوَ](1)، لكـن هـذا الواحـد لديـه مجموعـة أسـماء وعنـاوين، فهـو النـافع، والضـار، والمحيـي، والمميـت، كلهـا فعـل الله تبـارك وتعـالى، وهـو الـذي خلـق لنـا عـدواً اسـمه إبليـس، يمتحننـا مثلما خلق لنا أمراضاً. وهذه كلها داخل الدائرة الإلهية.

يُحكى أن عالماً من العلماء رأى في المنام إبليس، فقال: أنتَ إبليس؟

قال: نعم.

قـال: نحـن نتصـورك قبـيح جـدّاً، لكنـك لسـت بهـذا القـبح، فمـا هـي الصورة السوداء الماقتة التي نحن صوّرناك بها؟

قال: القلم وقع بيد أعدائي، فكيفَ يصوروني!؟

ولهـذا يـوم القيامـة عنـدما يَـرون الشـيطان، يقـول القـرآن: [وَقـالَ الشَّـيْطانُ لَمَّـا قُضِـيَ الأَمْـرُ إنَّ اللَّـهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَـقّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَمـا كـانَ لِـي عَلَيْكُمْ مِـنْ سُـلطانٍ إلاّ أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِـي فَـلا تَلومُـونِي وَلومُـوا أَنْفُسَـكُمْ مـا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمـا أَنْـتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إنّي كَفَـرْتُ بمـا أَشْـرَكْتُمُونِ مِـنْ قَبْـلُ إنَّ الظَّـالِمِينَ لَهُـمْ عَـذابٌ أَلِـيمٌ](2)، الشـيطان عـدوٌّ رجـيم، لكنـه لـيس قـادراً علـى تكبيـل يـد الإنسان وعيونه وآذانه وسلبه القدرة، لا، ليس كذلك.

---

(١) الحشر: ٢٢.

(٢) إبراهيم: ٢٢.

قصة الجاحظ:

الجاحظ كان أقبح إنسان منظراً، يقول: لم تضحك عليَّ إلاّ امرأة واحدة، كنت جالساً، فمرَّت عليَّ امرأة، فَدَعتني لنفسها، ونهضتُ إليها وهي تُشير لي بأن أتَّبعها، فدخلت إلى سوق الصاغَة ووقفت عند صائغ وقال له: مثل هذا، وأشارت بيدها إليَّ، فضحك الصائغ، فسألته عن الأمر فقال: هذه المرأة أرادت أن أصوغ لها قلادة على شكل الشيطان، فقلت وكيف أعرف شكل الشيطان؟ فقالت: سأحضره لك، فأحضرتْك[1].

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) المستطرف ٢: ٥٧.

المحاضرة الخامسة والسبعون:

العلم والعقل في الإسلام

ونقد الفلسفة العلمانيّة

«لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِس الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي، أوْ لَعَلَّكَ رَأيْتَنِي فِي الْغَافِلِينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَنِي، أوْ لَعَلَّكَ رَأيْتَنِي آلِفَ مَجَالِس الْبَطَّالِينَ فَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ خَلَّيْتَنِي».

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعاء يقول: «إلهي، لَعلَّكَ فَقَدْتَني مِنْ مَجالِس العُلَماء فَخَذَلْتَني»، أي لأنني لم أحضر مجالس العلم والموعظة والذّكر، بسبب ذلك خذلتني وأعرضت عنّي، إذن هذه خطيئة، أن الإنسان يُفقد في مجالس العلم وهو في مجالس اللهو موجود، «أم لعلَّك وجدتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني»، حديثنا الليلة عن العِلْم في الإسلام، ولدينا مصطلحان: العِلم، والعقل، والعلم يختلف عن العقل، هناك شخص لديه علم ولكن ليس لديه عقل، فما هو الفرق بين العلم والعقل؟

العلم: هو عبارة عن المخزون الثقافي لدى الإنسان، وحجم المعلومات التي يملكها. وربما يكون لديه معلومات موسوعية كثيرة، سواء كان العلم تأريخياً، فلسفياً، جغرافياً، رياضياً، فقهياً، أدبياً.

وهناك شيء آخر اسمه العقل، وهو عبارة عن جهاز السيطرة على هذه الشبكة المعلوماتية، وكيفية الاستفادة منها. لاحظوا مثلاً إبليس كان لديه كمٌ هائل من المعلومات، لكن هل استطاع الاستفادة منها؟ لقد كان لديه علم ولكن بدون عقل، فالعقل هو جهاز السيطرة على تلك المعلومات والاستفادة منها، وبحسب هذا الشرح نجد أن العقل أفضل من العلم، ولهذا أنظروا إلى الإسلام، أين يضع العلم، وأين يضع العقل؟

العقل في الإسلام:

العقل في الإسلام هو أعظم مخلوق؛ لأن مقياس دخول الجنّة هو العقل وليس العلم. لعلّكم تعرفون كثيراً من الناس كتبوا في العلوم الإسلاميّة، وفي الفقه، وصاروا أئمّة مذاهب، لكنهم كانوا منحرفين عن الصراط المستقيم، وعلومهم يوم القيامة ستكون وِزراً عليهم، ويقولون: يا ليت هذه العلوم لم تكن عندنا؛ لأننا أصبحنا بها ننافس جعفر بن محمّد الصادق C ونقول هو إمام ونحن أئمّة.

الرواية تقول: «إنمّا يُداقُ[1] اللهُ العبادَ يومَ القيامة على قَدرِ ما آتاهم من العقول في الدنيا»[2]. كل واحد يُنظر إلى مستوى إدراكه وليس إلى حجم علومه.

روي عن الإمام أبي جعفر الباقر C قوله: «لمّا خَلَقَ الله العقلَ استنطقه، ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر ثمّ قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أُحب، أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب، وإيّاك أُثيب»[3].

وقد سُئل الإمام الصادق C : ما العقل؟ فقال: «العقل ما عُبد به الرحمن، واكتسب به الجنان»[4].

وفي الرواية عن أمير المؤمنين C قال: «هبط جبرئيل على آدم C فقال: يا آدم، إني أُمرت أن أخيّرك واحدة من ثلاث، فاخترها ودع اثنتين.

---

(١) المداقة: المناقشة في الحساب.

(٢) الكافي ١: ١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ٧.

(٣) الكافي ١: ١٠ و١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ١ و١٤.

(٤) الكافي ١: ١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ٣.

فقال له آدم: يا جبرئيل، وما الثلاث؟

فقال: العقل، والحياء، والدين.

فقال آدم: إني قد اخترت العقل.

فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرئيل، إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.

قال: فشأنكما، وعرج»[١].

الحياء بمعنى القيم والالتزامات الأخلاقية بالعقل، وطالما اختار الإنسان العقل فلا بدَّ أن يصبح لديه دين، وطالما كان لديه دين فيجب أن يكون لديه حياء وأخلاق، فآدم جَمع العقل والدين والحياء باختيار واحد.

الإنسان إذا اختار العقل يربح الدين والأخلاق، ويبتعد عن السيئات والمحرّمات، وهذه هي قيمة العقل في الإسلام، هو أوّل وأكرم مخلوق، وهو مقياس المحاسبة يوم القيامة.

أهمية العلم:

والعلم أيضاً مهم في الإسلام، [إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ][٢]، [هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ][٣]، الإسلام لا يريد أمّة همجاً رعاعاً يتبعون كل ناعق، بل يريد أمّة ذات معرفة ووعي، أمّة متحضرة ومتحدة، وليس أمّة همجيّة، والإسلام يريد العلم، [وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ][٤]، سواء بأمور دنيوية أو أُخروية أو فقهية.

---

(١) الكافي ١: ١١/ باب العقل والجهل/ ح ٢.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) الإسراء: ٣٦.

عن رسول الله 9 في فضل العلم قال: «إذا استقر أهل الجنّة في الجنّة، اشتاق الإخوان إلى الإخوان، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، فيلتقيان فيتحدّثان ما كان بينهما في دار الدنيا، فيقول أحدهما للآخر: أتذكر يا أخي يوم كذا في مجلس كذا، فدعونا الله فغفر لنا، فنحن في الجنّة ببركة ذلك المجلس»(١).

العلم ومجلس العلم ليس مقتصراً على الفقه، وإنما كل علم يخدم البشرية هو علم محبوب في الإسلام، بل العلم الذي يخدم البشرية يقول الفقهاء إنه واجب على سبيل الوجوب الكفائي.

الفقهاء يقولون: كل العلوم التي فيها خير البشرية ونجاة الإنسان هي واجبة بنحو الوجوب الكفائي، أنت في قرية من القرى لا يوجد فيها طبيب، واجب عليك أن تدرس وتصبح طبيباً، وهكذا.

العقل دليل شرعي:

العقل في الإسلام وخاصة في نظرية أهل البيت يُعتبر أحد الأدلة الشرعية.

لو تسأل الآن: من أين يأخذ الفقهاء الأحكام الشرعية؟

الجواب: من القرآن الكريم، والسُنّة النبوية، ولكن قبل القرآن والسُنّة هناك دليل العقل.

هناك قاعدة يذكرها الفقهاء هي: (ما حَكَم به العقل حَكَم به الشرع)(٢)، ولعلَّ هناك معاملات مستحدثة، أو ممارسات مستحدثة، مثلاً

---

(١) حلية الأولياء ٨ : ٤٩.

(٢) وهو ما اشتهر بن الفقهاء، راجع المصادر الفقهية.

دولـة تُصـدّر إلـى دولـة أخـرى دمـاً ملوثـاً بمـرض الإيـدز، هـذا الأمـر عقليـاً حـرام أم حـلال؟ بهـذا الـدم الملـوث الـذي بعثتـه بلغاريـا إلـى ليبيـا ومـات عشـرات الأطفـال، وهـذه هـي الطـرق الاسـتعمارية، فبـدل أن يبعثـوا سُـبُل نجـاة، يبعثـوا لهـم دمـاً ملوثـاً أو بضـائع منتهيـة الصـلاحية. سـتقولون: هـذا لا يجـوز عقليـاً، والفقهـاء يقولـون: (كـل مـا حكـم بـه العقـل حكـم بـه الشـرع)، الله تعـالى خَلَـق العقـل، وجعـل مقيـاس التعامـل علـى أسـاس العقـل والـدين جـاء إسـناداً للعقـل، ولـيس مضـاداً مـع العقـل، ولهـذا يقـول الفقهـاء إن كـل الروايات والنصوص الواردة يجب أن تخضع لدليل العقل.

مثـال ذلـك: بعـض الروايـات الموجـودة فـي التـراث الـديني تقـول: «لا تخـالطوا الأكـراد فـإنهم جـنسٌ مـن الجِـن كُشِـف عـنهم الغطـاء»[1]، فهـل نقبـل هذه الروايات؟ كلاّ.. لأن العقل لا يقبل ذلك.

هناك طريقان لمناقشة هذه النصوص:

الطريــق الأوّل: طريقـة اعتمـاد الأدوات الفنيـة حيـث نـدرس مـن هـو الـراوي؟ فلعـلَّ الـراوي خضـع لسياسـات أمويّـة وتصـفية حسـابات قوميّـة فافتعـل هـذا الـنص. الشـهيد السـيد محمّـد صـادق الصـدر (رضـوان الله عليـه) ينـاقش هــذه الروايــات ويقــول: إنهــا مــردودة مــن الناحيــة الفنيــة بعــدة استدلالات، منها:

١ ــ أن الـراوي لهـذه الروايـات مجهـول، وفـي علـم الرجـال تُسـمّى روايات مُرسلة.

---

(١) الكـافي ٥: ٣٥٢/بـاب مـن كُـره مناكحتـه مـن الأكـراد والسـودان وغيـرهم/ح ٢، وج ٥: ١٥٨/باب من تكره معاملته ومخالطته/ح ٢.

٢ ـ أن بعض الرواة المذكورين في أسانيد هذه الروايات، منهم أبو الربيع، وهو إنسان كذّاب.

الطريق الثاني: وهو أن نعرض هذه الروايات على القرآن، ولدينا في ثقافة أهل البيت G هكذا: «إذا جاءكم منّا حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه»[1]. فهل يقبل القرآن عزل الأكراد ومقاطعتهم بعيداً عن روح تعاونوا على البر والتقوى؟ كلاّ، فالإسلام يقول: [إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا][2].

ثمّ نناقش الأمر علميّاً، هل صحيح أن الأكراد هم قومٌ من الجن؟ العقل الإنساني النزيه، وليس العقل المتعصب والطائفي، بل النزيه لا يقول إن الكرد قوم من الجن، ولا الفارسي، ولا الهندي، ولا العربي، بل يقول العقل إن الله خلقنا بمستوىً واحد، إذن لا بدَّ أن نعرض النصوص على العقل، يقبله أم لا؟ فما يرفضه العقل البشري يرفضه الإسلام أيضاً.

هذا هو موقع العقل والعلم في الإسلام وفي نظرية أهل البيت G بالخصوص، هناك عناية بالعقل والعلم، ومع الأسف هناك كتّاب في عالم الحداثة يجهلون فكر أهل البيت G ، ويتّهمون الشيعة بأنهم لا يولون العقل أهمية كبيرة، ويتهموهم بمصطلح اسمه (الغُنوصية)، أي: العقل المستقيل.

نقد محمّد عابد الجابري:

مثلاً الكاتب محمّد عابد الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي)، وهو يُعتبر من آباء الحداثة المادية، يستعرض الفكر الشيعي ويقول: (جميع الشيعة

---

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٢٧٥/ ذيل الحديث: ١١٦٩/ ٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

موقفهم تجاه العقل هو موقف سلبي وغنوصي، موقف العقل المستقيل)، ومن العجيب أن هؤلاء الكتّاب كيف تضيع عليهم الحقيقة، فأوّل من اهتم بالعقل هم شيعة أهل البيت G ، وأعطوه أهمية كبيرة، لكن هؤلاء الكتّاب يلقون الاتهامات على الفكر الشيعي من دون معرفة، ومن دون مراجعة إلى كتب الشيعة أنفسهم. شيعة أهل البيت G يدعون لاعتماد العقل: (ما حكم به العقل حكم به الشرع)، لكن شيعة أهل البيت يختلفون عن باقي المذاهب بأنهم لا يقبلون بالقياس التمثيلي، أو التشريع على أساس المذاقات العاطفية والتشابهات الشكلية. أهل البيت G قالوا: «إن دين الله لا يقاس بالعقول»[1]، أي: نتعبد بدين الله، صلاة الصبح ركعتان، ولا يمكن أن تصبح أربع ركعات؛ لأن دليل ذلك هو الوحي وليس العقل، وهذه دائرة ما وراء العقل، ولهذا فإن الإسلام يعتقد بوجود مصدرين للمعرفة، العقل والوحي، والآن فإن كثيراً من معلوماتنا قائمة على أسس عقلية، وكثيراً من معلوماتنا قائمة على أساس الوحي، ومعلوماتنا في الفقه الإسلامي مأخوذة من الوحي.

رواية يرويها ابن شبرمة ــ وكان قاضياً في زمن الحكم العبّاسي ــ يقول: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمّد الصادق C ، فسلَّمت عليه، وكنت له صديقاً، ثمّ أقبلت على جعفر C فقلت: أمتع الله بك، هذا رجل من أهل العراق له فقه وعقل.

---

(١) كما ورد في الأخبار المستفيضة إن لم يكن التواتر على النهي بالعمل بالرأي والقياس والاستحسان، حتّى صار ذلك من ضروريات المذهب، فمنها: ما رواه المفيد بإسناد صحيح عن زرارة بن أعين قال: قال لي أبو جعفر بن علي C : «يا زرارة إيّاك وأصحاب القياس في الدين، فإنهم تركوا علم ما وكلوا به، وتكلفوا ما قد كفوه، يتأولون الأخبار ويكذبون على الله ﷻ». الوسائل: كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي/ باب ٦/ ح ٤٣.

فقـال لـه جعفـر C : «لعلَّـه الـذي يقـيس الـدين برأيـه؟»، ثـمّ أقبـلَ عليَّ فقال: «هذا النعمان بن ثابت؟».

فقال أبو حنيفة: نعم، أصلحك الله.

فقال C : «اتقِ الله ولا تقِس الدين برأيك، فإن أوّل مَن قاسَ إبليس، إذ أمره الله بالسجود، فقال: [أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ](١)»(٢).

شبهات العلمانية:

كـان لـدينا حـديث عـن شـبهات العلمانيـة، العلمانيـة تقـوم علـى مثلّـث له ثلاثة أضلاع: دين بلا سياسة، ودين بلا شريعة، ودين بلا عبادة.

الضـلع الأوّل: أمّـا الـدين بـلا سياسـة، فمـن جملـة مـا يستشـهدون لـذلك: أن القـرآن الكـريم يقـول: ﴿فَـذَكِّرْ إِنَّمـا أَنْـتَ مُـذَكِّرٌ * لَسْـتَ عَلَـيْهِمْ بِمُصَـيْطِرٍ﴾(٣)، فأنـتِ يـا نبـي الله عملـك الـوعظ والإرشـاد، ومـا عليـك إلاّ أن تُبلّـغ، ﴿إِنْ عَلَيْـكَ إِلاَّ الْـبَلاغُ﴾(٤)، فهـذا معنـاه أنـك لا تكـون رئـيس دولـة، ولا سياسـياً، ولا تتـدخل بالشـؤون السياسـية، كـن مجـرد واعـظ ومرجعـاً دينيـاً تعطي فتاوى وأحكاماً شرعية.

هـذا الكـلام غيـر صـحيح طبعـاً؛ لأن هـذه الآيـات القرآنيـة هـي فـي سـياق آخـر غيـر السـياق الـذي ذكـروا، الآيـات تريـد أن تقـول: أيهـا النبـي، أنـت لـيس مُلـزم بـأن يهتـدوا، ﴿وَلَـوْ شـاءَ لَهَـداكُمْ أَجْمَعِـينَ﴾(٥)، بـل مسـؤوليّتك

(١) الأعراف: ١٢.
(٢) أمالي الطوسي: ٦٤٥/ ح ١٣٣٨/ ١.
(٣) الغاشية: ٢١ و٢٢.
(٤) الشورى: ٤٨.
(٥) النحل: ٩.

أداء الرسالة، وهذه الآيات إنما هي في نفي إلزام النبي بهداية الناس؛ لأن النبي 9 كان يتألّم لعدم هداية كثير من الناس، إلى أن نزل القرآن يقول: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾[1]، الهداية بيد الله، ﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾[2]، إذن هذه الآيات هي ليست في سياق نفي المسؤولية السياسية والإدارية والقيادية عن النبي 9 .

الضلع الثاني: وهو الدين بلا شريعة، قالوا: أحكام الشريعة من مثل وجوب القصاص، وحرمة الربا، ووجوب الزكاة، والخمس، وسائر أحكام الأحوال الشخصية هي أحكام وضعت لما قبل ألف وأربعمائة عام وكيف يحكم اليوم بشريعة وقد تغيّر الزمان؟ الشريعة ثابتة والواقع الخارجي متغيّر، من قبيل وسائط النقل التي تطورت في هذا الزمان، فلابدَّ أن تتطور معها حركتنا وأحكام السفر أيضاً، إذن ما هو ثابت لا يصلح للزمان المتغير، فلا بدَّ أن نغيّر الشريعة.

وهذه الشبهة أيضاً باطلة؛ لأن الشريعة الإسلاميّة فيها ثوابت، وفيها متغيرات، وفيها منطقة فراغ.

الثوابت هي الأحكام الثابتة بشكل مطلق مثل: ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾[3].

وهناك متغيّرات مثل: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[4] فهذه قاعدة متحركة تقول: إن التفاوت

---

(١) فاطر: ٨ .

(٢) طه: ١ و٢.

(٣) المائدة: ٣٨.

(٤) التوبة: ٣٤.

الفـاحش الطبقـي فـي الاقتصـاد الإسـلامي ممنـوع، ويجـب معالجتـه، أمّـا كيفيـة المعالجـة فهـي متغيّـرة بـاختلاف الزمـان، لكـن أصـل المبـدأ هـو حرمـة التفاوت الطبقي الفاحش حتّى لو كان المال قد جمع من الحلال.

ومثـال آخـر يقـول القـرآن: ﴿لا تَـأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْـنَكُمْ بِالْباطِـلِ إِلاَّ أَنْ تَكُـونَ تِجـارَةً عَـنْ تَـراضٍ﴾[1]، أي إن أمـوال النـاس محترمـة ومصـونة ولا يجـوز التعـدي عليهـا. هـذه قاعـدة عريضـة، وهـي أن الإسـلام يحـرّم العـدوان علـى أمـوال النـاس، عـن طريـق السـرقة، أو الصـكوك المـزورة، أو التلاعـب بالبضـاعة والمعاملـة، وهـذا يتشـكل بأشـكال مختلفـة ولكـن إذا جئـت إلـى القـرآن الكـريم فإنـك لا تجـد آيـة تتحـدّث عـن التفصـيل، وإنمـا القـرآن أكّـد الحكـم بصـيغته العامـة ﴿لا تَـأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْـنَكُمْ بِالْباطِـلِ إِلاَّ أَنْ تَكُـونَ تِجـارَةً عَـنْ تَـراضٍ﴾، هـذه قاعـدة ثابتـة، لكـن تفاصـيلها متحركـة فـي نفـس الوقـت باختلاف التطبيقات.

وهنـاك مـا يُسـمى فـي الفقـه الإسـلامي بمنطقـة الفـراغ، وهـذه خطـوط عريضـة رسـمها الشـارع للحيـاة الاجتماعيـة، وأنـت تتحـرك فـي داخـل هـذه الخطوط.

مـثلاً هنـاك دول نفطيـة لـديها وزارات نفـط، لكـن هنـاك دول لـيس لـديها نفـط، وإنمـا لـديهم قصـب السـكر، فهـم يشـكلون وزارة قصـب السـكر؛ لأن بضـاعتهم هـي قصـب السـكر، فـي مصـر مـثلاً هنـاك وزارة اسـمها وزارة القطـن، ولا يوجـد لـدينا فـي العـراق مثـل هـذه الـوزارة، فمصـر لـديهم الثـروة الزراعيـة الأولـى هـي القطـن، وهـذه قضـايا لا يتـدخل فيهـا الإسـلام، فهـذه

(١) النساء: ٢٩.

منطقة فراغ حسب استحقاقات الساحة الخارجية، الإسلام يقول أنتم في ضمن هذه المنطقة، لكن امشوا ضمن الضوابط العامة التي أضعها لكم.

في ضوء هذه الحقيقة سنعرف أن لا مشكلة لدينا أن تكون الشريعة ثابتة والواقع متغير طالما كان هناك أحكام ثابتة، وأحكام متغيّرة، ومنطقة فراغ، يتحرك فيها الإنسان حسب مستجدات العصر ووفقاً للضوابط العريضة التي وضعتها الشريعة الإسلاميّة.

الضلع الثالث: دين بدون عبادة.

وهذا يؤجّل إلى محاضرة لاحقة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السادسة والسبعون:

نقد الدين العلماني

«اللَّهُمَّ إِنّي بِذِمَّةِ الإِسْلام أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ وَبِحُرْمَةِ الْقُرْآنِ أَعْتَمِدُ إِلَيْكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

نقد نظرية الدين العلماني:

إننا نعتقد أن الدين دين إلهي، لكن هناك طرح حديث يحاول أن يُرضي المتدينين، فيقول: أنا أؤمن بالدين، وأتعامل مع الدين إيجابياً ولكن بفهم جديد للدين وعنوان جميل يرضى عنه المتدينون وغير المتدينين، اسمه الدين العلماني. وهذه محاولة إضفاء ثوب العلم وقدسيته على هذا المشروع، وهذا ما نُريد استعراضه ونقده في مقابل نظرية الدين الإلهي، [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ][1]، فهو إلهي، وهو وحيٌ مُنزّل من عند الله تبارك وتعالى، وسنقف عند هاتين النظريتين في سياق بحثنا عن العلم والعقل في الإسلام.

نحن نعتقد بوجود طريقين للمعرفة: العقل، والوحي. فإن بعض المعارف مستندة إلى العلوم والتجارب، وإلى استدلالاتنا العقلية، ولكن كثيراً من معارفنا واعتقاداتنا مستندة إلى الوحي، اعتقاداتنا بصفات الله، وبالقيامة، وبعالم ما بعد الموت، كل ذلك مستند إلى الوحي، وليس إلى استدلالاتنا العلمية.

لا تعارض بين العقل والوحي:

لكن السؤال: هل يوجد تعارض بين العقل والوحي؟

الجواب: لا، فالعقل له مساحات، والوحي له مساحات أخرى يتحرك فيها، وكل واحد ليس بالضد من الآخر، فما هي مساحات الوحي؟

---

(١) آل عمران: ١٩.

فلو قال قائل: أنتم تعتقدون بجبرائيل (الوحي)، فما هي المساحة التي يتحرك فيها ويعطيكم فيها معلومات، حتّى لا نعتمد في تلك المساحة على عقل أو تجربة؟ بعض العلماء يخلطون بين المساحتين، فتظهر النتيجة خاطئة، مثلاً: كنت أقرأ في كتاب (الفتوحات المكّية) لابن عربي _ ويُعتبر من العُرفاء والعلماء، الذي يقول الباحثون عن شخصيته إنه ما اختلف بعد الأنبياء في شخص مثل اختلافهم في ابن عربي، فواحد يعتبره (أبو الكفار)، والآخر يعتبره (أبو العُرفاء)، وكتابه (الفتوحات المكيّة) من الكتب الضخمة والمهمّة، ويعتبر من أُسس العرفان الإسلامي لدى المؤمنين به _ يقول في الجزء الأوّل[1] من كتابه: (إن عمر الطبيعة الكونية (٧١) ألف سنة من سنوات الدنيا). لكنه لا يقدّم دليلاً علمياً، لا تحليلاً للتربة، ولا طبقات الأرض، ولا دراسة عِظام حجريّة ولا غير ذلك من الأدلة العلميّة ولعلَّه اعتمد على معادلات كشفية.

في الوقت الذي تقول العلوم الحديثة _ وكما قرأت في كتاب (الموسوعة العلمية) لسمير شيخاني، وهو كتاب جيّد وعلمي _: نظرية العلماء الآن تكاد تكون متفقة على أن عمر الأرض (خمس مليارات وخمسمائة مليون سنة)، بحسب التحليل البيولوجي الطبيعي للأحجار والأتربة. وقد عثروا على عظام ديناصورات ترجع إلى (١٥٠) مليون سنة، فكيف استطاع كاتب مثل ابن عربي أن يستند إلى تحليلات ومعادلات ذهنية في مسألة هي خاضعة للبحث والتنقيب والكشف العلمي والتجربي.

---

(١) راجع صفحة: ١٢٢.

نحن نعتقد أن الحق مع العلم الحديث وليس مع ابن عربي؛ لأن ابن عربي تحرّك في مساحة من مساحات العلم، وليس من مساحات الغيب والوحي والتنبؤ بقضايا عرفانية، فالعقل لديه مساحات يتحرّك بها، والوحي له مساحات يتحرّك فيها، ويجب أن نعرف أين يتحرّك الوحي، وأين يتحرّك العقل.

مساحة حركة الوحي:

أوّلاً: التشريع الإلهي، مثل تحديد الصلاة ووقتها وعدد ركعاتها، فذاك ليس خاضعاً للتجربة والمختبر.

ثانياً: عالم ما وراء المادة، ما بعد الموت، الصِراط، الجنّة، النار، عالم الملائكة، فالعقل البشري غير قادر على أن يصِل إلى تلك الميادين، وهناك يتحرك الوحي ويقول إن هناك سبع سماوات، الجنّة للمتقين، وجهنم لها سبعة أبواب، فإذا حاول شخص أن يكشف هل أن النار لها سبعة أبواب أو عشرة، فهو غير قادر على ذلك؛ لأنه عالم ما وراء الرؤية وما وراء المادة. والوحي فقط هو الذي يحدّثنا عنها، هذا عمل الوحي. أو أن الجنّة لها ثمانية أبواب، فإن العقل أيضاً ومن خلال التجربة غير قادر على أن يعرف عدد أبواب الجنّة، وهكذا حينما يقول الوحي عن جهنم: [عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ][1]، فبإمكانك أن تسأل لماذا تسعة عشر؟ لكننا غير قادرين على اكتشاف لماذا تسعة عشر، وكل من حدّثك عن ذلك عن طريق البحث العلمي فحديثه غير صحيح؛ الموضوع أساساً هو خارج عن اختصاص العلم والبحث التجربي بل هو عالم نتعبد فيه بما جاءنا من

(١) المدثر: ٣٠.

عند الله تبارك وتعالى عن طريق الوحي، فنحن غير قادرين على الوصول إلى عالم الغيب واكتشافه بأدواتنا الحسّية والعقلية والتجريبية.

هذا من مساحات الوحي، لأنه ما وراء الرؤية والمادة.

العلم قادر على أن يكتشف المجرّات والكواكب؛ لأنه عالم داخل مساحة الرؤية، لكن فيما وراء الرؤية فإن العلم غير قادر على اكتشاف ذلك، إن معارف ما وراء الرؤية هي من مساحات الوحي.

إن مشكلة قدماء الفلاسفة أنهم أحياناً يتدخلون في مساحات غير مساحاتهم، كما هي مشكلة بعض علماء الطبيعة أن يتجاوزوا أحياناً مساحات حركتهم، كمن يريد أن يبحث عن الله في المختبر.

أهل البيت G أعطوا اهتماماً خاصاً بمساحة استخدام العقل ولملئ منطقة الفراغ، فالتشريع الإسلامي يبيّن كُبريات، وهي على مدى مئات السنين البشرية تحتاج إلى تطبيقات على الأرض، قوانين للمرور، والعمل، والاقتصاد، وهذه لا توجد جميعها في الشريعة الإسلاميّة، فالشريعة تعطيك كُبريات، تقول: السرقة والربا حرام، ولكن تحديد تفاصيلها على الأرض يحتاج إلى مجالس شورى هي السلطة التشريعية وهي ليس بالضد من التشريع الإلهي، ولكنها تتحرك في مناطق الفراغ الذي لم يعطنا الله فيه تشريعاً معيّناً، كقانون الضرائب، أو السفر، أو الجنسية، وهذه لا توجد في الإسلام، ولكن يأتي دور العقل ليملأ منطقة الفراغ، وهذه هي المساحة الأولى لحركة العقل.

المساحة الثانية لحركة العقل هي العلوم البشرية، كالطب، والهندسة، والفيزياء، والكيمياء، والصناعة، والتجارة، كل هذه العلوم هي من ميادين حركة العقل، والإسلام يدفع باتجاه استثمار العقل في هذه الميادين.

الرواية التي يرويها الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الباقر C تقول: «العلم خزائن، والمفاتيح السؤال ـ فعليك فتح هذه الخزائن بالسؤال والمراجعة ـ فاسألوا يرحمكم الله، فإنّه يُؤجر في العلم أربعة: السائل، والمتكلم، والمستمع، والمحب لهم»[(١)].

النظرية العلمانية:

نحن أبناء الفلسفة الدينية، فنعتقد بالدين، وبالوحي، إلى جانب الاعتقاد بالعلم والعقل، وهناك نظرية أخرى معروضة في هذا الزمان، اسمها الفلسفة العلمانية، والعلمانية ـ فيما هو المعروف ـ اشتقاق من العلم، أي يقولون: نحن أتباع العلم، ولسنا أتباع الدين، ـ كأن هناك تضاداً بين الدين وبين العلم!! ـ فإذا كنّا من أتباع العلم، إذن يجب أن لا نكون من أتباع الدين، وإذا كنّا من أتباع الدين، إذاً لا نكون من أتباع العلم، هذه تسمى (النظرية العلمانية) نسبة للعلم.

نناقش هذه النظرية في سياق حديثنا عن العلم، وموقع العقل في الإسلام انطلاقاً من قراءة دعاء الإمام زين العابدين C برواية أبي حمزة الثمالي عن أهمية مجالس العلم والعلماء، حينما يقول: «أو لعلَّك فقدتني في مجالس العلماء فخذلتني».

ما هو العقل؟

الإسلام يهتم بالعلم، ونحن في سياق الحديث عن العلم والعقل، والعلاقة بينهما وبين الدين، وقبل المناقشة هناك سؤال عن العقل ما هو؟،

---

(١) الخصال: ٢٤٥/ ح ١٠١.

هل هو تطور للمادة؟ أم هو وجود آخر تلاقَحَ مع المادة؟ فالطفل في بطن أُمّه ليس لديه عقل، وحين ولادته في الأسابيع الأولى والشهر الأوّل والثاني أيضاً ليس لديه عقل، وإنما يبدأ العقل وفهم القضايا المحيطة بالطفل بدءً من ابتسامة الأُمّ وغضبها، يدرك الطفل هذه المعاني، ويتطور العقل تدريجياً في سنواته الأولى، فالعقل هل هو تطوّر مادي فيزيقي في حركة الدماغ، أي هذه الأوعية الدماغية والخلايا، تتكامل في ضمن معادلات دقيقة تقفز المادة من كونها عجينة لا تفهم شيئاً وفي تطور نوعي إلى قدرة خاصة نسميها العقل، وتكون هذه العجينة قادرة على فهم ما هو أمامها، وفهم معنى الابتسامة والغضب، ومعاني كثيرة، وهذه العجينة الدماغية تطورت وقفز منها مولود جديد هو عبارة عن العقل، فهو عبارة عن وليد للمادة، وقفزة تكوينية للمادة، مثل الطائرة فهي تسير في مدرج المطار بسرعة إلى أن تطير فوق سطح الأرض، ولم تكن قادرة على الطيران قبل ذلك، والطيران هو عبارة عن تطور في طبيعة العلاقة بين جسم الطائرة والهواء وجاذبية الأرض وفق مجموعة قوانين وتفاعلات. وهذه القوانين والعوامل جعلتها قادرة على الطيران، وهكذا العقل هو عبارة عن قفزة وتطور في عالم المادة، حيث تتلاحم وتتكامل وتتعقد، وفجأةً ينبثق شيء جديد لا مادّي، ولكن هو قفزة في المادة، فنقول إن العقل هو وليد المادة.

أم إن العقل ليس وليد المادة، وإنما هو موجود خارج المادة وقبل المادة، وقبل أن يخلق الله الإنسان، وقبل أن نكون نحن، كان موجوداً في عالم الفضاءات اللاّمحدودة، اللاّمادية، وحينما يولد الإنسان تبدأ خلايا

الدماغ تتكامل ويكون لها استعداد أن تتلقى الطاقة العقلية القادمة إليها من الخارج، إذن ليست المادة هي التي ولّدت العقل، بل هي التي جذبت الإشعاع العقلي إليها. مثل المرآة التي أمامكم، فهذه المرآة ليست هي التي تولّد النور، بل هناك مصباح ينعكس نوره على المرآة، فهذه الأشعة هل هي ولادة المرآة؟ أم بالأصل هي موجودة خارج المرآة؟ وهذه المرآة فرقها عن التراب هو أن التراب لا يعكس الضوء؛ لأن جسمه ليس مصقولاً، وليس محتوياً على العناصر الفيزياوية التي تعكس ذلك النور وكلما تكون المرآة أكثر صقلاً يكون عكسها أقوى، فالعقل في النظرية الثانية كذلك، فليس العقل وليد المادة، وإنما العقل موجود كائن لا ماديّ في فضاء آخر يُسمّيه الفلاسفة عالم المعقولات، مثلما لدينا عالم آخر اسمه عالم الرواح.

وفي عالم المعقولات هناك العقل، وهو عبارة عن موجود عظيم جداً لا نستطيع أن نقدّره بالحجم المادي، بل هو أشرف وأجلّ منّا، وإذا تمكَّنت خلايا الدماغ في الإنسان أن تتركب بطريقة مصقولة بشكل جيد وليست بصورة مشوشة، فحينئذٍ يهبط عليها العقل، وتأخذ من تلك الاشعاعات تدريجيّاً، فالعقل هو هبوط من عالم المعقولات إلى عالم الماديات.

قد يبدو من النظرية الدينية أن العقل مجرد من المادة ومخلوق قبلها، ومخلوق قبل الإنسان، وقبل جميع الكائنات، وقبل العرش، واللوح والقلم. وأوّل ما خلق الله هو العقل، وهذا العقل العظيم جداً جاء الإنسان وأخَذَ جزءاً بسيطاً جداً منه ويختلف باختلاف الناس في مستوى عقلهم وعلومهم، وهنا نجمع مجموعة مؤشرات وأرقام نستعرضها ببساطة:

العقل في الرؤية الدينية:

١ ـ لدينا عدد من الروايات تقول: «أوّل ما خَلَق الله العقل» ويجمع هذه الروايات الشيخ الكليني في كتاب (أصول الكافي)، ومنها: ما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر C قوله: «لمّا خَلَق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر، فأدبر، ثمّ قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن اُحب، أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك اُعاقب، وإيّاك اُثيب»[١].

وهذه روايات يمكن اعتمادها واعتبارها مؤشراً على أن العقل مخلوق قبل الإنسان.

العقل والعوامل الروحيّة:

هناك حديث آخر عن رسول الله 9 يقول: «من قارف ذنباً فارقهُ عقلٌ لا يرجع إليه أبداً»[٢].

فالعقل يريد وعاءً نظيفاً بعيداً عن المعصية، ولهذا في الرواية عن الإمام الصادق C حين سألوه وقالوا له: ما العقل؟ قال: «ما عُبِدَ به الرحمن واكتُسِبَ به الجنان»، قيل: فالذي كان في معاوية؟ قال: «تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بعقل»[٣].

الإنسان عندما يصبح داهية وجبّاراً فليس بالضرورة أن يكون عاقلاً، وإنما العقل الذي يوصلك إلى الجنان والفوز، هذا هو العقل، أما

---

(١) الكافي ١: ١٠ و١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ١ و١٤.

(٢) المحجّة البيضاء ٨: ١٦٠.

(٣) معاني الأخبار: ٢٤٠/ باب معنى العقل/ ح ١.

أن تكون ذكياً وتكون جباراً ولكنك عاصٍ وبعدئذٍ تكون من أهل النار، فأيّ عقل هذا؟ هذا جهل وشيطنة، فتستطيع أن تفهم من هذا الحديث أن العقل والمعاصي لا يشتركان.

إذن، العقل كائن طاهر زكي لا يجتمع بالمعاصي.

هناك عالِم من العلماء درس ثلاثين سنة فأصبح فقيهاً، فلمّا عادَ إلى قومه قال: أنا على هذا البحث والتحصيل وعلى هذه الدراسة سأصبح أعلَم أهل المنطقة.

فقال له أحدهم: أنت شأنك سوف لا يزيد على بقّال من بقالي المنطقة!

قال: كيف؟

قال: البقال إذا ضُرب مِن خلفه لا يعرف مَن ضَربه إلاّ إذا أدار وجهه إليه، فهل تعرف أنت من يَضربك من الخَلف دون أن تدير وجهك له؟

قال: لا.

قال: فأنت بمستوى هذا البقال.

فالدراسة في هذه المدة الطويلة يجب أن تكشف لك درجة من درجات الغيب، أما الآن فأنت مستواك بمستوى بقية الناس، فهذه الدراسة ظاهرية، والعلم الحقيقي هو ما كان لرسول الله 9 ، حيث كان يرى مِن خَلفه كما يرى مِن أمامه وعن يمينه وعن شماله[1]، العالِم الإلهي يجب أن يقفز قفزات كبيرة جدّاً تجعله يفترق عن باقي الناس في فهمه للحقائق ومعرفته بها، وهكذا أولياء الله.

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ٣: ٣٨٦.

علاقة العلم إذن بمفاعلات روحية، وليس بمفاعلات مادية.

الإمام الباقر C يقول: «إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم»[١]. فليست المسألة مسألة دراسية، القفزة المعنوية الإنسانية الحضارية التي ستكون بقيام إمام العصر والزمان C هي ليست قفزة على أسس مادية، بل قفزة مرتبطة بعالم السماء والغيب، وعالم ما وراء الرؤية، تطورت العقول واهتدى الناس، فهل الذرّات الدماغية التي هي عبارة عن (١٠) بليون خليّة دماغية، تتكاثر كي تزيد علومهم؟ وهؤلاء الناس الذين يهتدون هل أن خلايا دماغهم أكثر من غيرهم؟ الجواب: لا، وإنما هؤلاء لديهم نور من الله تعالى، «وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم»[٢]، و«العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[٣].

عيسى C كان يقول للميّت: قم، فيقوم، وليست المسألة طبّية، لكن لأن الروح هي من جنس آخر، فعالِم الروح يأتي بالروح، والعقل هكذا أيضاً مرتبط ارتباطاً خيطياً بالمادة، لكنه في الحقيقة جوهرة أخرى غير مادية، تتأثر بالطاعات، وتتأثر بالمعاصي أيضاً. كن من أهل الطاعات سترى أن طريقك أصبح مضيئاً [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ][٤]، وإذا كنت من أهل المعاصي سيكون طريقك مظلماً. هذه هي النظرية التي يمكن أن نفهمها من الإسلام، أنّ العقل هو موجود فوق المادة، يهبط عليها،

---

(١) الكافي ١: ٢٥/ كتاب العقل والجهل/ ح ٢١؛ كمال الدين: ٦٧٥/ باب ٥٨/ ح ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مصباح الشريعة: ١٦.

(٤) البقرة: ٢٨٢.

ويرتبط بها، مثل نظرية الروح في الإسلام، فهل هي قفزة وتطور مادي، أم هي عبارة عن هبوط من عالم الأرواح إلى هذه المادة التي أصبحت ذات استحقاق وقدرة على أن تلج فيها الروح؟

أنظروا إلى التعبير الديني والعربي ماذا يقول: (إذا وَلجته الروح)، أي دَخَلت فيه، فالروح هي كائن آخر يدخل في البدن، آدم كيف كان **[وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي]**[1]، هو نفخة من روح الله تبارك وتعالى، فالروح كائن مفصول لكنه يرتبط فيما بعد بالبدن. ولهذا نعتقد أنه بعد الموت تبقى الروح ويبقى العقل فيما يفنى البدن والمادة.

الرواية عن الإمام الكاظم C قال: «إن الله أيَّد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقتٍ يُحسن فيه ويتقي، وتَغيبُ عنه في كل وقتٍ يُذنب فيه ويَعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعَمه بإصلاح أنفسكم»[2].

متى قمتَ بإحسان أو صَدقة، أو كلمة طيبة، تقول الرواية: الله تبارك وتعالى يبعث لك روحاً جديدة تؤازرك وتساندك، وتلك الروح تغيب عنك إذا قمت بمعصية، «وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه»، كل واحد منكم هناك روح تسير إلى جانبه، فإذا أحسَن فإنّ هذه الروح تَهتز سروراً، وإذا ارتكب معصيةً فإن تلك الروح تسيخُ في الأرض، وتذهب إلى عمق الأرض وتقول: يا ليتني غير موجودة، لأرى هذا المرافق لي وهو يرتكب هذه المعصية.

---

(١) الحجر: ٢٩.

(٢) الكافي ٢: ٢٦٨/ باب الروح الذي أيّد به المؤمن/ ح ١.

أنتم لا ترون العالم الذي من حولكم، وهو مملوء بوجود لا مادّي محيط بكم هو الذي يكتب لكم سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

مثلاً هذا الوضوء الذي لا نعرف قدره، يقول فيه أمير المؤمنين C لابنه محمّد ابن الحنفية: «من توضأ مثل وضوئي وقال مثل قولي، خَلَق الله من كل قطرة مَلَكاً يقدّسه ويسبّحه ويكبّره، ويكتب الله تعالى له ثواب ذلك إلى يوم القيامة»[1]، ذلك هو العالَم المحيط بنا، ونحن الذين نؤمن بالغيب نعتقد بأن الإنسان المؤمن يستغفر له ملائكة السماء والأرض، [الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ][2] ، الملائكة الذين يحملون العرش، يقول عنهم القرآن الكريم: [يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ][3]، هل نصدّق بأن الملائكة حولنا يستغفرون لنا؟ ويدعون الله تعالى لنا؟

في زيارة الإمام الحسين C أربعة آلاف مَلَك يستقبلون الزوّار، ويشيّعون موتاهم، ويَعودون مرضاهم، ويحضرون عند قبره يستغفرون له إلى يوم القيامة[4]، هذه عوالم ما وراء الرؤية، فالإمام يقول: نحن نؤيد تلك الروح بالطاعة لله والعمل له.

---

(١) ثواب الأعمال: ١٦.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الشورى: ٥.

(٤) عن أبي بصير، عن أبي جعفر C قال: «أربعة آلاف ملك شُعث غُبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحد إلاّ استقبلوه، ولا يمرض أحد إلاّ عادوه، ولا يموت أحد إلاّ شهدوه». (كامل الزيارات: ١٧٤/ ح ٢٣١/ ١١).

أسس الفلسفة العلمانية:

أستعرض الآن بشكل سريع أسس الفلسفة العلمانية.

هناك كاتب اسمه عادل ظاهر له كتاب وربما هو من أهم الكتب في هذا المجال، اسمه (أسس الفلسفة العلمانية)، يذكر فيه أن الفلسفة العلمانية لها مجموعة أسس أهمها ثلاثة:

أوّلاً: العقل أسبق من الوحي ولأجل ذلك يجب اعتماد العقل بدل الوحي. والجواب على هذا الكلام أن مرحلة الطفولة أسبق من المراهقة، ومرحلة الجهل أسبق من مرحلة العلم، لكن هل يجوز ويُعقل أن نبقى على جهلنا بحجة أن الجهل أسبق من العلم؟ لنفترض أنه لولا العقل لما كنّا نستطيع اكتشاف الوحي، لكن نحن لا نؤمن بالتقاطع بين العقل والوحي حتّى تقول: إن العقل أسبق، لذلك يجب أن نترك الوحي!

ثانياً: أن الوحي هو تجربة ذاتية لرسول الله 9 وهي معلومات نسبية وليست مطلقة، وإذا كان كذلك فهي تجربة ليست معصومة، ولسنا ملزمين بمتابعتها، وربما يكتشف العقل البشري ما هو أكثر صواباً منها.

والجواب على هذه الشبهة: أن الوحي ليس هو تجربة ذاتية للنبي 9 كما هو شأن التجارب العلمية للعلماء، وإنما هو مصدر آخر من خارج الذات النبويّة مرتبط بالله تعالى [عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً][1]، فالمعلومة التي تصل النبي عن طريق الوحي هي معلومة صادقة ومطلقة.

---

(١) الجن: ٢٧ و٢٨.

ثالثاً: أن عطاء هذا الوحي لا يوجد بيننا وبينه ارتباط مباشر، وإنما هي روايات أصبحنا نستلمها عبر مئات السنين، وهذه الروايات أصبح فيها الصادق والكاذب، لذا فقد ضاعت علينا الحقيقة، وعلينا أن نرجع إلى أبحاثنا العلميّة واستدلالاتنا العقلية فذاك أفضل من اعتماد الروايات الخليطة والمتضاربة والتي لا يمكن الوثوق بها.

والجواب على هذه الشبهة واضح، فالقرآن ليس ضائعاً علينا **[**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**]**(١)، وسُنّة رسول الله 9 وأهل البيت G أيضاً ليست ضائعة علينا، فما صدر منهم وصل لنا، نعم هو بحاجة إلى غربال وتمييز، وهذا هو دور العلماء ومسؤوليتهم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) الحجر: ٩.

المحاضرة السابعة والسبعون:

نظرية بقاء الأصلح

«اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِصَالِح مَنْ مَضَى، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِح مَنْ بَقِيَ، وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الـذي سـنتحدّث عنـه اليـوم يـرتبط بنظريـة البقـاء للأصـلح أو الأقـوى، فهنـاك بحـث علمـي فـي أن مسـيرة هـذه الحيـاة الـدنيا وتطـوّر الأنـواع فيهـا تعتمـد علـى قـانون (البقـاء للأقـوى) أم قـانون (البقـاء للأصـلح)؟ وقـد لا يكون أقوى، ولكنه أصلح.

اليـوم تلفتنـا عبـارة جميلـة جـدّاً فـي دعـاء الإمـام زيـن العابـدين C ، تركّـز علـى نظريـة الصـلاح والأصـلح، والصـالح والصـالحين: «اللَّهُـمَّ أَلْحِقْنِـي بِصَالِحِ مَنْ مَضَى، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحِ مَنْ بَقِيَ، وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِي بِمَا تُعِينُ بِهِ الصَّالِحِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ».

وهـذه الأربـع جمـل فـي غايـة الجمـال مـن حيـث المـداليل، فكلهـا تتكلم عن الصلاح.

الهدف هو بناء الإنسان الصالح:

إذن، الفكـرة الجوهريـة التـي يبحـث عنهـا الإسـلام ويـدعونا للاقتـداء والاتجـاه نحوهـا هـي فكـرة نمـوذج الإنسـان الصـالح، أي: لـو سُـئل شـخص الآن: مـا النمـوذج الـذي تُريـد أن تكـون عليـه؟ لأن الـذي تريـده فـي الـدنيا سـوف تحصـل عليـه فـي الآخـرة، تريـد أن تحشـر مـع الأنبيـاء والمرسـلين؟ أم مع المغنّين والمطربين؟ هذا اختيارك.

فهذا الدعاء يقول: إلهي أنا أريد أن أكون من الصالحين، ولا شيء آخر،

[فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ][١]، فيا إلهي أريد أن أكون في قطار الصالحين، والصالحون هم الفائزون، [لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ][٢].

سأقرأ بعض الآيات المؤشرة على أن الإسلام يجعل المثل الأعلى والنموذج الذي يريد أن يكون عليه الإنسان هو نموذج الإنسان الصالح، فإذا تأمّلنا في القرآن الكريم نجده مليأ بآيات تدّلك على أن النموذج المطلوب في الدنيا، والنموذج الفائز في الآخرة هو نموذج الصالحين، أقرأ لكم بعض الآيات:

[جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ][٣]، تقسيم الناس في القرآن ليس على أساس عرب وعجم وكرد وما شاكل، ولا على أساس أغنياء وفقراء، ولا على أساس القوي والضعيف، وإنما التقسيم على أساس الصالحين وغير الصالحين، خير البرية وشرّ البرية.

القرآن يقول: [مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ][٤]، وهذا هو التقسيم الذي يقبله القرآن، اذهب إلى عمق التاريخ، لا تجد إلاّ خطّين متوازيين في الحياة: خط الصالحين، وخط الفاسقين. وخط الصالحين يدخل في مختلف القوميّات ومن مختلف الأمم والطبقات [أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ][٥]، وخط الفاسقين أيضاً تجد فيه مختلف القوميّات والأمم [أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ][٦].

---

(١) النساء: ٦٩.
(٢) الحشر: ٢٠.
(٣) الرعد: ٢٣.
(٤) الأعراف: ١٦٨.
(٥) البينة: ٧.
(٦) البينة: ٦.

يقول الله تعالى: [وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ][١]، أي إن الأرض يرثها من هو الأصلح.

والأنبياء كان دعاؤهم: [رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ][٢].

ولهذا يقول القرآن الكريم عن إبراهيم C : [وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ][٣]، ولهذا كان الصالحون في الآخرة هم الفائزون.

وسنعرف من هذا كما أن الناس في الدنيا على أُمّتين صالحين وفاسقين، فهناك في الآخرة أُمم منهم الفائزون ومنهم الخاسرون، يقول القرآن: [وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا][٤]، إذن فالحشر هناك على شكل أُمم وشعوب، ولكل أمّة كتابها، ولكن القرآن أحياناً يتحدّث عن الأفراد فيقول: [وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ][٥]، أي كل واحد لديه كتاب معلّق في رقبته، ولهذا فيهم أصحاب اليمين، [فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ][٦]، وفيهم أصحاب الشمال، [وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ][٧]، لكن القرآن الكريم يقول إن المعاملة هناك ليست معاملة فردية فقط، بل هي معاملة أُمم، هناك فرد يُعطى كتابه، وهناك أمّة تُعطى كتابها، [وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ][١]، ففي

---

(١) الأنبياء: ١٠٥

(٢) الشعراء: ٨٣ .

(٣) البقرة: ١٣٠.

(٤) الجاثية: ٢٨.

(٥) الإسراء: ١٣.

(٦) الحاقة: ١٩.

(٧) الحاقة: ٢٥.

(١) الجاثية: ٢٨.

الـدنيا أُمـم، وفـي الآخـرة أُمـم، والقـرآن الكـريم يقـول يجـب أن تكونـوا مـن أمّة الصالحين.

مقياس الصلاح:

ما هو مقياس الصالحين؟

تقـرأ أحيانـاً فـي بعـض الحـوادث الغربيـة أن فـلان مليـونير خلّـف بعـد مماتـه تركـة (٥٠) مليـون دولار وأوصـى بهـا إلـى قطـة مـن قططـه فـي البيـت، فهـل يُعتبـر هـذا مـن العمـل الصـالح وأنـه مـن الصـالحين، رغـم أن النـاس فـي بلاد العالم في فقر وشدائد.

فالقرآن الكريم يضع شرطين للإنسان الصالح هما الإيمان والعمل الصالح.

[إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أُولَئِـكَ هُـمْ خَيْـرُ الْبَرِيَّـةِ][1]، العمـل الصالح هو العمل الإنساني الذي فيه خدمة للآخرين.

قصة الأصفهاني:

وبـودي أن أروي لكـم هنـا قصـة شـخص مـدفون فـي مدينـة مشـهد اسـمه (حسـن علـي الأصـفهاني)، وهـو صـاحب كرامـات عجيبـة، والنـاس الـذين يـذهبون إلـى قبـره فـي صـحن الإمـام الرضـا C يطلبـون حاجـاتهم هنـاك، فهـو شـخص لـه منزلـة عنـد الله تعـالى ولـه كرامـات عجيبـة فـي قضـاء حاجات الناس، وكان عارفاً من العرفاء.

يقول حسن علي الأصفهاني: ذهبنا مرة إلى الحج، وكانوا يأخذون منّا ضريبة، وكنّا نسلُك الطريق الترابي؛ كي لا نعطي ضريبة، وقبل أن نصل إلى مكّة

---

(١) البينة: ٧.

قبضت نقطة سيطرة، وقالوا لا تعبروا إلاّ أن تدفعوا ضريبة، والجماعة الذين معي كل واحد منهم أحضَر ماله، إلاّ أنا، فلمّا رأوني قالوا: وأنت؟

قلت: ليس معي مال.

فقالوا: إذن سوف يرجعونك إلى مدينتك.

قلت: ليَ الله تعالى، وهو أكبر من كل شيء. وكانوا يقولون: هذا الشيخ قد خَرف، وفي اللحظة جاء فارسان على خيول ومعهم فرس ثالث، فقالوا: مَنْ منكم الشيخ حسن علي الأصفهاني؟

قلت: نعم.

قالوا: تعالَ معنا فإن الملك يريدك. واتَضح أنَّ المَلِك كان له حاجة، وقد جمع العلماء ومن جملتهم الشيخ فضل الله النوري ـ وهو من كبار علماء إيران أيام ثورة المستبدة والمشروطة في إيران ـ فقال المَلِك للشيخ النوري: لي حاجة، قلت له: حاجتك بيد الشيخ حسن علي الأصفهاني.

فقال: أين هو؟

فقالوا له: هو في طريق المشآة ذاهباً إلى مكّة، فأمر الملك أتباعه بالبحث عن حسن علي الأصفهاني حتّى وجدوه في هذه النقطة، فأجازوه ودخل مكّة بلا ضريبة.

والسؤال كيف يكون الإنسان من الصالحين؟

القرآن الكريم يبيّن ذلك فيقول: [يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ][1]، هذا هو المنهج الإسلامي لكي تصبح من الصالحين، وسنكتشف من هذا العرض المبسّط جداً

(١) آل عمران: ١١٤.

أن الإسلام يؤمن بنظرية أن البقاء للأصلح، ليس فقط في الدنيا، ولكن في الآخرة أيضاً، نحن نريد البقاء في الحياة الأبدية، الله تعالى خلقنا للبقاء ولم يخلقنا للفناء، الفناء في الدنيا، والبقاء في عالم الآخرة، ونحن نريد أن نكون من الباقين، [وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ][1]، وإذا كان الإنسان في الآخرة من الصالحين فهو من الفائزين.

ما هي أسس الالتحاق بالصالحين؟

نقول في الدعاء: «اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِصَالِحِ مَنْ مَضَى»، فما هو الطريق ليكون الإنسان ملتحقاً بالصالحين؟ هل الطريق هو النَسَب، أو غيرها من علاقات سببية؟ لا، بل هو العمل الصالح والعقيدة الصحيحة، اعتقد بعقيدة الصالحين واعمل عمل الصالحين فإنك يوم القيامة تحشر معهم «من أحبّ قوماً حُشِر معهم، ومن أحب عَمل قوم أُشرك في عملهم»[2]، فيوم القيامة يكون الحشر على أساس الهوى وعلى أساس المعتقد.

ولهذا فإن الله تعالى أجاب نوحاً حينما قال: [رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ][3]، فأجابه تبارك وتعالى: [إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ][1]، هذا ليس من أهلك ولا يمكن أن يلتحق بك؛ لأن العلاقات الأُخروية ليست علاقات نسب، العلاقات عند الله غير علاقات الدنيا. في يوم القيامة هناك شيء يلتحق بشيء وفقاً للتجانس في

---

(١) البقرة: ١٣٠.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ١٠٨/ ح ١٣٦٤٨/ ٢.
(٣) هود: ٤٥.
(١) هود: ٤٦.

الهويّـة والتشـابه فـي العمـل. فهنـاك آبـاء تلتحـق بالأبنـاء، وهنـاك ذريـة تلحـق بآبائهم، يعني مرّة الآباء يشفعون للأولاد، ومرّة الأولاد يشفعون للآباء.

الرواية عن الإمام الصادق C تقول: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلاّ ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، أو سُنّة هدىً يُعمل بها بعده، أو وَلدٌ صالح يدعو له»[1]، واحدة من الأعمال التي تبقى للإنسان هي الولد الصالح الذي يشفع لأبيه يوم القيامة.

قصة مالك بن دينار:

مالـك بـن دينـار ــ وهـو شخصـية معروفـة فـي التـاريخ ــ كـان فاسـقاً، ثـمّ صـار مـن التـائبين، يقـول: اشـتريت جاريـة نفيسـة، ووقعـت منّـي أحسـن موقـع، فولـدت منّـي بنتـاً، فشـغفتُ بهـا ــ أي: أحببتهـا حبّـاً شـديداً ــ، فلمـا تـمَّ لهـا سـنتان ماتـت، فأكمـدني حزنهـا، فلمـا كانـت ليلـة النصـف مـن شـعبان وكانـت ليلـة جمعـة نمـت فرأيـت فـي منـامي كـأن القيامـة قـد قامـت، وحُشـر الخلائـق وأنـا معهـم، فسـمعت صـوتاً، فالتفـتُّ فـإذا بتنّـين عظـيم أسـود أزرق قـد فـتح فـاه مسـرعاً نحـوي، ففـرت منـه هاربـاً فزعـاً مرعوبـاً، فمـررت فـي طريقي فإذا أنا بشيخ نقي الثياب طيّب الرائحة، فسلَّمت عليه فردَّ السلام.

فقلت له: أيها الشيخ أجرني من هذا التنّين أجارك الله، فبكى وقال: أنا ضعيف، وهـذا أقـوى منّي. فولّيـت هاربـاً على وجهـي، فأشـرفتُ على طبقـات النيـران، فَكِدتُ أهـوى فيهـا مـن فزعـي، فصـاح صـائح: ارجع، فلسـتَ مـن أهلهـا، فاطمأننـت ورجعـت، ورجـع التنّين في طلبي، فأتيتُ الشيخ فقلت: سألتك أن تجيرني من هذا التنّين فلم تفعل، فبكى وقال: أنا ضعيف، ولكن سِر إلى هذا

---

(١) الكافي ٧: ٥٦/ باب ما يلحق الميت بعد موته/ ح ٢.

الجبل، فإنَّ فيه ودائع للمسلمين، فإن لك فيه وديعة فتنصرك، فنظرت إلى جبل مستدير من فضة فيه ستور معلَّقة على كل طاقة مصراعان من الذهب الأحمر مفصّلة بالياقوت، مكفوفة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل هرولت إليه والتّنين من ورائي، حتّى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع، فرأيت أطفالاً كالأقمار، وقَرُب التّنين منّي، فَحِرتُ في أمري، فقال بعض الأطفال: وَيحكم أشرفوا كلكم، فقد قرُبَ منه عدوه. فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا بابنتي التي ماتت قد نظرت إليَّ وَبَكت، وقالت: أبي والله. ثمّ وثبت حتّى صارت عندي، ومدَّت يدها الشمال إلى يدي اليمين فَعلِقتُ بها، ومدّت يدها اليمين إلى التّنين فولى هارباً، ثمّ أجلستني وقعدت في حجري، وضربت بيدها اليمين إلى لحيتي، وقالت: يا أبت، [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ][1]، فبكيت وقلت: أنتم تعرفون القرآن؟

فقالت: نحن أعرف به منكم أيها الأحياء.

فقلت: فأخبريني عن التّنين الذي أراد أن يهلكني؟

قالت: ذاك عملك السّيئ، قوّيته فأراد أن يغرقك في نار الجحيم.

قلت: فالشيخ؟

قالت: ذاك عملك الصالح، أضعفته حتّى لم يكن له طاقة بعملك السّيئ.

فقلت: يا بنيّة! ما تصنعون في هذا الجبل؟

قالت: أطفال المؤمنين قد أُسكِنوا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، فانتبهت فزعاً مرعوباً، فكسرت آلات

(١) الحديد: ١٦.

المحرّمة وتركت جميع ذلك، وعقدتُ مع الله توبة نصوحاً، فتاب عليَّ سبحانه، وقبل توبتي[١].

أنظر! الذرية تشفع للآباء، وأحياناً الآباء تشفع للذرية، عالم القيامة هو عالم علاقات متبادلة، ابنٌ أو أبٌ صالح يشفع لك، لكن ماذا يحتاج هذا الأمر؟ يحتاج إلى إيمان، يضاف إليه العمل الصالح.

الإنسان في الدنيا قد يكون غافلاً بشكل مطلق عن الآخرة، وحتّى إذا وصل للموت فهو غافل عن الآخرة.

والشيخ الأصفهاني الذي ذكرناه في حديثنا كان لديه قدرة على اكتشاف عالم ما وراء المادة، كان يمرُّ على حمّام من الحمّامات، وكلّما مرَّ على ذاك الحمّام كان يقول: (لا حول ولا قوة إلاّ بالله)، وتغلب عليه حالة الأسى والأذى، فقالوا له: يا شيخ، ماذا ترى؟

قال: صاحب هذا الحمام مات قبل مدّة، لكنه ما زال يفكّر في الدنيا وهو جالس على باب الحمّام وروحه تنوح على أمواله التي تقاسمها ذريته.

وذات مرّة أخذ معه شخصاً إلى القبور وقال له: ضع أذنكَ على القبر واسمع ماذا يقول؟ فوضع أُذُنه، فسمع صاحب القبر ينادي: (خيار جديد)، فأخذَه إلى آخر وقال: اسمع هذا، فسمعَه يقول: (لا حول ولا قوة إلاّ بالله).

قال: ما هذا؟

قال: بائع الخيار ماتَ منذ سنين، لكنّ عقله وروحه في الدنيا، والثاني كان من أهل الله، من أهل الذكر وهو بعد مماته يذكر الله. فنحن لو كُشِف لنا الغطاء لرأينا أشياء عجيبة وغريبة في وادي السلام.

---

(١) كتاب التوّابين لابن قُدامة: ٢٠٣؛ كشف الخفاء للعجلوني ١: ١٣٦/ ح ٣٩٢.

قصة حبّة العَرَني:

حبّة العرني يقول: خرجت مع أمير المؤمنين C إلى الظَهر ـ وهو ظهر الكوفة أي النجف ـ فوقف بوادي السلام، كأنه مخاطبٌ لأقوام، فقمت بقيامه حتّى أعييتُ ـ تعبت ـ، ثمّ جلست حتّى مَللتُ، ثمّ قمتُ حتّى نالني مثل ما نالني أوّلاً، ثمّ جلست حتّى مَللتُ، ثمّ قمتُ وجمعت ردائي.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إني قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحة ساعة! ثمّ طرحت الرداء ليجلس عليه.

فقال لي: «يا حبّة، إن هو إلاّ محادثة مؤمن أو مؤانسته».

قلت: يا أمير المؤمنين، وإنهم لكذلك؟!

قال: «نعم، ولو كُشِف لك لرأيتهم حَلَقاً حَلَقاً محتبين[١] يتحادثون».

فقلت: أجسامٌ أم أرواح؟

فقال: «أرواح، وما مِن مؤمنٍ يَموت في بقعة مِن بقاع الأرض إلاّ قيل لروحه: الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جَنّة عدن»[٢].

الإمام الصادق C يقول في شهر رمضان: «وكونوا مشرفين على الآخرة»[١]، أي رغم أنّكم لا تَروْنَ الآخرة، لكن كونوا مشرفين عليها.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) محتبين: من احتبى بالثوب: اشتمل، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٢) الكافي ٣: ٢٤٣/ باب في أرواح المؤمنين/ ح ١.

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٢.

المحاضرة الثامنة والسبعون:

أصالة الإنسان

أم

أصالة الحقّ

«سَيِّدِي أَنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ، وَأَنَا الْجَاهِلُ الَّذِي عَلَّمْتَهُ، وَأَنَا الضَّالُّ الَّذِي هَدَيْتَهُ، ...».

بسم الله الرحمن الرحيم

نتحدّث اليوم عن العلاقة بين الله ﷻ وبين الإنسان، هل هي علاقة تقاطع، أم علاقة تواصل؟

هناك بحث ساخن في العالم السياسي والاجتماعي، تحت عنوان (أصالة الإنسان)، وهو من أهم أسس الليبرالية المعاصرة، الليبرالية بمعنى حرية المعتقد الفكري، والديمقراطية بمعنى حرية الموقف السياسي، في العالم السياسي هناك ديمقراطية بمعنى الحرية السياسية وفي العالم الثقافي هناك ليبرالية بمعنى حرية الاعتقاد.

هذه النظرية التي يعتمدها العالم الغربي اليوم تنطلق من أساس فلسفي هو (أصالة الإنسان) وسينعكس هذا على ماهيّة العلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان، علاقة تقاطع أم علاقة محبة وصداقة؟

علاقة المحبّة:

نحن نقول إن العلاقة بين الله ﷻ وبين الإنسان هي علاقة محبّة، «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُجِيبُنِي حِينَ أُنَادِيهِ، وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وَأَنَا أعْصِيهِ، وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلا أُجَازِيهِ، فَكَمْ مِنْ مَوْهِبَةٍ هَنِيئَةٍ قَدْ أعْطَانِي»، «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَحْلُمُ عَنِّي حَتَّى كَأَنِّي لا ذَنْبَ لِي، فَرَبِّي أحْمَدُ شَيْءٍ عِنْدِي وَأَحَقُّ بِحَمْدِي»، لاحظوا علاقة المحبة: «إِلَهِي لَو قَرَنْتَنِي بالأَصْفَادِ وَمَنَعْتَنِي سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأشْهَادِ وَدَلَلْتَ عَلَى فَضَائِحِي عُيُونَ الْعِبَادِ وَأَمَرْتَ

بِي إِلَى النَّارِ وَحُلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَبْرَارِ مَا قَطَعْتُ رَجَائِي مِنْكَ وَمَا صَرَفْتُ تَأمِيلِي لِلْعَفْوِ عَنْكَ وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبِي» هذه علاقة محبّة وتواصل وتكامل، الإنسان يتكامل مع الله تبارك وتعالى، الله يأخذ بيده خطوة خطوة، مثل علاقة الأب مع الابن، فعندما نقول: (أصالة الابن) فليس معناها الوقوف ضدّ الأب، أو تقول: (قيمومة الأب) فليس معناها الوقوف ضدّ الابن، حينما تقول: الأب هو ولي الأمر على الأسرة، فليس ذلك بالضدّ من حرية الابن، لكن الليبرالية تطرح مغالطة تُسمّيها: (أصالة الإنسان) وكأن الله ضدّ الإنسان والإنسان ضدّ حاكمية الله.

لننظر أدب الدُعاء كيف يُصوّر العلاقة بين الله وبين الإنسان، علاقة محبّة وتواصل، وليس علاقة تقاطع: «سَيّدِي أنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ، وَأنَا الْجَاهِلُ الَّذِي عَلَّمْتَهُ، وَأنَا الضَّالُّ الَّذِي هَدَيْتَهُ، وَأنَا الْوَضِيعُ الَّذِي رَفَعْتَهُ، وَأنَا الْخَائِفُ الَّذِي آمَنْتَهُ، وَالْجَائِعُ الَّذِي أشْبَعْتَهُ، وَالْعَطْشَانُ الَّذِي أرْوَيْتَهُ، وَالْعَارِي الَّذِي كَسَوْتَهُ، وَالْفَقِيرُ الَّذِي أغْنَيْتَهُ، وَالضَّعِيفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ، وَالذَّلِيلُ الَّذِي أعْزَزْتَهُ، وَالسَّقِيمُ الَّذِي شَفَيْتَهُ، وَالسَّائِلُ الَّذِي أعْطَيْتَهُ».

«اللَّهُمَّ إنّي أجِدُ سُبُلَ الْمَطَالِبِ إلَيْكَ مُشْرَعَةً، وَمَنَاهِلَ الرَّجَاءِ لَدَيْكَ مُتْرَعَةً، وَأبْوَابَ الدُّعَاءِ لِمَنْ دَعَاكَ مُفَتَّحَةً».

«سُبْحَانَ مَنْ لا يَعْتَدِي عَلَى أهْلِ مَمْلَكَتِهِ، سُبْحَانَ مَنْ لا يُؤَاخِذُ أهْلَ الأرْض بِألْوَانِ الْعَذَابِ، سُبْحَانَ الْحَنَّانِ الْمَنَّانِ، سُبْحَانَ الرَّءُوفِ الرَّحِيم، سُبْحَانَ الْجَبَّارِ الْجَوَادِ، سُبْحَانَ الْكَرِيم الْحَلِيم، سُبْحَانَ الْبَصِير الْعَلِيم».

فهذه العلاقة جميلة، وعلاقة عشق بين طرفين، «تَتَحَبَّبُ إلَيْنَا بِالنِّعَم

وَنُعَارِضُكَ بِالذُّنُوبِ، خَيْرُكَ إِلَيْنَا نَازِلٌ وَشَرُّنَا إِلَيْكَ صَاعِدٌ، وَلَمْ يَزَلْ وَلا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأتِيكَ عَنَّا بِعَمَلٍ قَبِيح فَلا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أنْ تَحُوطَنَا بِنِعَمِكَ وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِآلائِكَ، فَسُبْحَانَكَ مَا أحْلَمَكَ وَأعْظَمَكَ وَأكْرَمَكَ».

هذه علاقة الحب والحنان والرحمة الإلهية على العباد، علاقة تواصل، وليس عداء وقطيعة، وقبل أن نصل إلى مصطلح أصالة الإنسان أو أصالة الله فلننظر إلى المحتوى الإسلامي الجميل. بعض الناس قد يتصوّر أن الله تعالى سلطاناً متجبّراً يصدر أوامره القاسية للعباد، افعل ولا تفعل، هذا حرام وهذا واجب، بينما نحن نقرأ في دعاء الجوشن الكبير: «يَا أقْرَبَ مِنْ كُلّ قَرِيبٍ، يَا أحَبَّ مِنْ كُلّ حَبِيبٍ، يَا أبْصَرَ مِنْ كُلّ بَصِير، يَا أخْبَرَ مِنْ كُلّ خَبِير، يَا أشْرَفَ مِنْ كُلّ شَرِيفٍ، يَا أرْفَعَ مِنْ كُلّ رَفِيع، يَا أقْوَى مِنْ كُلّ قَوِيّ، يَا أغْنَى مِنْ كُلّ غَنِيّ، يَا أجْوَدَ مِنْ كُلّ جَوَادٍ، يَا أرْأفَ مِنْ كُلّ رَءُوفٍ»، فهل هذه هي علاقة آمر ومأمور؟ أم علاقة أعلى ودون؟ أم علاقة محبوب ومعشوق يعيش مَعنا، ويحيطنا دائماً بالرحمة والرضوان؟

في دعاء أبي حمزة الثمالي: «يَا حَبِيبَ مَنْ تَحَبَّبَ إِلَيْكَ، وَيَا قُرَّةَ عَيْن مَنْ لاذَ بِكَ وَانْقَطَعَ إِلَيْكَ، أنْتَ الْمُحْسِنُ وَنَحْنُ الْمُسِيئُونَ فَتَجَاوَزْ يَا رَبّ عَنْ قَبِيح مَا عِنْدَنَا بِجَمِيل مَا عِنْدَكَ».

الفكرة أن العلاقة هي علاقة تواصل من طرف الله تعالى.

ماذا تقول الليبرالية؟

نعود إلى ما تقوله الليبرالية في نظرية أصالة الإنسان، ولكن ليس المقصود بها أن الإنسان كائن مهم عزيز، كما يقول الإسلام أن الإنسان

هو الكائن الأهم والأوّل على الأرض وهو خليفة الله، [وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ](١)، [وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ](٢)، هذا تكريم عظيم للإنسان، لكن الليبرالية عندما تتحدّث عن أصالة الإنسان فإنها لا تقصد كرامة الإنسان، بل تقصد عقوق الإنسان، أنه هو الأوّل فقط، لا يوجد فوقه أحد لا الله ولا غير الله، هناك فرق بين كرامة الإنسان وأهميته، وبين تجبّر الإنسان وعناده، والليبرالية تقصد وتدعو إلى تمرّد الإنسان.

ثلاثة مداليل لليبرالية:

والمداليل الثلاثة في الليبرالية هي:

أوّلاً: لا سلطة فوق الإنسان، فكل شيء يأتي من أعلى لا نعترف به، الإنسان هو الأصل الذي لا يتلقى أوامر من أيّة سلطة عليا.

ثانياً: لا قيمة أخلاقية إلاّ بمقدار ما يحقق منفعة للإنسان، تقول الليبرالية: أنا لا أقيم وزناً للقيم الأخلاقية، فالذي ينفعني هو جيّد، والذي لا ينفعني هو غير جيّد، الشيء الذي يُحقق أنانيتي أرحب به، المهم أن أحقق منافعي، لا توجد قِيَم أخلاقية تقول هذا عمل شريف أو غير شريف، المهم أن يحقّق مصالحي.

ثالثاً: لا سعادة إلاّ من خلال إشباع الذات والتوافق مع مصالح الذات. وهذا بحث مهم لدى الأديان ولدى الفلاسفة، الإنسان كيف يحقّق سعادته؟ الليبرالية تقول أنه لا سعادة إلاّ من خلال التوافق مع الذات، أعطي لذاتك الذي تريد تصبح سعيداً، تأكل وتشرب ما تشتهي،

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الجاثية: ١٣.

وتسير في الشارع كيف شئت، وتعتقد ما تشاء، وتنام كما تشتهي، السعادة من خلال إرضاء أنانيات الإنسان بلا قيود.

أصالة الحق:

نظرية الإسلام في مقابل أصالة الإنسان هي أن الأصل والأصالة للحق، والإنسان تابع للحق، ومن اتّبع الحقيقة نجا، ومن لم يتّبعها ارتطم رأسه بصخرة الواقع، فالإسلام يدعونا للتفتيش عن نقطة الحق في طريقكم أيها البشر، اتّبعوا الحق، واتركوا ما هو ليس حق، وهذا مدلول جميل، ولهذا نحن لا نعتقد أن الإسلام يحتقر الإنسان، ولا نقول إنّا لسنا مع أصالة الإنسان، بل أصالة الإنسان قضية جميلة، والإنسان الأصيل هو الذي يتّبع الحق، الإنسان يتبع الحق، والله تعالى أيضاً يعمل بالحق، القرآن الكريم يقول: [وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً][1]، ويقول: [أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى][2]، ويقول: [ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ][3]، فعبادة الله وطاعته ليست جزافاً، بل لأنها حق، والحق يفرض نفسه، الموت حق، فهل هناك من يقول أنا لا أعترف بالحق وبالموت؟، نظرية الإسلام هي نظرية الحق، ولهذا ترون ماذا قال النبي؟ قال: [حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ][4]، عشرات الآيات في القرآن الكريم تتحدّث عن الحق، نستطيع أن نستخرج منها نظرية أصالة الحق.

---

(١) الإسراء: ٨١.
(٢) يونس: ٣٥.
(٣) الحج: ٦.
(٤) الأعراف: ١٠٥.

الإسلام يقول وفق نظرية الحق بالأمور التالية:

أوّلاً: أن هناك سلطة عليا فوق الإنسان، هي سلطة الحق، يجب أن يتّبعها الإنسان، والله تعالى هو سلطة عليا فوق الإنسان؛ لأنه حق.

ثانياً: أن تحقيق سعادة الإنسان هي من خلال التوافق مع الحق والحقيقة، حينئذٍ تكون سعيداً.

السَنة _ مثلاً _ فيها فصول صيف وشتاء، ويجب عليك التوافق مع استحقاقات هذه الفصول، وهذا يُسمّى التوافق مع الحقيقة، الحقيقة أن هناك وحيٌ مُنزلٌ من عند الله تعالى أمَرَنا بأمور وتكاليف واستحقاقات العبودية، وإذا أردنا أن نكون سعداء يجب أن نخضع لهذه الحقيقة، فالسعادة هي من خلال التوافق مع الحقيقة، أنت في سفر، والسفر له استحقاقات ولا بدَّ لكي تنجح في سفرك أن تتوافق مع تلك الاستحقاقات.

قصة الشاب البصري:

كان هناك شابٌّ بصري كان فاسقاً يشرب الخمر ومبتلى بهذا المرض، ولم ينفع معه النصح، حتّى هجره الناس إلى أن مات، فأصبحت زوجته محتارة في تشييعه ودفنه، ولم يعِنها أحد، فذهبت به إلى الصحراء، وإذا برجل زاهد عابد كان يعبد على قِمَّة جَبَل فنزل وصلّى عليه، فتعجب الناس.

فقالوا له: أنت رجل فقيه وأهل زهد وتقوى تتعبد في هذا الجبل، ما لَكَ وهذا الشاب؟

قال: بينما أنا في المنام وإذا بوحي أخبرني أن أصلّي على هذا الشاب.

فقالوا: إن هذا الشاب كذا وكذا.

قالوا: فلنسأل زوجته ما خبره؟

وسألوها: ما العمل الصالح الذي كان يأتيه؟

قالت: كان لديه ثلاث خصال:

الأولى: أنه كان يفيق من سكره في الليل فيبكي ويقول إلهي في أيّ زاوية من جهنم تعذب هذا الخبيث! والثانية: أن بيته أيضاً لم يفرغ من المساكين والمحتاجين وبابه مفتوحة للناس. والثالثة: أنه لا يترك الصلاة الواجبة عليه.

فقال العابد: بهذه الخصال أمرني الله أن أنزل وأصلّي عليه، هو فاسق، لكن خيط العلاقة مع الله لم يقطعه.

هذه هي علاقة المحبّة بين الله وبين الإنسان.

حتّى أن الرواية المعتبرة عن رسول الله 9 تقول: «لولا أنكم تُذنبون فتستغفرون الله، لَخَلَق الله خلقاً حتّى يُذنبوا، ثمّ يستغفروا الله، فيغفر الله لهم»[1].

وفي رواية عن الإمام الصادق C : «إنّ الله يحب من عباده المُفتَنَّ التواب»[2].

وعن ربيعة بن كَعب قال: قال لي ذات يوم رسول الله 9 : «يا ربيعة، خدمتني سبع سنين، أفلا تسألني حاجة؟».

فقلت: يا رسول الله، أمهلني حتّى أفكر، فلما أصبحت ودخلت عليه. قال لي: «يا ربيعة، هات حاجتك».

---

(١) الكافي ٢: ٤٢٣/ باب في تنقل أحوال القلب/ ح ١.

(٢) الكافي ٢: ٤٣٢/ باب التوبة/ ح ٤.

فقلت: تسأل الله أن يدخلني معك الجنّة.

فقال لي: «من علّمك هذا؟!».

فقلت: يا رسول الله، ما علّمني أحد، لكن فكّرت في نفسي وقلت: إن سألته مالاً كان إلى نفاد، وإن سألته عمراً طويلاً وأولاداً كان عاقبتهم الموت. قال ربيعة: فنكس رسول الله 9 رأسه ساعة، ثمّ قال: «أفعَل ذلك، فأعنّي بكثرة السجود»[1].

فهذا الرجل لَم يقبل بغير الجنّة، فتأمل رسول الله 9 قليلاً ولم يستطع ردّه، لكن يجب أن يدلّه على الطريق، فقال: «فأعنّي بطول السجود».

فالعلاقة مع الله يجب أن تكون علاقة محبّة وتواصل وطول السجود هو علامة التواصل.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) الدعوات: ٣٩/ ح ٩٥.

المحاضرة التاسعة والسبعون:

دور الله تعالى في حياة البشر

«وَأَرْغِدْ عَيْشِي، وَأَظْهِرْ مُرُوَّتِي، وَأَصْلِحْ جَمِيعَ أَحْوَالِي، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطَلْتَ عُمُرَهُ، وَحَسَّنْتَ عَمَلَهُ، وَأَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ وَرَضِيتَ عَنْهُ...».

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى هل هو مجرد خالق، أم له دور آخر على الأرض؟

ماذا نفهمه من القرآن الكريم، ومن نصوص الأدعية الشريفة؟

تحدّثنا في موضوع الله والإنسان هل هي علاقة تقاطع أم علاقة تواصل، وبيّنا أن العلاقة من طرف الله تعالى هي علاقة تواصل، والمطلوب من طرف الإنسان أيضاً أن تكون علاقة تواصل، وسوف نبحث إن شاء الله تعالى في سلسلة أحاديث عمّا هي سُبُل التواصل مع الله، فلو سأل شخص: إنّي أريد التواصل مع الله، فكيف لي ذلك؟

لدينا حديث عن الإمام الصادق C يقول: «التواصل بين الإخوان في الحضر التزاور، وفي السفر التكاتب»[1]. فكيف نتواصل نحن مع الله تعالى؟ ونتحدّث عنه في الفلسفة الدينية، والمنهج الديني؟

هناك عشرة سُبُل للتواصل مع الله تبارك وتعالى.

العُرفاء على نوعين: عارف مناجاتي، وعارف خراباتي، ومعنى عارف خراباتي أنهم يصبحون دراويش ويجلسون في الخرائب، وهو عارف، لكن يأخذ منهج العزلة عن الناس، وهناك عارف يعيش مع الناس وهو عارف مناجاتي، أي علاقته مع الله تعالى علاقة مناجاة، مثل علاقة أئمّتنا G ، فهم مع الناس، لكن لديهم ساعات للمناجاة.

---

(١) الكافي ٢: ٦٧٠/ باب التكاتب/ ح ١.

سُبُل التواصل مع الله:

ونسأل اليوم: ما هي سُبُل الوصول والتواصل مع الله تبارك وتعالى؟ وكيف يعلّمنا منهج أهل البيت G التواصل مع الله تبارك وتعالى؟

دور الله في حياة البشر:

هذا الحديث نضعه تحت عنوان: (دور الله في حياة البشر).

هناك ثلاثة أدوار لله تبارك وتعالى في حياة البشر فيما عدا أن الله هو الخالق وهي:

الدور الأوّل: أن الله هو مصدر الحياة والوجود الدائم، فإن كل حياة موجودة لدينا من أبسط حركة مثل لحظ العين، وحركة الرئة، وحركة القدم، وحركة الذهن، والنوم، واليقظة فإن الله تعالى هو مصدرها لأنه هو مصدر الوجود المطلق في كل شيء، ولهذا تقرأ في أدعية شهر رمضان معانٍ عجيبة: «سُبْحَانَ مَنْ هُوَ قَائِمٌ لا يَسْهُو، سُبْحَانَ مَنْ هُوَ دَائِمٌ لا يَلْهُو»، الله سبحانه وتعالى هو القائم على كل شيء، والمالك لكل شيء، «سُبْحَانَ مَنْ هُوَ حَفِيظٌ لا يَغْفُلُ»، لا يغفل عن ذرة من ذرّات أعمالنا ووجودنا، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ترون الغابات الضخمة في الأمازون وأفريقيا فتصوروا كم فيها أشجار، وكم فيها أوراق، الله تبارك وتعالى يقول: [وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ][1]، الله تعالى يعلمها ويحصيها.

الدور الثاني: هو العناية المباشرة بنا والتواصل الدائم معنا، أي أن هناك عناية مباشرة، حتّى أكثر من عناية الأمّ، الأُمّ ترعى الولد، الأُمّ حتّى

---

(١) الأنعام: ٥٩.

في المنام تحتضن ابنها، لكن مع ذلك هي عناية مؤقتة جزئية، الأمّ عندما تبتعد عن الابن، عندما تسافر، أو تنام فإنه ليس لديها قدرة، ولا عناية مطلقة على داخل الطفل وآلام الطفل، بل عنايتها بأموره المادية مثل الطعام والمنام وغير ذلك. لكن عناية الله تعالى بعباده تشمل كل صغيرة وكبيرة لديه [وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ][1]، أنتم في قبضة الله، فلا تتصور أنك تتحرك وحدك، فأنت كالماكنة التي تتحرك بالكهرباء، فإذا انقطعت الكهرباء تطفئ، فصحيح أنت تحرّك شفتيك، أو قدميك، وتنهض وتجلس، لكن أنت مرتبط بسلك كهربائي، وبمصدر الحياة، وهو الله تبارك وتعالى، [وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ]، الله هو الذي يميت وهو الذي يحيي [وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا][2]، أي إنه تعالى يتدخل في أبسط جزئيات الإنسان.

العلماء الفلاسفة يقولون: (بسيط الحقيقة كل الأشياء)[3]، أي إن الله تعالى ليس وجوداً مركّباً مثل الإنسان المركّب والمؤلَف من لحم، ودم، وعظم، وجلد، هناك وجود بسيط ليس فيه تركيبات، يقولون إن الله تعالى هو محض الوجود وليس فيه أيّ تركيب، ثمّ يتطوّرون في قفزة فلسفية ويقولون: (بسيطُ الحقيقة كل الأشياء)، والله تعالى ليس مفصولاً عن شيء من الأشياء، بل هو معك وأنت جالس، أو نائم، وأنك لست إلاّ امتداداً لإشعاع إلهي.

ولهذا فإن الدعاء في مناجاة الذاكرين يقول: «أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي

---

(١) النحل: ٥٣.

(٢) النجم: ٤٣ و٤٤.

(٣) راجع: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية لصدر المتألهين الشيرازي ٨: ١١٠.

كُـلِّ مَكَـانٍ، وَالْمَعْبُـودُ فِـي كُـلِّ زَمَـانٍ، وَالْمَوْجُـودُ فِـي كُـلِّ أوَانٍ»[١]، فـلا يمكن أن تقول إن الله موجود في جانب دون جانب آخر.

الله تبـارك وتعـالى عنايتـه مطلقـة غيـر محـدودة بالبشـر، [وَإِذا مَرِضْـتُ فَهُوَ يَشْـفِينِ * وَالَّـذِي يُمِيتُنِـي ثُـمَّ يُحْـيِينِ * وَالَّـذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِـرَ لِـي خَطِيئَتِـي يَـوْمَ الـدِّينِ][٢]، أطمع بـأن يكـون هـذا الإلـه معـي أكثـر مـن الأُمّ وأكثـر مـن مـدير المدرسـة، العنايـة المباشـرة، وهـذه أدعيـة تُركّـز علـى هـذه العنايـة المباشـرة، تقـول: أيهـا العبـاد، لا تنسـوا، أنـا ربكـم معكـم فـي أيّ مكـان وكـل زمـان، «الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِي يُجِيبُنـي حِينَ أُنَادِيـهِ، وَيَسْـتُرُ عَلَـيَّ كُـلَّ عَـوْرَةٍ وَأَنَـا أعْصِـيهِ، وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلا أُجَازِيهِ».

الله تبـارك وتعـالى فـي القـرآن الكـريم يخاطـب موسـى C ويقـول: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى][٣].

القـرآن يقـول: [وَقـالَ رَبُّكُـمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُـمْ][٤]، وهنـا يـأتي النصـر والتـدخل الإلهـي ونـزول الملائكـة وتسـخير الريـاح للمـؤمنين، الله يسـخّر حتّـى الأعـداء للمـؤمنين، وهـذا كلّـه تعبيـر عـن الحضـور الـدائم والعناية المباشرة من الله تبارك وتعالى للإنسان.

الدور الثالث: إرسال الرسل، وتشريع الشرائع.

الله تعـالى يقـول أنـا كمـا أرزقكـم الطعـام أرزقكـم شـريعة؛ كـي تتكـاملوا، وهـذا هـو معتقـدنا، أن الله مـن لطفـه بالإنسـان [شَـرَعَ لَكُـمْ مِـنَ الـدِّينِ

---

(١) الصحيفة السجادية: ٤١٩ (أبطحي).

(٢) الشعراء: ٨٠ - ٨٢.

(٣) طه: ١٣.

(٤) غافر: ٦٠.

ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ][1]، التشريع الإلهي، ونحن جميعاً يُسمّونا أبناء الأديان الإلهية، ونعتقد أن هناك دين الله أرسله لنا، وهو دور آخر غير أنه تعالى رازق ومعافي ومشافي وناصر ومعين، بل دور آخر، هو دور تشريعي، الله تبارك وتعالى هو الذي شرّع الشرائع الإلهية.

وفي هذا الدور تأتي العلمانية وتقول: أنا لا أقبل بهذا الدور، قد أقبل بالله الخالق والمشافي...، لكن الله الذي يقول هذا حرام وهذا حلال لا أقبله؛ لأن لدى العلمانية إشكالات على الدين:

إشكالات العلمانية على الدين:

الإشكال الأوّل: إن الدين ثابت، والواقع الحياتي متغيّر، فكيف تطبّقون قواعد وأحكاماً قديمة على واقع جديد.

الإشكال الثاني: الدين ضاع بين مئات الآلاف من الأحاديث، وضاع على يد مئات الرواة، وكثير منهم كذّابون ومحتالون، ورسول الله 9 كان يقول: «ستكثُر عليَّ الكذّابة من بعدي»[2]، الدين الأصيل ضاع بين ركام من الأحاديث، وبالتالي نحن لا نقبل بالتشريع الديني الموجود فعلاً لدى الفقهاء لأنه يمثّل اجتهاداتهم الشخصيّة وليس الرؤية الدينية النازلة من عند الله.

ونحن نجيب على هذه الإشكالات خلال البحوث القادمة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) رسائل المرتضى ٢: ٥٦.

المحاضرة الثمانون:

سُبُل التواصل

بين الإنسان وبين الله

«إِلَهِي إِنْ كَانَ قَدْ دَنَا أَجَلِي وَلَمْ يُقَرِّبْنِي مِنْكَ عَمَلِي فَقَدْ جَعَلْتُ الاعْتِرَافَ إِلَيْكَ بِذَنْبِي وَسَائِلَ عِلَلِي».

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرنا أن العلاقة بين الله وبين الإنسان هي علاقة تواصل وليست علاقة تقاطع، والسؤال: ما هي سُبل التواصل بين الإنسان وبين الله تعالى؟

هناك سؤالان:

هل هناك سُبل محدّدة؟

الأوّل: هل هناك سُبُل محدّدة ومعيّنة للتواصل بين الإنسان وبين الله تعالى؟ أم أنه لا توجد وليس ثمّة طُرق وسُبل محدّدة، وإنما كل شخص يعمل بما يراه، شخص على الطريقة الدينية، وآخر على الطريقة الهندية، وآخر على الطريقة الإلحادية، فلا يوجد ثمّة سُبل للتواصل بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى؟

في الجواب على هذا السؤال الدين يقول: هناك سُبُل يجب أن تتواصل بها ومن خلالها، مثلاً تريد أن تصل الرحم، أو تريد أن تصبح بارّاً بوالديك، فلا بدَّ أن هناك أصولاً وطُرقاً نُسمّيها عُرفية، مثلاً نحن كيف نتواصل مع موتانا؟ وهذا عالم غيب نحن لا نعلم به، فنحن لا نعلم أين هو، أو أين روحه، أو ماذا ينتظر مِنّي؟ هنا يأتي الدين والوحي يقول: في هذا العالم المجهول أنا أخبركم كيف تتعاملون من خلاله، قراءة القرآن تُهدى له، تتصدق نيابة عنه، إطعام الضيف نيابة عنه، وتعمل عملاً صالحاً تهدي ثوابه له. وهذه الأعمال تصل له كما يخبرنا الوحي.

بعض الناس قد يجمعون ذهباً ومجوهراتٍ ويدفنونها في قبر الميت ويحنّطونها مع الميت بتصور أنه يستفيد منها في العالم الآخر، بينما يأتي الدين ليقول لنا إن هذه لا تصل إلى الميت، فبدلاً من هذا الذهب والأموال التي تُدفن معه، فليُتصّدق بها عنه، تلك الصدقة ستصل له.

وهذا عالم غيب، وأتأمل أحياناً عندما أقرأ سورة الفاتحة إلى ميت، لا أدري كيف تصل هذه السورة له، أين هو؟ هل يسمع؟ ومن هم الملائكة التي تحملها له؟ وهنا يأتي دور الوحي لكشف المجهول، فنحن غير قادرين بدون مسبار فضائي كالذي يبعث هذه الأيام إلى المريخ ليأخذ من تربته عينات، أو قبل ذلك يقف بالغلاف الغازي للمريخ ويحسب درجة الحرارة والضغط والجاذبية ويرسل تلك المعلومات إلى الأرض ومسبارنا في عالم الغَيب هو الوحي، يكشف لنا عن عالم ما بعد الموت وعن سُبل العلاقة والتواصل بيننا وبين الله تبارك وتعالى؟ هل هناك سُبُل محددة، أو لا توجد سبل محددة؟ الدين يقول: نعم، هناك سُبُل محددة، وأدوات وأجندة من خلالها تصلون إلى الله تبارك وتعالى وسوف نتحدّث طبعاً عن هذه السُبُل.

لكن هناك نظرية أخرى، هي التعددية المطلقة، تقول: ليس ثَمّة طرق خاصة للتواصل بينك وبين الله تبارك وتعالى، وإنما إن شئت أن تعبد بقرة، أو شمساً، أو قمراً فإن ذاك كله يوصلك إلى الله، وهذه هي التعددية المطلقة، ليس هناك طريق واحد بيننا وبين الله، وإنما كلٌ على رأيه يصل إلى الله تعالى، بناءً على هذه النظرية يقول ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعىً لغزلان وديرٌ لرُهبانِ
وبيت لأوثانٍ وكعبةُ طائِفٍ وألواحُ توراةٍ ومِصحفُ قرآنِ
أدين بدين الحب أين توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني [١]

فليس لي طريق واحد، وإنما الحب، مسيحي، أو يهودي، أو عَبَدة بقر لا فرق في ذلك، كلها طرق إلى الله تعالى، هذه نظرية التعددية المطلقة.

تقول النظرية الإسلاميّة أن هناك طُرق محدّدة للوصول إلى الله تبارك وتعالى، والأنبياء حدّدوا لنا هذه الطُرق وقالوا: هذه مجموعة سُبُل للتواصل بينكم وبين الله تبارك تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾[٢]، وسنذكر عشرة سُبُل فيما يأتي من محاضراتنا. وهذا كله نذكره في سياق قوله في الدعاء: «إِلَهِي إِنْ كَانَ قَدْ دَنَا أَجَلِي وَلَمْ يُقَرِّبْنِي مِنْكَ عَمَلِي فَقَدْ جَعَلْتُ الاعْتِرَافَ إِلَيْكَ بِذَنْبِي وَسَائِلَ عِلَلِي».

هل السفر إلى الله ممكن؟

نريد هنا أن نناقش شبهات العلمانية على التشريع الإسلامي: هل السفر إلى الله ممكن؟ ﴿وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٣]، والذي قال هذا الكلام هو إبراهيم، فبعد أن أُلقيَ في النار وكانت نجاته من النار، فرعون زمانه أفلس في هذه المعركة، وانتصر إبراهيم في هذا العمل

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤٦: ٣٧٧.
(٢) آل عمران: ٨٥ .
(٣) الصافات: ٩٩.

الاعجازي وتبيّن للناس أن إبراهيم إنسان مكرّم وهذه النار التي جمعوها له كانت برداً وسلاماً، فقالوا: تعالوا نُهجِّر إبراهيم من بلادنا.

فقال إبراهيم: أقبل بشرط أن تعطوني جميع أملاكي، لقد كان عندي شياه لزوجتي سارة.

فقالوا: لا، إنما تخرج وحدك.

قال: إذن أعطوني عمري الذي قضيته معكم، ذهبوا إلى القاضي، فقال القاضي: بإمكانكم أن تُهجّروا إبراهيم وتصادروا كل ممتلكاته، أو تعيدوا له الأيام والعمر والخدمات التي قدّمها في المجتمع، فكانت النتيجة لصالح إبراهيم، فقالوا خذ الغنم الذي لك واخرج، هنا جاء قوله: أنا مسافر إلى الله، ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1]، وهو كان ذاهباً إلى بيت المقدس، ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[2]، السؤال عن إمكانية السفر إلى الله وكيفيته.

في دعاء للإمام زين العابدين C : «وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لِلرَّاجِين بِمَوْضِعِ إِجَابَةٍ، وَلِلْمَلْهُوفِينَ بِمَرْصَدِ إِغَاثَةٍ، وَأَنَّ فِي اللَّهْفِ إِلَى جُودِكَ وَالرِّضَا بِقَضَائِكَ عِوَضاً مِنْ مَنْعِ الْبَاخِلِينَ وَمَنْدُوحَةً عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَأْثِرِينَ، **وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ**، وَأَنَّكَ لا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلاَّ أَنْ تَحْجُبَهُمُ الأَعْمَالُ دُونَكَ، وَقَدْ قَصَدْتُ إِلَيْكَ بِطَلِبَتِي، وَتَوَجَّهْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَتِي، وَجَعَلْتُ بِكَ اسْتِغَاثَتِي وَبِدُعَائِكَ تَوَسُّلِي مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ

---

(١) الصافات: ٩٨ و٩٩.

(٢) الصافات: ١٠٠ - ١٠٢.

لاسْتِمَاعِكَ مِنّي وَلا اسْتِجَابٍ لِعَفْوكَ عَنّي، بَلْ لِثِقَتِي بكَرَمِكَ وَسُكُوني إِلَى صِدْقِ وَعْدِكَ»، فالرحلة إلى الله تبارك وتعالى ممكنة بحسب النظر الديني، وليس بالنظر المتحجّر رغم أن الله تعالى حاضر معنا.

لماذا السفر إلى الله؟

وربما يقول قائل: إذا كان الله حاضراً معنا فلماذا أسافر إليه؟، وجواب ذلك يحتاج إلى تأمل فكري.

الإسلام يقول إن الله قريب، وفي نفس الوقت هو بعيد، والشرط هو أن تنظر إليه ليكون قريباً، أما إذا كنت لا تنظر إليه فهو بعيد.

الله تعالى يقول: «أنا جليس من ذكرني، ومحبٌّ من أحبَّني، ومُطيع من أطاعني، ومجيب من دعاني، وغافر من استغفرني»[1]، والوصول إلى الله يحتاج إلى جهد، وسفر، والإسلام يقول الوصول إلى الله بحاجة إلى حركة، فالله هو الكمال المطلق، والجمال المطلق، ويحتاج الإنسان إلى حركة نحوه كي يتكامل ويستلهم منه، والله هو الحقيقة الكبرى، ولكن ليس كل الناس يعرفون الحقيقة، يحتاجون إلى جهد علمي كي يكتشفوا الحقيقة.

ذكرت لكم أن ابن باز وهو يعتبر من كبار علماء الوهابية في إحدى رسائله يقول بحركة الشمس وسكون الأرض. رغم أن أبسط الناس في هذا الزمان يعرفون أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس. لكن ابن باز يقول بحركة الشمس وسكون الأرض، وإذا قلت إن الأرض تتحرك تُعتبر مبتدعاً ويُضرب عنقك، وهذا نموذج من فقهاء التحجر الفقهي السلفي أصحاب الفتاوى التكفيرية.

---

(١) مستدرك الوسائل ٥: ٢٨٦/ ح ٥٨٧٠/ ١٠.

قصة عمرو بن الحمق الخزاعي:

الحسين C كتب إلى معاوية وقال له: «أوَلَستَ قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله 9 ، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فصفّرت وجهه، ونحّلت جسمه، بعد أن آمنته، وأعطيته من عهود الله وميثاقه ما لو أعطيته العجُم (السباع) ففهمته لنزلت إليك من شغف الجبال، ثمّ قتلته جرأةً على الله»[1].

هذا العبد الصالح عمرو بن الحمق هو من خيرة أصحاب الإمام علي C ، وهو من صحابة رسول الله أيضاً، ومعاوية بدأ يتتبع شيعة الإمام علي C بعد شهادته، وبعد أن يعطيهم العهود والمواثيق بالأمان!، وبعد ذلك تبدأ عملية الاغتيال والتصفية، هذه هي سياسة معاوية، اغتيال للشخصيات والرموز، ومن جملة أولئك الرموز عمرو بن الحمق.

في الرواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أرسل رسول الله 9 سرية فقال لهم: «إنكم تصلون ساعة كذا وكذا من الليل إلى أرض لا تهتدون فيها سيراً، فإذا وصلتم فخذوا ذات الشمال، فإنكم تمرّون برجل فاضل خيّر في كنانة، فتسترشدونه فيأبى أن يرشِدَكم حتّى تأكلوا من طعامه، فيذبح لكم كبشاً، فيُطعمكم ويُرشدكم الطريق، فاقرأوه منّي السلام، وأعلموه أني قد ظهرت في المدينة».

فمضوا فلمّا وصلوا الموضع في الوقت ضلّوا.

فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله 9 : «خذوا ذات الشمال»؟ ففعلوا، فمرّوا بالرجل الذي ذكره رسول الله 9 لهم، فاسترشدوه الطريق، فقال: لا أفعل حتّى تأكلوا من طعامنا، وذبح لهم كبشاً، فأكلوا من طعامه، وقام معهم فأرشدهم الطريق، وقال لهم: ظَهَر النبي 9 في المدينة؟

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٠.

قالوا: نعم، وبلّغوه السلام.

فخلّف في نسائه مَن خَلّف ومضى إلى رسول الله 9 . فَلبِثَ معه ما شاء الله، ثمّ قال له رسول الله 9 : «ارجع إلى الموضع الذي هاجرت إليَّ منه، فإذا نزل أخي أمير المؤمنين بالكوفة وجعلها دار هِجرته فأتِهِ».

فانصرف عمرو بن الحمق إلى نسائه، حتّى إذا نزل أمير المؤمنين C بالكوفة أتاه فأقام معه بالكوفة، فبينما أمير المؤمنين جالس وعمرو بين يديه.

فقال له: «يا عمرو لك دار بعها واجعلها في الأزد ــ هم قبيلة الأزد ــ، فإني غداً لو غِبتُ عنكم لَطَلِبَتك الأزد حتّى تخرج مِن الكوفة متوجّها نحو الموصل، فَتمُرّ برجل نصراني فتقعد عنده، وتستسقيه الماء فيسقيك، ويسألك عن قصّتك فتخبره، وستصادفه مُقعداً، فادعُهُ إلى الإسلام، فإنه ينهض صحيحاً مسلماً. وتمرّ برجل محجوب جالس عن يمين الجادة فتستسقيه الماء فيسقيك، ويسألك عن قصتك؟ فحدّثه أنّ معاوية طلبك لقتلك ويُمثّل بك لإيمانك بالله ورسوله وطاعتك لي وإخلاصك لولايتي ونصحك لله في دينك، فادعُهُ إلى الإسلام، فإنه يُسلم، فَمُر يدك على عينيه فإنه يرجع بصيراً بإذن الله تعالى، فيتّبعانك ويكونان هما اللذان يواريان بدنك في الأرض، ثمّ تصير إلى دير على نهر يقالُ له دجلة، فإن فيه صدّيقاً عنده من عِلم المسيح C ، فاتخذه عوناً من الأعوان على سرِّ صاحبيك، وما ذلك إلاّ ليهديه الله بك، فإذا أحسّ بك شرطة ابن الحَكم وهو خليفة معاوية بالجزيرة، فاقصد إلى الطريق الذي في الدير يتواضع لك حتّى تصير في ذروته، فإذا رآك ذلك في أعلى الموصل فناده، فإنه يمتنع عنك، فاذكر اسم الله الذي علّمتك إيّاه، فإن الدير يتواضع لك حتّى تصير في ذروته، فإذا رأى ذلك الراهب الصدّيق، قال التلاميذ معه: ليس

هـذا أوان ظهـور سيدنا المسيح، هـذا شـخص كـريم، ومحمّـد قـد توفّـاه الله، ووصـيُّه قـد استشـهد بالكوفـة، وهـذا مـن حوارييـه، ثـمّ يأتيـك خاشـعاً ذلـيلاً، فيقول لك: أيها الشخص العظيم أهّلتني لما لَم استحقُه، فَبِمَ تأمرني؟

فتقول: استر تلميذك هذا من عَبدك وتُشرف على ديرك، فانظر ماذا ترى؟

فـإذا قـال لـك: أرى خـيلاً غـائرة نحونـا فخلّـف تلميـذك عنـده، وانـزل واركـب فرسـك، واقصـد نحـو الغـاب علـى شـاطئ دجلـة، اسـتتر فيـه، فإنـه لابـدَّ أن يشترك فـي دمـك فَسَـقة مـن الجـن والإنـس، فإذا استترت فيه عرفـك فاسـق مـن مَـرَدة الجِـن يظهـر لـك بصـورة تنّـين أسـود يَنهشـك نهشـاً يبلـغ أظفـارك وتعثر بـك فرسـك، فينـذر بـك الخيـل فيقولـون: هـذا فـرس عمـرو بـن الحمـق، ويقفـون أثـرك، فـإذا أحسسـت بهـم دون الغـار فـابرز إلـيهم بـين الدجلـة والجـادة، وقـاتلهم فـي تلـك البقعـة، فـإن الله جعلهـا حضـرتك وحرمـك، فـالقهم بنفسـك واقتـل مـا اسـتطعت حتّـى يأتيـك أمـر الله، فـإذا غلبـوك حـزّوا رأسـك وسـيروه علـى قنـاة إلـى معاويـة لعنـه الله، ورأسـك أوّل رأس يُشـهر فـي الإسـلام مـن بلـد إلـى بلـد، ... ثـمّ ينـزل صـاحباك المحجـوب والمقعـد فيواريـان بـدنك فـي موضـع مصـرعك وهـو بـين الـدِير والموصـل»، فكان كلّما ذكره رسول الله 9 وأمير المؤمنين C .

وكانـت زوجـة عمـرو بـن الحمـق معتقلـة فـي الكوفـة فـألقوا رأسـه بـين يـديها، فأخذتـه بعـد أيـام، وقالـت: غيبتمـوه عنّـي طـويلاً، وأهـديتموه لـي قتيلاً، وكان ذلك أوّل رأس طيف به البلدان[1].

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

---

(١) راجع: الهداية الكبرى للخصيبي: ١٥٤.

المحاضرة الحادية والثمانون:

خدمة العباد

سبيل الوصول إلى الله

«وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زلنا في سياق الحديث عن سُبل التواصل بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى، وذكرنا أن هناك مجموعة سُبُل، وسنذكر عشرة منها من ثقافة القرآن الكريم والدعاء، ولا أذكرها على سبيل الترتيب:

السبيل الأوّل: خدمة العباد:

وهو أعظم سبيل بعد الإيمان بالله تعالى.

الإمام العسكري C يقول: «خصلتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله، ونفع الإخوان»[1]، فالإسلام دين الحياة، والمجتمع، وبناء سعادة البشرية في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

الإسلام لا يريد أن يبني الحياة الآخرة بعيداً عن الدنيا، بل يريد بناء الآخرة عبر بناء الدنيا، وهذه من جمالية الإسلام وروعته.

نشأ دين الإسلام قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة في البادية، لا حضارة، ولا فلسفات مدنية، ولكن أنظروا إلى جمال الإسلام.

هناك خطّان مهمّان للوصول إلى الله:

الأوّل: الإيمان بالله تعالى.

والثاني: خدمة عباد الله.

أيّ فلسفةٍ جميلةٍ ورائعة، وسنواجه هنا أهم مشكلة فلسفية، وهي:

---

(١) تحف العقول: ٤٨٩.

ما حكم أولئك الذين خدموا البشرية، لكن ليس لديهم إيمان بالله أو رسول الله 9 ، هل هم في النار، أم في الجنّة؟

مثلاً (أديسون) مكتشف الكهرباء والبشرية كلها وكافة مرافق الحياة والمواصلات والمستشفيات والعمران وغيرها تنعم باكتشاف أديسون، ومكتشف الكهرباء إنسان غير مسلم اسمه (أديسون)، لو سألوكم ـ وفق ثقافتكم الدينية بأن خدمة العباد من أهم الطرق وأوسعها وأرحبها للوصول إلى الله تعالى ـ هل أديسون من أهل الجنّة، أم من أهل النار؟

مثلاً العالم البريطاني (فليمنغ) الذي اكتشف البنسلين، والطب الآن قائم على البنسلين، قفزة في تاريخ الطب هو اكتشاف البنسلين، وهذا المكتشف قدّم خدمة كبيرة للبشرية، فما هو موقعه الآن؟ من أهل الجنّة، أم من أهل النار؟ ووفق قِيَمنا الدينية ماذا نقول؟ وهذه مشكلة فلسفية، فكيف نعالجها؟

فضل خدمة العباد:

سأقرأ لكم نصوصاً جميلة في فضل خدمة الناس في ثقافتنا الإسلاميّة التي تتحدّث عن حقوق الناس وخدمة الناس، عن الإمام الصادق C قال: «تنافسوا في المعروف لإخوانكم، وكونوا من أهله، فإن للجنّة باباً يقال له: المعروف، لا يدخله إلاّ من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله ﷻ به مَلَكين، واحد عن يمينه، والآخر عن شماله، يستغفران له ربه، ويدعوان بقضاء حاجته.

والله لرسول الله 9 أسرُّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة»[١].

وعن الإمام الصادق C : «أوحى الله إلى موسى C : إن من عبادي من يتقرّب إليَّ بالحسنة فأحكمه بالجنّة.

قال موسى: يا رب، وما تلك الحسنة؟

قال: يُدخل على مؤمنٍ سروراً»[٢].

لا يوجد مجتمع مثالي:

والروايات عندنا في هذا الشأن كثيرة، الإسلام دين الحياة، هل نستطيع أن نصنع مجتمعاً مثالياً بدون محاكم ومدارس ومستشفيات وغيرها من المؤسسات الضرورية لمجتمع كما هو في الجنّة؟ طبعاً لا، والإسلام ليس ديناً مثالياً.

الفارابي مثلاً كتب كتاباً في آراء أهل المدينة الفاضلة، وتصور أن هذه المدينة الخيالية كلُ الناس فيها هم أهل أخلاق عالية وكرم وزهد وخدمة للآخرين، وبالتالي لا توجد في تلك المدينة عدوان ولا مشاكل، وتلك المدينة لو كانت موجودة بهذا الشكل لشعر الجميع بالكآبة؛ لأنها مدينة للملائكة، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يعطشون، وهذه نظريّات خيالية.

ثمّ قال: هناك مدينتان: (المدينة الفاضلة)، وفي المقابل هناك (المدينة الجاهلة)، ثمّ وضع سبعة أقسام للمدينة الجاهلة لكنّا نعتقد أن هذه نظريات خياليّة لا يقبلها الإسلام.

---

(١) الكافي ٢: ١٩٥/باب قضاء حاجة المؤمن/ح ١٠.

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ٣٩٥.

هناك فيلسوف أندلسي اسمه ابن باجة، أيضاً يطرح هذه النظرية المثالية، يقول: نريد أن نكوّن مجتمعاً صالحاً وذلك أن مجموعة من الصالحين يشكّلون حياً من الأحياء اسمه حي الصالحين، وهذا لا يدخله إلاّ من قطع علاقاته مع البشرية، ويجتمعون حتّى يكوّنوا المجتمع الإسلامي تدريجياً!!

هذه نظريات مثالية، والأنبياء لم يطرحوا مثل هذه النظريات.

يقول ابن باجة: إن من خصائص المدينة الفاضلة إذا صاروا صالحين: عدم وجود فن الطب، ولا محكمة، وجميع الآراء صحيحة، وكل آراء أهلها حسنة.

ونعتقد أن هذا الفهم مثالي غير واقعي، سوف لا يأتي يوم من الأيام والبشرية بلا مشاكل وبلا قضاء وبلا محكمة وبلا شرطة. نعم، النسبة قد تزيد أو تقل، ولكن البشرية قائمة على أن [مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ][1]. الإسلام لا يستطيع أن يصنع الإنسان من جديد؛ لأن الإسلام يعمل على أن يهذّب الإنسان، لكن لا يحوّله إلى إنسان من عالم الجنّة، فهو يبقى ابن الطبيعة وابن الأرض، ولأن الإسلام هو دين واقعي فمن أفضل الأعمال في بناء الحياة خدمة الناس، فإذا كُلّفت بعمل من أخيك فلا تتثاقل، وانظر إلى الله تعالى ماذا ادّخر لك من ثواب عظيم.

حكم الكفّار الذين خدموا البشرية:

حينئذٍ يأتي هذا السؤال الفلسفي، فإذا كان خدمة الناس هو طريق من طرق دخول الجنّة كما قال رسول الله 9 : «الخلق عيال الله، فأحبّ

(١) البقرة: ٢٥٣.

الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سروراً»[(١)]، حينئذٍ يأتي السؤال: ما هو موقف أولئك الذين خدموا البشرية بدون إيمان؟

هناك ثلاث نظريات:

الأولى: أن الله تعالى لا بدَّ أن يجازي هؤلاء ويثيبهم على عملهم.

الثانية: بما أن عنصر الإيمان غير متوفر لدى هؤلاء فإن الله تعالى لا يَمنَحُهم الجنّة.

الثالثة: نظرية الحلول الوسطى.

وسوف أستعرضها سريعاً جدّاً، وأذكر لكم ما هي أدلّتها، وفق النصوص والقيم الأخلاقية التي آمن بها الإسلام وجاء بها الدين التوحيدي.

نظرية قبول العمل من الكافر:

الدين يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[(٢)]، حتى لو كان كافراً، هذا هو الدليل الأوّل. والدليل الثاني: يقول أنتم وفق القيم الأخلاقية كما يقول رسول الله 9 : «إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[(٣)]، أليس الله تعالى هو الهادي للخيرات، ويحب المحسنين؟ أليس الله يأمر بالعدل والإحسان؟ إذن فلنتعامل وفق القيم التي يؤمن بها الله تعالى، قِيَم الإحسان والمحبة والخير، [وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ][(١)]. فهناك شخص

---

(١) الكافي ٢: ١٦٤/ باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم/ ح ٦.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) بحار الأنوار ٦٨: ٣٨٢؛ كنز العمال ١١: ٤٢٠/ ح ٣١٩٦٩.

(١) آل عمران: ١٣٤ و١٤٨؛ المائدة: ٩٣.

كـافر، ولكـن بيتـه مـأوى للنـاس، وأخلاقـه جيّـدة، وعقلـه فـي خدمـة الآخـرين، لمـاذا الله لا يحبـه؟ أيّهمـا أفضـل طبيـب مسـيحي يخـدم النـاس ويعـالجهم ويُحسـن إلـيهم، أم طبيـب مسـلم لا يعمـل، ولـيس لديـه أخـلاق، ومشغول بالفساد الإداري والرشوة؟!

ووفـق النظريـة الأولـى يَجـب أن يُعطـى لأديسـون جـزاءَه وثوابـه وأجره لأن [اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ][1] هذا هو دليل الرأي الأوّل.

نظرية عدم القبول:

أمّـا أدلـة الـرأي الثـاني، الـذي يقـول إن هـذه الأعمـال لأنهـا بـدون إيمـان فهـي غيـر مقبولـة، ولا ثـواب عليهـا لأن القـرآن الكـريم يقـول: [وَالْعَصْـرِ * إِنَّ الإِنسَـانَ لَفِـي خُسْـرٍ * إِلاَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ][2] فهـذان ركنـان للفـوز بـالثواب همـا الإيمـان والعمـل الصـالح، وإذا كـان شـخص فاقـداً للـركن الأوّل فهـو لا يفـوز بـالثواب الإلهـي. القـرآن الكـريم فـي كثيـر مـن الآيـات يؤكّـد هـذا المعنـى مـثلاً قولـه تعـالى: ﴿مَثَـلُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾[3].

وآيـة أخـرى تقـول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمـالُهُمْ كَسَـرابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾[4].

ووفـق هـذه الآيـات القرآنيـة فـإن أعمـال الكـافرين مثـل السـراب لا فائدة فيها، ونصوص أخرى كثيرة في هذا الشأن.

---

(١) التوبة: ١٢٠؛ هود: ١١٥؛ يوسف: ٩٠.

(٢) العصر: ١ - ٣.

(٣) إبراهيم: ١٨.

(٤) النور: ٣٩.

ولكـن هـذا الـرأي سـوف يواجـه السـؤال التـالي: كيـف يفقـد الثـواب وهـو قـد خـدَمَ عيـالَ الله وأحسـن إلـى الخَلـق، أوَلـيس الله يُحـب المحسـنين؟ أيـن العدالـة والرحمـة الإلهيـة؟ ألا يتفضـل الله علـى هـذا الـذي خَـدَم النـاس وعـالج مرضـاهم فـي المستشـفيات ببركـة تلـك الأدويـة التـي اكتشـفوها؟ فهل أولئك العلماء ليس لهم شيء؟!

نظرية الحلول الوسطى:

سـوف يبقـى هـذا السـؤال بـدون جـواب، ولـذا فقـد لجـأ العلمـاء إلـى نظريـة ثالثـة تُسـمّى نظريـة الحلـول الوسـطى، وهـو أن هـؤلاء لهـم جـزاء، ولكـن لـيس لهـم الجنّـة، فالجنّـة أُعِـدّت للمتقـين، إنمـا هـو شـيء مـن الجـزاء، إمّـا أن يعطَـوه فـي الـدنيا مـن نجـاح فـي نظريـاتهم، بحيـث يبقـى اسـمهم علـى طـول التـاريخ، وهـذا مقابـل ذاك. ربمـا هـو قـد تعـب ثلاثـون سـنة، ولكـن الله تعـالى يعطيـه مقابـل ذلـك ثلاثـين سـنة مـن السـعادة والخيـر أو الذريـة أو الـذكر العطـر علـى طـول التـاريخ، وهنـاك جـزاء الآخـرة أيضـاً، ولكنـه لـيس الجنّـة، وإنمـا هـو بعيـد عـن جنّـة الله تعـالى، لكـن يختلـف عـن أولئـك المعانـدين المجـرمين الأشـقياء فـي النـار وربمـا يكـون هـو فـي دائـرة أهـل جهـنم، ولكنـه خـارج حـدودها، كـأن تكـون لهـم مواقـع خاصـة تمـنعهم مـن حرارة النار وهي أماكن تميّزهم عن الآخرين.

الروايـة عـن الإمـام الكـاظم C تقـول: «كـان فـي بنـي إسـرائيل رجـلٌ مـؤمن، وكـان لـه جـارٌ كـافر، فكـان ذاك الكـافر يُرفـق بـالمؤمن، ويوليـه المعـروف، فلمّـا مـات الكـافر بنـى الله لـه بيتـاً فـي النـار مـن طـين كـان يقيـه حرّها ويأتيه الرزق من غيرها.

فيسأل: من أين هذا الرزق؟

فيُقـال لـه: هـذا بمـا كنـت تُـدخل بـه علـى جـارك المـؤمن فـلان بـن فلان من الرفق وتوليه من المعروف في الدنيا»[١].

إذن النظريـة تقـول إن هـؤلاء لهـم جـزاء، لكنـه لـيس الجنّـة، لأن الجنّـة أعدّها الله تعالى للمؤمنين فقط.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) ثواب الأعمال: ١٦٩.

المحاضرة الثانية والثمانون:

الاعتراف بالذنب

وسيلة إلى الله

«إِلَهِي حَقِّقْ رَجَائِي وَآمِنْ خَوْفِي فَإِنَّ كَثْرَةَ ذُنُوبي لا أرْجُو فِيهَا إلاَّ عَفْوَكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

السبيل الثاني: الاعتراف بالذنب:

السبيل الثاني للتواصل مع الله تعالى هو الاعتراف بالذنب، وهذا أدب نقرؤه في القرآن الكريم عن الأنبياء G ، ونقرؤه في منظومة الأدعية:

«إلهي، أَنْتَ المُحسِنُ وَنَحنُ المُسيئون».

«إلهي، إِنْ عَفَوْتَ فَخَيْرُ رَاحِم وَإِنْ عَذَّبْتَ فَغَيْرُ ظَالِم».

«إِلَهِي إِنْ أَخَذْتَنِي بِجُرْمِي أَخَذْتُكَ بِعَفْوِكَ وَإِنْ أَخَذْتَنِي بِذُنُوبِي أَخَذْتُكَ بِمَغْفِرَتِكَ»، كل ذلك في مجال الاعتراف بالذنب من قِبَل زين العابدين وسيد الساجدين C ، الذي لم يُعرف أعبد منه في زمانه.

وهذا الاعتراف بالذنب هو حقيقة سوف يصل إليها الإنسان إما إرادياً واختيارياً في الدنيا، وإما جبراً وقهراً في الآخرة، فإن الإنسان في الدنيا إذا لم يعترف بالخطأ بينه وبين الله تعالى، فإنه يوم القيامة سيعترف بالخطأ قهرياً، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3]، لكن ذاك اعتراف جبري لا

---

(١) النور: ٢٤.

(٢) يس: ٦٥.

(٣) المُلك: ١١.

فائدة منه، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[١]، ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٢].

يقولون: إلهي أنت أحييتنا مرَّتين، وأمتَّنا مرَّتين، والآن نحن في هذه الحياة الثانية اعترفنا بذنوبنا، فهل يمكن أن تُرجعنا إلى حياتنا الدنيا؟

هناك سؤال عارض عن ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فهاهنا حياتان ومماتان، الحياة الأولى في الدنيا بعد أن كان عدماً، والحياة الثانية في الآخرة بعد أن مات. و(أمتَّنا اثنتين): الموتة الأولى هي عندما كان عدماً قبل أن يخلقه الله تعالى والثانية هي الموتة الطبيعية بعد هذا العمر الذي قضاه في الدنيا، وهناك آراء أخرى في تفسير ذلك.

وإذا لم يعترف الإنسان يوم القيامة بلسانه فإن جوارحه سوف تعترف عليه [وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ][٣] لكن هذا اعتراف قهري لا قيمة له فهو مثل الاعتراف أمام القاضي بعد الجريمة، أنت الآن في قفص الاتهام، تعترف، يُسجّل عليك، ولا تستطيع أن لا تعترف، لكن الاعتراف الإرادي الاختياري في الدنيا هو أن نقول في الدنيا: إلهي أخطأنا، «إِلَهِي قَلْبِي مَحْجُوبٌ وَنَفْسِي مَعْيُوبٌ وَعَقْلِي مَغْلُوبٌ وَهَوَائِي غَالِبٌ وَطَاعَتِي قَلِيلٌ وَمَعْصِيَتِي كَثِيرٌ وَلِسَانِي مُقِرٌّ بِالذُّنُوبِ»، المطلوب أن نعترف في الدنيا، وهذا هو خط رسمه الإسلام للإنسان لأجل التكامل في تربية النفس، ولأجل القرب من الله تبارك وتعالى.

لاحظوا يونس في بطن الحوت، كان يقول: ﴿لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ

---

(١) غافر: ٥٢.

(٢) غافر: ١١.

(٣) يس: ٦٥.

﴿سُبْحانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ﴾[١]، هذا الاعتراف بالذنب هو الذي يفتح للإنسان أبواب الرحمة، والخير والنصر من الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[٢]، هنا كلمة (عسى) تأكيدية بمعنى بالتأكيد أن الله تعالى سوف يتوب عليكم، وليست احتمالية، و(عسى) و(لعلَّ) إذا جاءت في القرآن الكريم فإنها تُعتبر تأكيدية، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣] و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٤].

يقول القرآن: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ هؤلاء لديهم خصوصيتان: الأولى أن أعمالهم مختلطة، جيدة وغير جيدة، ليسوا غارقين في الجريمة، بل لديهم حسنات ولديهم سيئات، والثانية أنهم اعترفوا بذنوبهم، هؤلاء الناس الذين جمعوا هاتين الخصوصيتين: الأعمال السيئة، والأعمال الحسنة، إضافة إلى الاعتراف بالذنب هؤلاء ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

قصة أبي لُبابة:

هذه الآية نزلت في قصة أبي لُبابة، وهو أحد أصحاب النبي 9 ، وذلك أن النبي 9 بعد واقعة الأحزاب، توجه مباشرة إلى بني قُريضة

---

(١) الأنبياء: ٨٧ و٨٨ .
(٢) التوبة: ١٠٢.
(٣) البقرة: ١٨٩.
(٤) البقرة: ٥٣.

(اليهود)، وكان أمير المؤمنين C قائداً للكتيبة، فأخذ اللواء وثبّته عند باب الحِصن، فَعَرف اليهود أنهم محاصرون، وكانوا قد ارتكبوا خيانة في حلفهم مع المسلمين لأنهم فتحوا ثغرة لقريش على المسلمين، واستمر الحصار على اليهود، ولكن اليهود كانوا يملكون ثروات وخزائن وأطعمة كثيرة، ومع ذلك فقد استمر الحصار أكثر من عشرين يوماً، إلى أن بان عليهم التَعَب وهم في الحصن، وطلبوا التفاوض وقالوا: يا محمّد، ابعث إلينا أبا لُبابة نستشيره في أمرنا.

فقال رسول الله 9 : «يا أبا لُبابة ائت حلفاءك ومواليك»، فأتاهم.

فقالوا له: يا أبا لُبابة ما ترى؟ أننزل على حكم رسول الله 9 .

فقال: انزلوا، واعلموا أنَّ حكمه فيكم هو الذبح، وأشار إلى حلقه، ثمّ ندم على ذلك، فقال: خِنتُ اللهَ ورسوله، ونزل من حِصنهم ولم يرجع إلى رسول الله 9 ، بل ذهب إلى المسجد وشدَّ في عُنُقه حَبلاً، ثمّ شدَّه إلى أسطوانة في المسجد، وقال: لا أُحلُّه حتّى أموت، أو يتوبَ الله عليَّ.

فبلغ ذلك رسول الله 9 .

فقال: «أما لو أتانا لاستغفرنا الله له، فأمّا إذا قصد إلى ربِّه فالله أولى به».

وكان أبو لُبابة يَصوم النهار ويأكل بالليل ما يمسك رمقه، وكانت بنته تأتيه بعشائه، وتحلّه عند قضاء الحاجة، فلمّا كان بعد ذلك، ورسول الله في بيت أُمّ سلمة نزلت توبته، فقال: «يا أُمّ سلمة، قد تاب الله على أبي لُبابة»، فقالت: يا رسول الله، أفأؤذنه بذلك؟

فقال: «لَتفعلن»، فأخرجت رأسها من الحجرة وقالت: يا أبا لُبابة، أبشر، قد تاب الله عليك.

فقال: الحمد لله، فَوَثب المسلمون يَحلّونه.

فقال: لا والله حتّى يحلّني رسول الله 9 بيده، فجاء رسول الله 9 فقال: «يا أبا لُبابة، قد تاب الله عليك توبة لو ولدت من اُمّك يَومَك هذا لكفاك».

فقال: يا رسول الله، أفأتصدق بمالي كلّه؟

قال: «لا».

قال: فبثلثيه؟

قال: «لا».

قال: فبنصفه؟

قال: «لا».

قال: فبثلثه؟

قال: «نعم»، فأنزل الله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1] [2].

الاعتراف بالذنب من أكبر الخطوات المقرّبة نحو الله، فالإنسان قد تكون أعماله الحسنة قليلة والسيئات كثيرة لكنه إذا اعترف بالذنب فقد فتحت له باب التوبة والمغفرة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾.

«إِلَهِي، أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي»، الفلاسفة يقولون الإنسان هو الفقر، وهو محض الفقر والعدم، هناك غني وهو الله، والثاني فقير وهو أنت، ولكن من أنت حتّى تقول أنا؟! فهذه الأنا يجب أن تُمحى، فالإنسان هو محض الفقر، وليس فقيراً.

---

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) راجع: تفسير القمي ١: ٣٠٣، عنه: بحار الأنوار ٢٢: ٩٤.

ووفق النظرية الدينية فإن الإنسان ليس شيئاً في مقابل الله تبارك وتعالى.

لا يوجد شيء غير الأشعة الإلهية في هذا الوجود، العِلم الحديث يتحدّث عن هذه القضية، أن هناك أشعة شمس، وأكس، وسينية، وبنفسجية، وفوق البنفسجية، وما شاكل ذلك، وهذه كلها عبارة عن أمواج، ولحدِّ الآن لم يستطع العلم أن يحلّل هذه الأمواج، وكل هذا الوجود هو عبارة عن إشعاع من إشعاعات الحقيقة المطلقة والوجود المطلق، فلا يوجد شيء في السماوات والأرض غير الله، وما الوجود إلاّ امتداداته وإشعاعه، ثمّ هذا الذي تُسمّيه زيداً وخالداً وعمرواً، إنما هو عدم، ومحض الفقر، ولكن قد اجتمعت مجموعة أعدام ونواقص فأصبح منها فلان وفلان وفلان.

اعتراف الأنبياء بالذنوب:

وهذا حديث نكتفي فيه بمجرد الإشارة إنما السؤال هو: أن الاعتراف بالذنب هل هو مجرد أدب ومجاملة مع الله، أم هو حقيقة؟ فإذا كان حقيقة فكيف نفسّر اعتراف الأئمّة والأنبياء بالذنوب؟

وإذا كان مجرد مجاملة، فلماذا وما فائدته؟ ولماذا هذه المنزلة العظيمة للاعتراف بالذنب؟ وما هو المدلول الحقيقي للاعتراف بالذنب والذي يريد الإسلام أن يثقفنا عليه؟ «إلهي، إنْ كَانَ قَدْ دَنَا أَجَلِي وَلَمْ يُدْنِنِي مِنْكَ عَمَلِي فَقَدْ جَعَلْتُ الإِقْرَارَ بالذَّنْبِ إِلَيْكَ وَسِيلَتِي».

الجواب على هذا السؤال أن الاعتراف بالذنب الصادر من الأنبياء والأئمّة هو حقيقة.

وهناك ثلاثة مداليل له:

الأوّل: هو التعبير عن الشكر كما جاء في رواية: أن عمر بن الخطاب دخل على النبي 9 وهو محموم.

فقال له عمر: يا رسول الله، ما أشدّ وعكك!

فقال: «ما منعني ذلك أن قرأت الليلة ثلاثين سورة فيهن السبع الطوال».

فقال عمر: يا رسول الله، غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر، وأنت تجهد هذا الاجتهاد؟

فقال 9 : «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»(١)، أي افترضوا أنني لا يوجد لديَّ ذنب، لكن في مقابل النِعَم التي لدينا والتي تترى من صغرنا إلى يومنا هذا، من ألوان النِعَم، فكيف نقابل تلك النِعَم؟ نقابلها بالاعتراف بالقصور والخطأ والذنب. «أفلا أكون عبداً شكوراً» لأن هذا الاعتراف هو لون من ألوان الشكر والتقدير لصاحب النعمة التي تفضَّل بها عليك.

ثانياً: إن الإنسان مهما كان مؤمناً يعيش في غفلة، فلا تتصور أننا نصلّي في اليوم خمس مرّات أو نصوم، فقد أدّينا الواجب، هذا اشتباه، بل نحن نعيش غفلة عن استحقاقات الربوبية، الرب الخالق الذي يملكنا جميعاً نحن نعيش في غفلة عنه، وقد نذكره في الصلاة في لحظات قليلة، لكن ما بقي فنحن مشغولون بهمّنا وما شاكل، هذه مشاكل تشغلنا عن ذكر الله حتّى لو كانت حلالاً، لكن أنت جالس في قصر هذا الملك،

(١) أمالي الطوسي: ٤٠٤/ ح ٩٠٣/ ٥١.

وتتمتع وتعمل بمصالحك الشخصية، ولهذا فإن الدعاء يقول: «أسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بغَيْر ذِكْرِكَ»، حتّى اللذة بغير ذكر الله فهي بمثابة المعصية، «وَمِنْ كُلِّ شُغْل بغَيْر طَاعَتِكَ»، نعم الإنسان في غفلة كما قال رسول الله 9 : «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[1].

يقول العرفاء: إن صلاتنا التي نُصلّيها هي ذنب من الذنوب!!، أليست هي عندنا قربة إلى الله كما نزعم، بينما هي في الحقيقة معصية إذا أردت أن تحسب حساباً دقيقاً، وجرأةً على الله تعالى، أنك مُحمّل بالذنوب ومع ذلك تقول: اهدنا الصراط المستقيم، ونحن البسطاء نقول: هي قربة إلى الله، بينما العرفاء يقولون: ابن آدم كاذب، هل هذه الصلاة هي قربة إلى الله، إنما أنت تريد الجنّة والحور العين، وهذه ليست قربة إلى الله بل هي قربة إلى الجنّة والمصلحة الشخصيّة.

المدلول الحقيقي للاعتراف بالذنب هو أننا في غفلة حقيقية، والساعة التي ينتبه فيها الإنسان للحقيقة الكبرى هي ساعة الموت، حينئذٍ يعرف ما معنى السؤال، والحشر، وتطاير الكتب، والولاية، ومعنى الإحسان، وصلة الرحم، والصلاة، والصوم، والقيم الأخلاقية، هناك يتجلى لهم، وإلاّ نحن هنا لا نعرف شيئاً إلاّ الظاهر مما جاءنا به الأنبياء G ، نحن الآن في غفلة وأنانية مطلقة، حتّى في عباداتنا، فكيف في ساعات أخرى غير العبادة، مثل المعصية _ لا سمح الله _، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ﴾[2]، فلو

(١) بحار الأنوار ٥٠: ١٣٤.

(٢) النحل: ٦١.

أراد الله أن يؤاخذنا بالمعاصي وأراد الله أن يحاسبنا وفق قوانين الطبيعة لما ترك منّا أحداً حياً. مثال ذلك: الإنسان لو أصاب عينه فايروس معيّن يتحول من الرمد إلى العمى. وإذا انقطع عنه عصب من الأعصاب المحركة للسان لَشُلَّ اللسان. ولهذا فإن الإنسان في الدنيا يحتاط كثيراً من المرض، فلو أن هذه المعاصي كانت تترك أثرها على البدن وتؤثر على القلب تأثيراً مادياً وعلى باقي الأعضاء لأصبح الإنسان كتلة لحمية بدون حراك. ولكن الله تعالى جعل التفاعل المادي للذنوب في الآخرة، وجعل التفاعل للأطعمة والأشربة في الدنيا، وهذه المعادلة يذكرها القرآن الكريم فيقول: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

ثالثاً: المدلول الثالث للاعتراف بالذنب هو طلب الزاد، تقول إنك ليست لديك معصية أو ذنب، لكنك في سفر طويل، وأمامك أهوال خطرة، وملايين السنين، ما هو زادك إلى ذاك العالم؟ لا بدَّ أن تكون مستوحشاً، ولا بدَّ أن تكون قلقاً أشدَّ ما يكون، الطالب في الدنيا إذا أرادوا أن يعطوه نتائج الامتحانات السنوية يَصبح قلقاً على مستقبله، فيجب أن نكون قلقين على نتائجنا في الآخرة، ومعترفين بأننا لا نملك شيئاً، إذا أراد الله تعالى أن يُنجحنا فهذا من لطفه تبارك وتعالى، «فَقَدْ عَلِمْنَا مَا نَسْتَوْجِبُ بأعْمَالِنَا».

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) الإسراء: ٧٢.

المحاضرة الثالثة والثمانون:

حُسن الظن بالله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

السبيل الثالث: حُسن الظن بالله تعالى:

ما زال الحديث عن سُبُل التواصل بين الإنسان وبين الله سبحانه وتعالى، وتحدّثنا في هذا السياق عن سبيل خدمة العباد، وسبيل الاعتراف بالذنب، اليوم نتحدّث ضمن ثقافة الدعاء وبحره، وما يُعلّمنا الدعاء من أدب خاص فيما بيننا وبين الله سبحانه وتعالى عن السبيل الثالث، وهو حسن الظن بالله تبارك وتعالى، وهذا الأدب بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى كثيرٌ في الدعاء، ودعاء الإمام زين العابدين C مليء بحسن الظن بالله تبارك وتعالى: «يَا رَبّ، إنَّ لَنَا فِيكَ أمَلاً طَويلاً كَثِيراً، إنَّ لَنَا فِيكَ رَجَاءً عَظِيماً، عَصَيْنَاكَ وَنَحْنُ نَرْجُو أنْ تَسْتُرَ عَلَيْنَا، وَدَعَوْنَاكَ وَنَحْنُ نَرْجُو أنْ تَسْتَجِيبَ لَنَا، فَحَقّقْ رَجَاءَنَا»، هذا كلّه حديث عن حسن الظن، كما لو كنت تتعامل مع أكثر الناس كرماً يملك الخزائن، وأنت أمامَ ذلك الكريم تحتاج حاجات بسيطة جدّاً، «اَللهُمَّ إني أسْألُكَ قَلِيلاً مِن كَثِير» ولا حَدَّ للرصيد الذي لديه، وأنت تريد دراهم معدودة، وعندك حسن ظن بهذا الكريم.

ثقافة الدعاء حسن الظن بالله تعالى، وهذا الأمر يؤكّده القرآن الكريم والروايات.

يقول القرآن: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ ﴾[1]، بهذا يخاطب الله الكافرين يوم القيامة حين يردون جهنم،

---

(١) فصلت: ٢٣.

سوء ظنكم بالله الذي أوصلكم لهذه النتيجة، والمطلوب من المؤمن حسن الظن، مرة على مستوى الدنيا، ومرة على مستوى الآخرة، أما الذي على مستوى الدنيا فالله هو الذي يُغنينا، وهو الذي يعافينا ويكرمنا ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(١).

«اَلْحَمْدُ لله الَّذِي يُجيبُنِي حِينَ أنادِيهِ، وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وَأَنَا أعْصِيهِ، وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلا أُجَازِيهِ».

هذا على مستوى الدنيا، لدينا حُسن ظن بالله تعالى أن لا يتركنا، لا في شدة، ولا في بؤس، ولا في مرض، ولا في فقرٍ، ولا في غربة، الله لا يترك عبده الصالح، حُسن ظن في أشد الأحوال، وحاشا أن يترك الله عبده، «يَا مُنْجِيَ يُونُسَ مِن بَطْنِ الْحَوتِ»، وبطن الحوت أشد من الزنزانة الانفرادي.

في أيام الشدة التي كانت علينا وعليكم أيام نظام صدام كنّا نكثر من قراءة (دعاء المشلول) المروي عن أمير المؤمنين C ، الذي علّمه إيّاه رسول الله 9 ، وقد علّمه شاباً مشلولاً فشُفي، وهذا الدعاء فيه فقرات عجيبة، يقول: «يَا جَارِيَ اللَّصِيقُ، وَيَا كَهْفِيَ الوَثِيقُ، ويَا إِلَهِي عَلَى التَّحْقِيق، فُكَّ عَنّي حَلْقَ المَضِيق، وَفَرِّجْ عَنّي كُلَّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَضِيقٍ»(٢)، فعلى مستوى الدنيا يجب علينا أن نحسن الظن بالله تعالى، وجميعنا في محضر الله وقدرته، ولا يعجزه شيء.

أما حسن الظن على مستوى الآخرة وما بعد الموت فهناك المسألة أشد، ففي الدنيا قد نستعين بناس آخرين، وقد نستعين بأمور أخرى لكن

---

(١) الشعراء: ٨٠.

(٢) بحار الأنوار ٩٢: ٣٩٨.

في الآخرة أنت لا تملك حتّى النُطق، فنحن لا نملك اللسان حتّى نعرف ما ينطق، ولا حركة الرجل حتّى نعرف هل تثبت على الصراط أم لا، ولا تملك حركة اليد كي تعرف هل تأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال، فحركة الأعضاء بالدنيا إرادية، لكن حركة جوارح البدن يوم القيامة غير إرادية، والروح هي التي تُسيّر الإنسان، ولأجل ذلك يجب أن نلجأ إلى الله تعالى ونعوّل عليه ونحسن الظن به ربما يفعله بنا يوم القيامة. في حديث عن رسول الله 9 وهو في المعراج يقول: «رأيت رجلاً من أمّتي على الصراط يرتعد كما ترتعد السعفة في يوم ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته»[١].

رسول الله 9 فيما روي عنه يقول: «والذي لا إله إلاّ هو، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلاّ بحسن ظنّه بالله، ورجائِه له، وحُسنُ خلقه، والكفّ عن اغتياب المؤمنين.

والذي لا إله إلاّ هو لا يعذّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلاّ بسوء ظنه بالله، وتقصيره من رجائه، وسوء خُلُقِه، واغتيابه للمؤمنين.

والذي لا إله إلاّ هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلاّ كان الله عند ظن عبده المؤمن؛ لأن الله كريم، بيده الخيرات، يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثمّ يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه»[٢].

الله تعالى في مفهومنا الديني هو مثال الأدب والأخلاق ولذا يقول الحديث: إن الله يستحيي من العبد الذي يُحسن ظنه بالله؛ لأنه أحسن ظنّه بالله تعالى.

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٠١/ ح ٣٤٢/ ١.

(٢) الكافي ٢: ٧٢/ باب حسن الظن بالله ﷻ/ ح ٢.

الظن الصادق والكاذب:

ستسألون: ما هو حُسن الظن بالله؟ هل يصح أن نقول: الله كريم، ونرتكب كل ما يحلو لنا؟! لا، إنما هناك الظن الصادق، وهناك الظن الكاذب.

كثير من الناس الذين لا يُصلّون ولا يصومون ويرتكبون كل الفواحش ثمّ يقول بعدها: الله كريم، هل هذا هو حُسن الظن بالله، أم حسن الظن ذلك الذي عند الأنبياء والأولياء وعند البكّائين من خشية الله تعالى؟

فإذا كان لديك حُسن ظن بطبيب فإنك تقترب منه، وإذا كان عندك حُسن ظن بجار فإنك ستوطد العلاقة به، وتثق به، وتتحبب له، وتكون بينكما صلة قويّة.

أما إذا لم يكن لديك حُسن ظن، بل كان لديك سوء ظن، فإنك تغلق الباب، فلا تراه ولا يراك، ولا تسلّم عليه ولا يسلّم عليك، كثير من الناس يرتكب المعاصي ويتصور أن لديه حُسن ظن بالله، وهو مهمل وليس لديه يقين حقيقي بالآخرة، إنما عمله ليلاً ونهاراً هو للدنيا، والحال أنّ هذا ليس بحُسن ظن، هذا سوء أخلاق مع ذلك الكريم، وسوء ظن بالذي ينتظر لقاءه يوماً، حسن الظن أن يزداد رجاؤك بالكريم، وفي نفس الوقت يزداد طلبك وصلتك مع ذلك الكريم.

ولهذا فإن الرواية عن الإمام علي C تقول: «إن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله، وأن يحسن ظنّكم به، فاجمعوا بينهما، فإن العبد إنما يكون حُسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه، وأحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً منه»(١).

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٢٩/ رقم ٢٧.

الإمام أمير المؤمنين C كان أشدّ الناس خوفاً من الله حين يقف في عمق البستان، ويصفّ قدميه إلى الصلاة في منتصف الليل حتّى يغمى عليه من البكاء وخشية الله، هذا هو حُسن الظن، وليس ذلك الذي يقضي ليله ونهاره في لهو ولعب وطرب وخمر ويقول: عندي حسن ظن بالله، فإن هذا من تزيين الشيطان.

ما هي مبررات حسن الظن بالله؟

روي عن الإمام الصادق C : «كان في بني إسرائيل عابد، أوحى الله إلى داود C : أنه مرائي.

قال: ثمّ مات ذلك العابد فلم يشهد جنازته داود، فقام أربعون شخصاً من بني إسرائيل فقالوا: (اللهم إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً، وأنت أعلمُ به منّا، فاغفر له)، ولما كان عند المغتسل جاء أربعون شخصاً وشهدوا أيضاً: (اللهم إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً، وأنت أعلم به منّا، فاغفر له)، ولما وضعوه في قبره شهد أربعون آخرون فقالوا: (اللهم إنا لا نعلم منه إلاّ خيراً، وأنت أعلم به منّا، فاغفر له)، ثمّ دفنوه وانصرفوا، فأوحى الله إلى داود: يا داود، ما منعك أن تصلّي عليه؟

قال: إلهي للذي أخبرتني.

فأوحى الله تعالى: أنه شَهَد له قومٌ فأجزت شهادَتهم، وغَفرتُ لهُ ما عَلِمتُ ممّا لا يعلمون»[1].

هذه الرواية تقدم صورة جميلة عن كرم الله تعالى ورحمته بعبده تدعونا للمزيد من حسن الظن به تعالى.

---

(١) راجع: عدة الداعي: ١٣٦.

ولنعد إلى السؤال عن دواعي حسن الظن بالله:

الدعاء يقول: «عَظُمَ يَا سَيِّدِي أَمَلِي، وَسَاءَ عَمَلِي، فَأَعْطِنِي مِنْ عَفْوِكَ بِمِقْدَارِ أَمَلِي، وَلا تُؤَاخِذْنِي بِأَسْوَإِ عَمَلِي، فَإِنَّ كَرَمَكَ يَجِلُّ عَنْ مُجَازَاةِ الْمُذْنِبِينَ، وَحِلْمَكَ يَكْبُرُ عَنْ مُكَافَاةِ الْمُقَصِّرِينَ».

هذا الدعاء يكشف لنا ما هي دواعي حسن الظن بالله:

الأوّل: «إلهي، فَإِنَّكَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِي، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَى رَحْمَتِكَ».

الثاني: أن الله تعالى مثلما كانت عادته الإحسان إلينا في الدنيا فإن صاحب العادة الطيبة لا يتركها، هذا الخُلُق ربّانا عليه الإسلام، حينئذٍ تأتي الأدعية فتقول: «إلهي، عَادَتُكَ الإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيئِينَ، وَسَبِيلُكَ الإِبْقَاءُ عَلَى الْمُعْتَدِينَ».

الثالث: سرور النبي 9 بنجاة العبد ودخوله الجنّة، ولا شكّ أن الله تعالى يريد سرور نبيّه، ولذا يقول الدعاء: «إِلَهِي إِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ فَفِي ذَلِكَ سُرُورُ عَدُوِّكَ، وَإِنْ أَدْخَلْتَنِي الْجَنَّةَ فَفِي ذَلِكَ سُرُورُ نَبِيِّكَ، وَأَنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ أَنَّ سُرُورَ نَبِيِّكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ سُرُورِ عَدُوِّكَ».

الرابع: صِفة الكرم، فإن الله تعالى كريم، بل هو أكرم الأكرمين.

في قصة السيد مهدي بحر العلوم 1 المدفون في مقبرة السادة آل بحر العلوم في مسجد الشيخ الطوسي، ويلقّب بـ (صاحب الكرامات)، وكان فقيهاً بارعاً من فقهاء أهل البيت G ، يقول عنه الراوي للقصة: ذهب إلى مكّة المكرمة وسكن هناك ثلاث سنوات، وكان عالماً جليلاً، يفتي أهل كل مذهب بمذهبهم، ولهذا سمي (بحر العلوم)، وباعتباره مرجعاً دينياً كان يعطي الصدقات والمساعدات للمحتاجين من طلاّبه وغيرهم في بداية كل شهر، وقد بدأت الأموال تنفد عنده، وكان معه المتصدي لأموره قال له: سيدنا، لم يبقَ شيء من الأموال، فقلّل العطاء.

فلم يأبه به السيد بحر العلوم، إلى أن انتهت الأموال وجاء المتصدي وقال: لم يبقَ لديَّ شيء من الأموال، يقول: وبعد مضي يوماً واحداً، وبعد رجوعه من الطواف وجلوسه في البيت، وإذا بطارق يطرق الباب، فتغير السيد تغيراً شديداً وقال لي: أخرج من هنا، وذهب هو بنفسه ليفتح الباب، ففتح الباب وإذا بشخص جليل على هيأة الأعرابي يدخل ويجلس في غرفة السيد، وجلس السيد عند باب الغرفة وهو في غاية الأدب والاحترام، وبعد ساعة من الجلوس والحديث قام ذلك الشخص، فقام السيد بسرعة وذهب إلى باب الدار ففتحها له، وقبّل يده، وأصعده الناقة التي كانت باركة أمام الباب ثمّ ودّعه، ثمّ رجع السيد ولونه متغيّر وقال لي: خُذ هذه الحوالة واذهب بها لرجل صرّاف عند جبل الصفا وخذ منه ما حُوّل له، فذهبت إليه وأعطيتها له، فلما نظر إليها قبّلها وقال لي: اذهب واجلب معك أربعة حمّالين، ففعلت، فحمّلهم ما استطاعوا من الأموال، وذهبوا بها إلى بيت السيد.

قال: وبعد يوم ذهبت إلى هناك لأستفسر مِن الصرّاف عن صاحب الحوالة وما كان منها، فلم أجد صرّافاً ولا محلاً للصرافة، فعلمت أن ما جرى كان من أسرار علاّم الغيوب[1].

وقبل هذه القصة أود أن أنقل لكم رواية العلامة السيد كاظم القزويني ـ وهو من علماء كربلاء، وله كتب مهمّة من جملتها (عليٌّ من المهد إلى اللحد) ـ يقول: كنت أوزّع رواتب للطلبة في بداية كل شهر، وكان مجموع الذي أوزعه ألف دينار، ولكن جاء أوّل الشهر وأنا ليس

(١) الفوائد الرضوية ٢: ٦٨٠.

لـديَّ شـيء، وجـاء الأمـر مـن المرجـع الـديني أن أوزع الرواتـب، فـذهبتُ إلـى الإمـام الحسـين وكتبـت قصاصـة ورقيـة وقلـت: يـا أبـا عبـد الله، إذا كانـت قصة السيد بحر العلوم صحيحة، فأنتم رتّبوا حالي.

يقـول: رجعـت فـي الليـل، فلمّـا كـان الصـباح وبـين الطلـوعين طُرقَـت البـاب، فإذا تـاجر فـي البـاب وقـال: خـذ هـذه الرسـالة تجـد محـلاً فـي السـوق، وتجـد صـاحب المحـل، فسـلّمه الرسـالة وخـذ منـه الأمانـة. فأخـذت الرسـالة وذهبت فوجدت الشخص والمحل وسلّمته الرسالة، فسلمني نقوداً كثيرة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الرابعة والثمانون:

الثقة بالله واليأس من الذات

«اللَّهُمَّ.. قَوْماً آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ لِيَحْقِنُوا بِهِ دِمَاءَهُمْ فَأَدْرَكُوا مَا أَمَّلُوا وَإِنَّا آمَنَّا بِكَ بِأَلْسِنَتِنَا وَقُلُوبِنَا لِتَعْفُوَ عَنَّا فَأَدْرِكْنَا مَا أَمَّلْنَا...».

بسم الله الرحمن الرحيم

السبيل الرابع: الإيمان بالله تعالى:

ولنعد إلى سُبُل التواصل بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى:

ذكرنا فيما سبق ثلاثة سُبُل.

والسبيل الرابع هو الإيمان بالله تعالى، ولقد كانت كل السبل السابقة فرعية، ولكن أصل الجادة هو الإيمان بالله، وهو أفضل عمل يقرّبك إلى الله تعالى.

لدينا مجموعة روايات كما يرويها الشيخ الكليني في كتابه الكافي في هذا الشأن.

الإيمان لا تضر معه سيئة:

منها: عن الإمام الصادق C يقول: «الإيمان لا يضرّ معه عمل، وكذلك الكفر لا ينفع معه عمل»[1]، ولكن هذا الحديث سيثير لنا سؤالاً مهمّاً، إذا كان الإيمان لا يضر معه عمل فهل يجوز أن يفعل الإنسان ما يشاء؟

هناك مجموعة إجابات على هذا التساؤل.

الجواب الأوّل: إن الإيمان لا يضر معه زيادة الأعمال الصالحة أو نقصانها فهو عنصر قوي في النجاة وإن قلّت الأعمال الصالحة. ويؤيد هذا التفسير رواية محمّد بن مارد قال: قلت لأبي عبد الله C : حديث روي لنا أنك قلت: «إذا عرفتَ فاعمل ما شئت»؟

(١) الكافي ٢: ٢: ٤٦٣/باب أن الإيمان بالله لا يضر معه سيئة، والكفر لا تنفع معه حسنة/ح ٤.

فقال: «قد قلت ذلك».

قال: وإن زنوا، أو سرقوا، أو شربوا الخمر؟!

فقال لي: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووُضِع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره، فإنه يقبل منك»(١).

الجواب الثاني: إن المقصود بالإيمان هو الإيمان الصادق المخلص بمعنى: «من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً لا يضرّه شيء»، وليس مجرداً بحيث يشمل الإيمان الشكلي لأن معاوية أيضاً قال لا إله إلاّ الله لكن ذلك لا ينفعه. الشيخ الصدوق يذكر مجموعة روايات عن النبي 9 وعن الإمام الصادق C أنه: «من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنّة، وإخلاصه بها أن يحجزه لا إله إلاّ الله عمّا حرّم الله»(٢).

وهناك تفسير ثالث _ وربما يكون هو الأقرب _ أن من قال: (لا إله إلاّ الله) لا يضرّه ما يجري عليه في الدنيا، ومن كان كافراً لا ينفعه ما كان يكسبه في الدنيا، فكأنّ الإمام يريد أن يقول: إن الإنسان الذي يملك إيماناً لا يضره شيء، فمن كان عاقبته الجنّة لا يضرّه شيء.

الإمام علي C كان يقول: «ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌّ بعده الجنّة بشرّ»(٣). فالكافر لا ينفعه شيء حتّى لو أُعطي جميع الدنيا، وبهذا يمكن أن نفسّر سائر الروايات التي تقول إن الإيمان لا يضرّ معه عمل.

هناك معنى جميل في دعاء عرفة للإمام الحسين C يقول فيه:

---

(١) الكافي ٢: ٢: ٤٦٤/ باب أن الإيمان بالله لا يضر معه سيئة، والكفر لا تنفع معه حسنة/ ح ٥.

(٢) ثواب الأعمال: ٥.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٩٢/ رقم ٣٨٧.

«وَأسْـألُكَ اللّهُـمَّ حَـاجَتِيَ الَّتِـي إنْ أعْطَيْتَنِيهَـا لَـمْ يَضُـرَّني مَـا مَنَعْتَنـي وَإنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أعْطَيْتَنِي أسْألُكَ فَكَاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّار».

اليأس من الذات:

اليـأس مـن الـذات، والثقـة بـالله فقـط، ودعـاء الإمـام زيـن العابـدين C يؤكّـد هـذا السـبيل وهـذا المضـمون فـي أكثـر مـن موقـع، وهكـذا فـي سـائر الأدعيـة حيـث يقـول: «وَقَـدْ نَزَلْـتُ مَنْزِلَـةَ الآيسِـينَ مِـنْ خَيْري».

الإمـام زيـن العابـدين C يقـول: إلهـي أنـا يـائس مـن خيـري وعملـي، ولا يمكـن أن أعتمـد علـى عملـي وذاتـي وصـلاتي وصـومي، «فَقَـدْ عَلِمْنَا مَا نَسْتَوْجِبُ بأعْمَالِنَا»، فأعمالنا لا يمكن الاعتماد عليها.

إن ثقافـة الـدعاء تؤكّـد أهميـة حالـة اليـأس مـن الـذات، والإنسـان المـؤمن يجـب أن يكـون يائسـاً مـن ذاتـه، وغيـر واثـق بعملـه، وأنـه هـو الـذي يخلصـه يـوم القيامـة، بحيـث لا يمكـن أن يتعـرض لخطـر، ولا إلـى سـؤال منكر ولا نكير.

الثقـة المطلقـة بـالنفس، وزوال حالـة الخـوف والقلـق هـو أمـر يحتـوي علـى كثيـر مـن الغـرور، فـأوّل مشـكلة إبلـيس هـي الثقـة بنفسـه حـين قـال: [أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْـتَنِي مِـنْ نَـار وَخَلَقْتَـهُ مِـنْ طِـينٍ][1]، وأن أصـولي أصـول نقيـة، وأنـا أكـرم مـن الطـين، كـل واحـد يطـرح أنانيتـه بشـكل، وإبلـيس طـرح أنانيتـه بهـذا الشـكل، طبعـاً إذا أردنـا تقيـيم القضـية قـد نقـول إن كـلام إبلـيس صـحيح مـن الناحيـة الظاهريـة، وأنـه عَبَـدَ الله منـذ سـتة آلاف سـنة، وهـو أسـبق مـن آدم

(١) الأعراف: ١٢.

الذي خلُق جديداً للتو، فلماذا يسجد له؟؛ قد يكون ذلك صحيحاً بالقيم المادية الظاهرية، لكن الله تعالى يقول: أنا أعلم منك.

أنظروا إلى ثقافة الدعاء: «إِلَهِي، أَنَا الضَّالُّ الَّذِي هَدَيْتَهُ، وَالْفَقِيرُ الَّذِي أَغْنَيْتَهُ، وَالسَّقِيمُ الَّذِي شَفَيْتَهُ»، الأنا من دون الله ضلال، فقر، جهل، مرض، ذلّ، هوان، هذه هي الأنا بحسب ثقافة الدعاء، ولهذا نقرأ في الدعاء: «إِلَهِي، وَافْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَلا تَفْعَلْ بي مَا أَنَا أَهْلُهُ»، أي اعمل معي معاملة الكريم مع السائل، وهذا كلام أئمّتنا المعصومين G ، ودعاء أبي حمزة الثمالي مملوء بثقافة اليأس من الذات، «وَقَدْ نَزَلْتُ مَنْزِلَةَ الآيسِينَ مِنْ خَيْري».

في الرواية عن أبي جعفر الباقر C قال: «كان رسول الله 9 عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لِمَ تتعب نفسك وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟

فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً؟».

قال: «وكان رسول الله 9 يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: [طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى][1]»[2].

الثقة بالله:

نعود إلى الحديث عن سُبل التواصل، وسبيل اليأس من الذات.

الشيخ الأحسائي معروف أنه كان من كبار علماء الشيعة، وله اختصاص في قضايا الحديث، وله شرح خاص للزيارة الجامعة، يذكر

---

(١) طه: ١ و٢.

(٢) الكافي ٢: ٩٥/ باب الشكر/ ح ٦.

في مقدمة كتابه عن بعض الرؤى والمنامات التي لديه، يقول: رأيت في المنام الإمام الحسن C ، فقلت له: يا ابن رسول الله، علّمني شيئاً يبقى ذخيرة لحياتي، فعلَّمَني هذه الأبيات:

كُن في أمورك مُعرضا وَكِل الأمورَ إلى القَضا
فَلَربَّ أمرٍ معسرٍ قَد كان يعقبه الرضا
فلربّما اتَّسع المضيق ولربما ضاقَ الفَضا
الله عوَّدك الجميل فَقِس على ما قَد مضى

الثقة والتوكل على الله ورجاء الفرج من الله تعالى هذا يجب أن يصنع شخصياتنا في حياتنا الأسرية، والاجتماعية، وحياتنا الاقتصادية، [إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المَتِينُ][1]، القرآن الكريم فيه آيات جميلة أنتم تقرؤوها، ومن الجميل أن يتأمّل الإنسان مثلاً في سورة الواقعة، يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[2]، فأنت مجرد تعطي ماء، والذي يُخرج الزرع هو الله، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[3]، ثمّ ينتقل في نموذج آخر فيقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾[4]، ثمّ ينتقل في تساؤل ثالث: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ﴾[5]، هذا الحطب الذي تجعلون منه

---

(١) الذاريات: ٥٨.
(٢) الواقعة: ٦٣ و ٦٤ .
(٣) الواقعة: ٦٥ - ٦٧.
(٤) الواقعة: ٦٨ و٦٩.
(٥) الواقعة: ٧١ و٧٢.

ناراً، أصل هذا الحطب هل أنتم زرعتموه؟، دائماً التذكير أنك أيها الإنسان تتلقى هذه النِعَم سواء في بدنك أو رزقك، وكلّ الوجود هو لله تبارك وتعالى.

وهكذا نقرأ في سورة المُلك: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾[1]، هذا الهدوء في الأرض رغم أنها متحركة أأنتم أصحاب سبب هذا الاستقرار في الكرة الأرضية؟.

نموذج آخر: ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ﴾[2]، فكّروا ستجدون أن كل نصر لديكم هو من عند الله تبارك وتعالى، ﴿إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾[3]، ونموذج آخر: ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[4].

قصة السيد المرعشي:

السيد المرعشي من علماء النجف، ومن مراجع الدين، توفي قبل عدة سنوات في أرض المهجر في قم، وهو من المراجع الكبار، كان في النجف الأشرف في مدرسة قوام التي هي إلى جوار مسجد الشيخ الطوسي.

يقول: كان لديَّ اثنا عشر مشكلة: منها أني كنت أسيء الظن بمن حولي من الطلبة؛ نتيجة بعض تصرفاتهم، وأخرى فقرٌ مُدقِع، حتّى أني

---

(١) الملك: ١٦.
(٢) الملك: ٢٠.
(٣) الآية السابقة.
(٤) الملك: ٢١.

كنت أبيت بلا عشاء، ومشكلة وجع القلب، وضعف البصر، وتراجع في الحالة الروحية، وبعض أقربائي كان يمنعني من الدراسة، ثمّ ذكر نقاطاً أخرى. وقد رأى الإمام الحسين C في المنام فعرض عليه تلك المشاكل، وسأله نقطة أخيرة وهي أن يرزقه الله الحج ثمّ يموت وهو في سفر الحج.

يقول السيد المرعشي فأجابني الإمام الحسين C في كل تلك المسائل سوى مسألة الحج.

ثمّ يُعلّق ويقول: ربما لأني اشترطت على الله أن أحج وأموت في الحج، وهذا الشرط لم يقبله الله، ولهذا لم يتدخل الإمام الحسين C في هذا الأمر.

يقول السيد المرعشي: قمت من النوم فإذا أذان الفجر، وقد فتحت أبواب الحرم الحسيني الشريف، ورجعت إلى النجف لأجد الأمور بعد ليلة واحدة كلّها قد حُلَّت ببركة شفاعة الإمام الحسين C . فكل القضايا بيد الله تبارك وتعالى، وليس لدينا من أنفسنا شيء.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الخامسة والثمانون:

حبّ اللّٰه تعالى

«اللَّهُمَّ إِنّي أسْأَلُكَ أنْ تَمْلأَ قَلْبِي حُبّاً لَكَ وَخَشْيَةً مِنْكَ وَتَصْدِيقاً بِكِتَابِكَ وَإِيمَاناً بِكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

مـا زال الحـديث عـن سُـبُل التواصـل بـين الإنسـان وبـين الله تبـارك وتعالى.

السبيل الخامس: حُبّ الله:

الـدعاء يقـول: «مَعْرفَتِـي يَـا مَـوْلايَ دَلِيلِـي عَلَيْـكَ، وَحُبّـي لَـكَ شَـفِيعِي إِلَيْـكَ، وَأَنَـا وَاثِـقٌ مِـنْ دَلِيلِـي بِـدَلالَتِكَ، وَسَـاكِنٌ مِـنْ شَـفِيعِي إِلَـى شَـفَاعَتِكَ»، مطمـئن بـأن هـذا الـدليل والمرشـد إليـك وهـو المعرفـة هـو مؤشـر ورشـد صحيح، وحبي لك شفيع قوي إلى رضاك.

تكلمنـا فـي محاضـرات سـابقة عـن حـب الله للعبـاد واليـوم نـتكلم عـن حـب العبـاد لله تعـالى، فحـبّ الله للعبـاد هـو أصـل الوجـود، ولـولا حـبّ الله تعـالى لمـا كنّـا، لكـن أنـت وأنـا كيـف نحـب الله؟ هـذا يحتـاج إلـى تحليـل، فمـا هـي مبـررات هـذا الحـب؟ ومـا هـي انعكاسـات وتطبيقـات هـذا الحـب؟ وكيـف نعـرف أن هـذا حـب صـادق أو غيـر صـادق؟ ثـمّ لمـاذا نحـب الله ونحن لا نراه ولا نسمعه ولا نشهده، فكيف نتعامل مع غيب؟

الـدعاء يقـول: «إِلَهِـي لَـوْ قَرَنْتَنِـي بالأَصْـفَادِ، وَمَنَعْتَنِـي سَـيْبَكَ مِـنْ بَـيْنِ الأَشْـهَادِ، وَدَلَلْـتَ عَلَـى فَضَـائِحِي عُيُـونَ الْعِبَـادِ، وَأَمَـرْتَ بِـي إِلَـى النَّـارِ، وَحُلْـتَ بَيْنـي وَبَـيْنَ الأَبْـرَارِ، مَـا قَطَعْـتُ رَجَـائِي مِنْـكَ، وَمَـا صَـرَفْتُ تَـأمِيلِي لِلْعَفْـو عَنْـكَ، وَلا خَـرَجَ حُبُّـكَ مِـنْ قَلْبِـي»، لـديَّ قـوة مـن الحـب حتّـى لـو كنـتُ فـي نـار

جهنم فإن حبي لا يزول، وفي دعاء آخر: «لو أمرتَ بي إلى النار لأعلمتُ أهلَها أنّي أُحبُّك».

والإمام علي C في مناجاته المنظومة يقول:

إلهي لئن عذَّبتني ألفَ حِجَةٍ　　فَحبْلُ رَجائي مِنكَ لا يَتقطَّعُ
إلهي حَليفُ الحُبِّ بالليل ساهرٌ　　يُناجي ويَدعو والمغفَّلُ يَهجَعُ[(١)]

هناك علماء صالحون يقررون على أنفسهم تقسيم الليالي على أنحاء العبادة، وهم ليسوا أنبياء ولا أئمّة، لكنما حبُّ الله قد غمرهم، إذن السؤال هو أن هذا الحب كيف يعمُر في قلوبنا؟

هناك شخص يبكي من حبّ الله وخشيته، وهؤلاء يوم القيامة كما في الرواية عن رسول الله 9 قال: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمّتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يَسرحون فيها، ويتنعمون كيف يشاؤون، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟

فيقولون: ما رأينا حساباً.

فيقولون: هل جزتم الصراط؟

فيقولون: ما رأينا صراطاً.

فيقولون: هل رأيتم جهنم؟

فيقولون: ما رأينا شيئاً.

فتقول الملائكة: من أمّة مَنْ أنتم؟

فيقولون: من أمّة محمّد 9 .

فيقولون: نشدناكم الله، حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟

(١) الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين C : ٣٤٦/ ٢٧٢.

فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله تعالى هذه المنزلة بفضل رحمته.

فيقولون: وما هما؟

فيقولون: كنّا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، وكنّا نرضى باليسير ممّا قَسَم لنا.

فتقول الملائكة: حقٌّ لكم هذا»[١] نعم، الحياء من الله، والرضا باليسير من الرزق هما سبب الوصول إلى هذه المنزلة الرفيعة، وحبّ الله هو السبب في الحياء منه والرضا بما يعطي.

حبّ الصالحين هو أيضاً انعكاس لحب الله، ولهذا فإن الإمام زين العابدين C يقول في الدعاء: «أسْألُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ كُلِّ عَمَل يُوصِلُنِي إلَى قُرْبكَ»، هذه ثلاث شعب للحب: حبّ الله، وحبّ المؤمنين، وحبّ الأعمال الصالحة. فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً وهو لا يحبّ المؤمنين.

المكوّنات الثلاثة للإنسان:

الإنسان له ثلاثة مكوّنات: العقل، والجسم، والقلب، فالإنسان لا هو عقل فقط، ولا هو بدن فقط، ولا هو قلب وعواطف فقط، وإن كل واحد من هذه المكونات له أعراضه وخصوصياته.

العقل مثلاً خصوصياته العلم والجهل فتقول: هذا عالم وذاك جاهل، هذا ذكي وذاك غبي، وهذه كلها من عوارض العقل.

أما الجسم فتقول: هذا معافى وذاك مريض، هذا قوي وذاك ضعيف، هذا كبير وذاك صغير، وهذه كلها عوارض البدن، ولكن هناك شيء ثالث، وهو جوهر الإنسان وحقيقته وهو نفس الإنسان، وقلب

---

(١) مسكن الفؤاد: ٨٠؛ عنه: بحار الأنوار ١٠٠/ ٢٦.

الإنسان، وأحاسيس الإنسان، هذا كريم وذاك بخيل، هذا قاسي القلب وذاك عطوف، وهذا شجاع وذاك جبان، وهذا محسن وهذا مسيء. وأنتم الآن تتعاملون مع الإنسان على أساس قلبه، أي المكوّن الثالث، وهو الأصل. سوف نلاحظ أن كل واحد من هذه المكوّنات له فاعل يختص به، وهي الفلسفة والطب والدين.

الفلسفة لها دور، والطب له دور، والدين له دور.

العقل شأن الفلسفة التي هي بحث المسائل الوجودية، وما هو الوجود؟ وكيف كان؟ وما هي حقيقته؟ فموضوع الفلسفة بحث مسألة الوجود، وهنا تأتي قضية أنك تؤمن بالله أو لا تؤمن، والدين هنا سيقول لك _ وفق الأدلة الفلسفية _ أنت يجب أن تكون معتقداً عقلياً بالله.

جسم الإنسان هو من اختصاص الطب، مريض أو معافى، وإذا كنت مريضاً فما هو العلاج؟ عوامل الصحة والمرض ما هي؟ هذا شأن الطب.

لكن ما هو شأن الدين؟

شأن الدين هو بناء الإنسان الكامل، فليس شأنه بناء الإنسان العالِم، أو الغني، أو القوي، أو الرياضي، مع أهميتها جميعاً، لكن ليس ذلك هو مسؤولية الدين، إنما مسؤولية الدين هي بناء الإنسان الكامل، ومع ذلك الدين يهتم بالجانب الفلسفي أيضاً ويقول: عقليتك الفلسفية يجب أن تكون عقلية توحيدية كما يهتم بالجانب الصحي فيقول: «اللَّهُمَّ أَعْطِنِي الصِّحَّةَ فِي الْجِسْمِ وَالْقُوَّةَ فِي الْبَدَنِ»، لكن الأصل في كل ذلك هو «وَالسَّلامَةَ فِي الدِّينِ».

الإسلام يهتم بذلك، لكن ليس من اختصاصه، وربما تناولهن

جانبياً، اختصاص الدين هو بناء الإنسان الكامل، بناؤه من خلال القلب السليم ومعطيات القلب، وهنا تأتي مسألة الحب الذي ليس هو خصوصية عقل ولا بدن، بل هو قضية في القلب، والقلب مرة يكون قلباً محبّاً، ومرة يكون قلباً كارهاً، وهنا يأتي دور الإسلام كيف يجعل من قلبك مُحبّاً لله ومحبّاً للصالحين، «اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ إِيمَاناً تُبَاشِرُ بِهِ قَلْبِي»، هذه هي اهتمامات الإسلام الأولى.

والحُب لله تعالى على مراتب، هناك حُب علي بن أبي طالب C عندما يقف صافّاً قدميه حتّى يُغمى عليه، هذه أعلى مرتبة، وما عُرفت لأحد، وعلي C كانت عادته أن يغمى عليه أثناء الارتباط بالله تبارك وتعالى. الإمام السجاد C كان إذا صلّى يصفر وجهه من خشية الله.

نحن أحياناً نذهب للسجود، ولكن يغلبنا النعاس، فأين هذا من حالة أولئك الصالحين! بعض العلماء العرفاء كان في مشهد الإمام الرضا C ، وكان في الليل يتعبّد في سطح الصحن الشريف فلما أرادوا غلق باب الصحن في الليل، قيل لهم إن فلاناً موجود على السطح، فصعدوا إليه، وإذا هو ساجد، ولثلاث مرات صعدوا إليه فكان في سجوده.

فقالوا: نغلق باب الصحن ونتركه مشغولاً بعبادته وفعلوا ذلك، لكن رئيس السَدَنَة قال: البَرد شديد في الليل، فاتركوا له حَطَباً، ثمّ أغلقوا أبواب الصحن وذهبوا، فلما جاؤوا عند الصباح وجدوه على حاله ساجداً، وقد أوشك الثلج أن يغطّيه، فنهض وصلّى صلاة الصبح بنفس ذلك السجود وذلك الوضوء، وهو لا يشعر بذلك البرد[1].

(١) ذلك هو الشيخ العابد حسن علي الأصفهاني النخدي المدفون في صحن الإمام الرضا C كما جاء في ترجمة حياته.

ما هي مبرّرات الحبّ؟

ولنسأل سؤالاً: ما هي مبررات هذا الحب بيننا وبين الله تبارك وتعالى؟

لنطرح هذا السؤال على أيّ حُبّ آخر غير الذي بيننا وبين الله تعالى: لماذا تحب الأبوين، الزوجة، الزوجة تحبّ زوجها، تحب مناظر طبيعية، تحب ثروة وأشياء كثيرة، لماذا هذا الحبّ؟ الجواب: أن للحب ثلاثة مبررات: الجمال، والمنفعة، والعظمة. ثلاثة مبررات لحبّ الإنسان لأيّ شيء آخر.

أمّا الجمال، فمثلاً تحب شيئاً لجماله كالطبيعة الجميلة، النهر الجميل، الحدائق الجميلة، وربما ليس لك مصلحة فيها، إلاّ أنه حبٌّ ينشأ من الجمال، وهو أحد دواعي الحُبّ.

والمبرّر الثاني للحبّ هو المنفعة، فلو كانت مصلحتك مرتبطة بهذا الأب أو الشريك أو الأستاذ أو الجيران أو المعلّم فإن أياديه عليك وإحسانه لك يفرض عليك أن تحبّه. هذا الإحسان هو من مبررات الحبّ وتقول هذا له يد عليَّ، فلا بدّ أن أحبّه.

والثالث: العظمة، هذا الكون العظيم، السماوات، النجوم، عظمة الخلق، كل ذلك من دواعي الانبهار والانشداد والجذب، فأنت تُحب أن تتعرف على ما هو عظيم وتنجذب إليه، كما تنجذب إلى الأبطال وأصحاب القدرات والمواهب النادرة. وتُحب أن تكون قريباً منهم.

هذه المبررات لنطبقها على العلاقة بيننا وبين الله تبارك وتعالى فسوف نجد أن الدعاء يقول: «يا أجمَلَ مِنْ كُلِّ جَميل»، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ مِنْ جَمَالِكَ بأجْمَلِهِ وَكُلُّ جَمَالِكَ جَمِيلٌ اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ

بجَمَالِكَ كُلِّهِ»، فإذا كان الإنسان يُحبّ الجمال، فإن الله أجمل من كل جميل، ولا يوجد جمال أكثر من جمال الله تعالى، فهذا الكون كله هو نفحة من نفحات الله تبارك وتعالى، لهذا ترون الأدعية تؤكّد على هذا الجانب في الوجود. وهي تناغم مشاعرنا العاطفية، الله جميل، ولا بدَّ أن نُحبّ ذلك الجميل، وهذا الكون كله امتداد له ولإشعاعه، فإذا كنّا نحبّ الجمال فهذا هو الجمال أمامنا.

وإذا كنّا نحبّ العظمة، فالكون هو آيات لعظمة الله تعالى، يجب أن ننظر إلى هذه الآيات الإلهية، وإذا كنّا نبهر بعظيم من العظماء، فالعظمة لله، «يَا أعْظَمَ مِنْ كُلِّ عَظِيم»، «اللَّهُمَّ إِنِّي أسْألُكَ مِنْ عَظَمَتِكَ بأعْظَمِهَا وَكُلُّ عَظَمَتِكَ عَظِيمَةٌ اللَّهُمَّ إِنِّي أسْألُكَ بعَظَمَتِكَ كُلِّهَا»، العظمة لله تبارك وتعالى.

وإذا كنّا نبحث عن الإحسان والأيادي الجميلة علينا فإن الله تبارك وتعالى أياديه مستمرة علينا، «إلهي، أنَا لا أنْسَى أيَادِيَكَ عِنْدِي وَسَتْرَكَ عَلَيَّ فِي دَارِ الدُّنْيَا» وهذا غير مسألة الجنّة والنار، بل هو لطف علينا في الدنيا قبل الآخرة، إذن حبُّ الله يجب أن يعمر قلوبنا.

مراحل حبّ الله:

العرفاء يقولون: إن حبّ الإنسان لله تعالى من أجل كسب الثواب هو أمر جيد لكن يجب أن يرتفع عنه إلى مرحلة أعلى وهي أن يحب الله تعالى لأجل الله وليس لأجل مصلحة دنيوية أو أخروية.

يُنقل عن بعض العرفاء قوله: في المرحلة الأولى دخلتُ في حبّ الدنيا حينما أحببت الله لأجل الدنيا، وفي المرحلة الثانية دخلتُ في حبّ

الآخرة حينما أحببت الله لأجل الآخرة، وفي المرحلة الثالثة تركت حبَّ كل شيء سوى الله فلا الدنيا ولا الآخرة هما هدفي من الحبّ إنما هدفي هو ذات الله، وفي المرحلة الرابعة أصبحت لا أريد شيئاً وليس لي هدف، وإنما الهدف هو ما يريده الله وليس لي إرادة أخرى.

الناس يُحشرون يوم القيامة على أساس [إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ][1].

قصة الأعرابي الزائر:

أحد العلماء يذكر رواية عن القلب المُحبّ، عن علاقاتنا بأهل البيت G ، وبالأولياء الصالحين، وهذه الرواية يرويها أحد العلماء عن السيد عبد الحسين سادن الحرم الحسيني الشريف في كربلاء، يقول: يوماً ما وأنا في الحرم الحسيني وإذا بأعرابي حافي القدم لكن قدمه وسخة ومُدماة من كثرة الأشواك، وقد وضع قدمه على الضريح الشريف، وهو يتحدّث مع الإمام الحسين C ، فقلت له: إن هذا المكان طاهر وأنت تنجسه بقدمك!، أخرج، فخرج، لكن التفت إلى الإمام الحسين C وقال له: يا حسين، كنتُ أتصوَّر هذا البيت بيتك، ولكن عرفت الآن أنه ليس بيتك، وخرج حزيناً، والسادن لا يدري حجم الخطأ الذي ارتكبه بل كان يظن أنه وقف موقفاً صحيحاً، لكنه رأى في المنام تلك الليلة كأن الحسين C قد نُصب له منبر في الصحن الشريف، والخَدَمة موجودون، وأرواح المؤمنين موجودة، وهو يقول للخَدَمة: لماذا تؤذوني؟ ولماذا أخلاقكم سيئة مع الزوّار؟

فقلت له: يا أبا عبد الله، ما الذي فعلناه مع الزوّار؟

---

(١) الشعراء: ٨٩.

قال C : اليوم كان رجل عندي وأنت طردته من بيتي، وهو الآن نائم خارج الصحن جَنب المُخيّم، وإذا لم يرضَ عنك فأنا لا أرضى عنك.

فاستيقظت من النوم وخرجت أبحث عن ذلك الأعرابي ورأيته بالفعل نائماً عند المخيم، فأيقظته وقبّلتُ يدّه وأكرمته، ثمّ أحضرته للصحن الشريف، وكان الحسين C قد قال لي في ذلك المنام أن حاجة الأعرابي قد قُضيت.

فقلت له: إن الحسين قد قضى حاجتك[1]، وقد أخبرني الحسين C أن عشيرتك ستأتي بابنك يمشي، ثمّ اجتمعنا ثلاثين شخصاً من الخَدم كي نستقبل عشيرة هذا الأعرابي، فجاءت العشيرة ومعهم ابنه يمشي ببركة الإمام الحسين C .

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) وكانت حاجة هذا الأعرابي شفاء ولده الكسيح الذي لا يقوى على المشي.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

الاتحاف بحبّ الأشراف: عبد الله بن محمّد الشبراوي الشافعي.

الإحتجاج: الطبرسي/ مطبعة النعمان/ النجف الأشرف/ ١٣٦٨هـ.

الاختصاص: الشيخ المفيد/ جماعة المدرسين/ قم.

اختيار معرفة الرجال: الشيخ الطوسي/ ت ميرداد الاسترابادي/ ت مهدي الرجائي/ مط بعثت/ قم/ ١٤٠٤هـ.

أسباب نزول الآيات: أبي الحسن النيسابوري/ ط ١٣٨٨/ مؤسسة الحلبي/ القاهرة.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر/ ت البجاوي/ دار الجيل/ بيروت/ ١٤١٢هـ.

أُسد الغابة: ابن الأثير/ منشورات إسماعيليان/ طهران.

الأسفار الأربعة: الملا صدر الدين محمّد الشيرازي/ بيروت.

أعيان الشيعة: محسن الأمين/ ت حسن الأمين/ دار التعارف/ بيروت.

إقبال الأعمال: ابن طاووس/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ مكتب الإعلام الإسلامي.

الأمالي: الشيخ الصدوق/ ت قسم الدراسات/ قم/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مؤسسة البعثة.

الأمالي: الشيخ الطوسي/ مؤسسة البعثة/ قم/ الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

أمالي المرتضى: الشريف المرتضى/ ت النعساني الحلبي/ ط ١/ ١٣٢٥هـ/ طبع ونشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي/ قم ١٤٠٣هـ.

بحار الأنوار: المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ بيروت/ ١٤٠٣ هـ.

بغية المسترشدين: عبد الرحمن بن محمّد بن حسين بن عمر باعلوي الحضرمي.
تاريخ الإسلام: الذهبي / ت تدمري / دار الكتاب العربي / بيروت / ١٩٨٧م.
تاريخ الإسلام والرجال: عثمان العثماني / مخطوط.
تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي / دار الكتب العلمية / بيروت / ١٤١٧هـ.
تاريخ الطبري: الطبري / ط ٤ / ١٤٠٣هـ / مؤسسة الأعلمي / بيروت.
تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر / ط ١٤١٥هـ / مط دار الفكر / ت عليّ شيري.
التبيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤٠٩هـ / طبع ونشر مكتبة الإعلام الإسلامي.
تحف العقول عن آل الرسول 9 : ابن شعبة الحراني / ت عليّ أكبر غفاري / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / جماعة المدرسين / قم.
تذكرة الخواص: السبط ابن الجوزي.
تفسير أبي السعود: أبي السعود العمادي / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
التفسير الأصفى: الفيض الكاشاني / مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة.
تفسير الثعلبي: الثعلبي / ت أبي محمّد بن عاشور / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ٢٠٠٢م.
تفسير جوامع الجامع: الطبرسي / ط ١ / ١٤١٨هـ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم.
تفسير القرطبي: أبي عبد الله محمّد القرطبي / ط ١٤٠٥ / طبع ونشر دار إحياء التراث الشيعي / بيروت.
تفسير القمي: علي بن إبراهيم / مؤسسة دار الكتاب / قم / الطبعة الثالثة / ١٤٠٤هـ.
تفسير مجاهد: مجاهد بن جبر / ت السوراني / مجمع البحوث الإسلاميّة / إسلام آباد.

تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي/ ط ٣/ دار الكتب الإسلاميّة/ طهران.
التوابين: ابن قدامة.
التوحيد: الشيخ الصدوق/ ت الطهراني/ ط ١٣٨٧/ جماعة المدرسين/ قم.
ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق/ مط أمير/ قم/ ط ٢/ ١٣٦٨هـ/ منشورات الرضي.
جالية الكدر في شرح منظومة البرزنجي: العلامة الأبياري/ ط مصر.
جامع السعادات: محمّد مهدي النراقي/ مط النعمان/ النجف الأشرف.
حلية الأولياء: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني.
الخصال: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفاري/ جماعة المدرسين/ قم.
الدعوات: قطب الدين الراوندي/ مؤسسة الإمام المهدي C / قم.
دلائل الإمامة: الطبري (الشيعي)/ مؤسسة البعثة/ قم/ ١٤١٣ هـ.
روضة الواعظين: محمّد بن الفتال النيسابوري/ منشورات الرضي/ قم.
سنن ابن ماجة: ابن ماجة القزويني/ دار الفكر/ (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).
سنن الترمذي: الترمذي/ دار الفكر/ تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.
سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي/ ط ١/ ١٣٤٨هـ/ دار الفكر/ بيروت.
سير أعلام النبلاء: محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي/ مؤسسة الرسالة بيروت.
السيرة الحلبية: الحلبي/ ط: مصطفى الحلبي.
السيرة النبوية: ابن هشام/ مكتبة محمّد علي صبيح/ ميدان الأزهر بمصر.
السيرة النبوية: ابن كثير/ ت مصطفى عبد الواحد/ دار المعرفة/ بيروت.
شرح إحقاق الحق: المرعشي النجفي/ مكتبة المرعشي النجفي/ قم.
شرح الأخبار: القاضي النعماني المغربي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
شرح اللمعة الدمشقية: الشهيد الثاني/ ت محمّد كلانتر/ منشورات جامعة النجف الدينية/ ١٤١٠هـ.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد/ ت محمّد أبو الفضل/ مط المرعشي/ دار إحياء الكتب العربية.

شواهد النبوة: عبد الرحمن الجامي الحنفي/ ط: بغداد.

صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل البخاري/ مط دار الفكر بيروت.

صحيح مسلم: مسلم ابن الحجاج النيسابوري/ دار الفكر بيروت.

الصحيفة السجادية: الأبطحي/ تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي/ ط ١/ ١٤١١هـ.

الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: ابن حجر العسقلاني.

الطبقات الكبرى: محمّد بن سعد/ دار صادر/ بيروت.

عبد الله بن سبأ: السيد مرتضى العسكري/ ط ٦/ ١٩٩٢م.

عدة الداعي ونجاح الساعي: أحمد بن فهد الحلي/ مكتبة الوجداني/ قم.

علل الشرائع: الشيخ الصدوق/ مط الحيدرية النجف/ ١٣٨٦هـ.

عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الاحسائي/ الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ/ قم.

عيون أخبار الرضا C : الصدوق/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٤٠٤ هـ.

الغيبة: الطوسي/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ الطبعة المحققة الأولى/ ١٤١١هـ.

فصل الخطاب: محمّد خواجة بارساي البخاري/ مخطوط.

الفصول المهمّة: ابن الصباغ المالكي/ ط: النجف الأشرف.

الفوائد الرضوية: الشيخ عبّاس القمي.

الكافي: الشيخ الكليني/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ٣/ ١٣٨٨هـ/ مط حيدري.

كامل الزيارات: الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه القمي/ ت جواد القيومي/ ط ١/ ١٤١٧/ مط مؤسسة النشر الإسلامي.

كشف الخفاء: العجلوني/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٩٨٨م.

كفاية الأثر: الخزاز القمي/ منشورات بيدار/ قم/ ١٤٠١ هـ.
كنز العمّال: المتقي الهندي/ ت مجموعة/ مطبع ونشر/ مؤسسة الرسالة/ بيروت.
لسان العرب: ابن منظور/ ط ١٤٠٥هـ/ نشر أدب الحوزة/ قم.
لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني/ ط ٢/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٣٩٠هـ.
مجمع البيان: الطبرسي/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ الطبعة الأولى/ ١٤١٥هـ.
مجمع الزوائد: الهيثمي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٤٠٨ هـ.
المحجّة البيضاء: محمّد محسن الفيض الكاشاني/ ت ١٠٩١هـ.
مرآة الأسرار: العارف عبد الرحمن الجشتي.
المستدرك: الحاكم النيسابوري/ ت المرعشلي/ دار المعرفة/ بيروت ١٤٠٦هـ.
مستدرك الوسائل ومستنبط الوسائل: الميرزا حسين النوري/ مؤسسة آل البيت/ ط ١/ ١٤٠٨هـ.
المستطرف في كل فن مستظرف: محمّد بن أحمد الابشيهي.
مسكن الفؤاد: الشهيد الثاني/ مؤسسة آل البيت/ قم/ ١٤١٧هـ.
مسند أحمد: أحمد بن حنبل/ دار صادر/ بيروت.
مشارق أنوار اليقين: الحافظ رجب البرسي/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٩٩٩م.
مصباح الشريعة: الإمام جعفر الصادق C / مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٤٠٠هـ.
مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي/ مؤسسة فقه الشيعة/ بيروت/ ١٤١١ هـ.
مطالب السؤول: ابن طلحة الشافعي/ ت ماجد أحمد العطية/ ط: طهران.
معاني الأخبار: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ١٣٦١هـ/ انتشارات إسلامي.
المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني/ ت السلفي/ مط دار إحياء التراث العربي/ ابن تيمية/ القاهرة.

مفتاح النجا: الشيخ محمّد بن رستم البدخشي.
مقتل الحسين C : السيد عبد الرزاق المقرّم/ ط النجف الأشرف.
المناقب: أحمد الخوارزمي/ ت الشيخ المحمودي/ ط ونشر مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ ت مجموعة ط ١٣٧٦/ المطبعة الحيدرية/ النجف.
من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ٢/ ١٤٠٤/ جماعة المدرسين.
الميزان في تفسير القرآن: السيد الطباطبائي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ جماعة المدرسين/ قم.
نزهة الجليس: السيد عبّاس المكّي.
نهج البلاغة: خطب الإمام عليّ C / ت محمّد عبده/ دار المعرفة/ بيروت.
الهداية الكبرى: الخصيبي/ ط ٤/ ١٤١١هـ/ مؤسسة البلاغ/ بيروت.
وسائل الشيعة: الحر العاملي/ ط ٢/ ١٤١٤/ مؤسسة آل البيت G / مط مهر/ قم.
وسيلة النجاة: السيد أبو الحسن الأصفاني.
وفيات الأعيان: ابن خلكان/ ت محمّد محي الدين عبد الحميد/ مط السعادة/ ط ١/ ١٣٦٧هـ/ مصر.
ينابيع المودة: القندوزي الحنفي/ دار الأسوة/ قم/ الطبعة الأولى/ ١٤١٦هـ.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *